الشَبِقة

ومهووسات أخريات

إيرفينغ والاس

الشبقة

ومهووسات أخريات

ترجمة محمد حنانا

الشبقة
ومهووسات أخريات

دراسات المدى

المــؤلــف : إيرفينغ والاس
عنوان الكتاب : الشبقة ومهووسات أخريات
المتــرجم : محمد حنانا
النــاشـــر : المدى
الطبعة الأولى : ٢٠٠٧
الطبعة الثانية : ٢٠١٠
الطبعة الثالثة : ٢٠١٢
الحقوق العربية محفوظة

Author:Irving Wallace
Title:The Nympho and other Maniacs
Translator:Muhammad Hanana
Al- Mada P.C.
First Edition: 2007
Second Edition: 2010
Third Edition: 2012
Arabic Copyright © Al- Mada

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 -Tel: 2322275 - 2322276 , Fax 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
www.daralmada.com Email:info@daralmada.com

بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
E-mail:almada112@yahoo.com

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع ، أو نقله ، على أي نحو ، أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية ، أو بالتصوير ، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك ، إلا بموافقة كتابية من الناشر ومقدماً .

All rights reserved. Not part of this publication may be reproduced stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means ; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

إن السؤال الكبير الذي لم يُجب عنه بعد، والذي لم أقدر بعد على الإجابة عنه، على الرغم من قضائي ثلاثين عاماً في البحث في الروح النِسوي، هو: ما الذي تريده المرأة؟

د. سيغموند فرويد

قبل البداية

«الفضائح الميتة» تشكل مواضيع جيدة للدراسة والتحليل، هكذا كتب اللورد بايرون في دون جوان.

حقاً إنها لكذلك، ولكن الذي لم تحدده لورديته هو أي طرف شكل «موضوعاً جيداً» للتحليل ـ الشخص الذي كان سلوكه فاضحاً، أم الشخص الذي رَوَّعَهُ عمل لا أخلاقي. ربما عن طريق قراءة الأحداث التاريخية المثيرة، والحقيقية، التي ستلي، سيتمكن القارئ أن يوضح لنفسه هذه النقطة.

أما أنا، وبصراحة تامة، فمفتون بالتمرد المفرط الذي استحوذ على الناس في ماضينا، خصوصاً على الجنس النسوي الذي سلك سلوكاً فضائحياً.

نحن نعرف أن الفضيحة تحيا عن طريق القيل والقال. وأنا أتفق تماماً مع ملاحظات أوسكار وايلد في «مروحة الليدي وندرمير» في أن القيل والقال فاتن، وأن التاريخ ليس سوى قيل وقال. ولكني أختلف مع وايلد حين يضيف «لكن الفضيحة هي قيل وقال جعلتها مبادئ الأخلاق مضجرة». العكس تماماً هو الصحيح. فالفضيحة هي قيل وقال جعلها حية ومثيرة واقع أنها تتعارض وتتصارع مع المبادئ الأخلاقية السائدة.

يكشف لنا معجم وبستر أن الفعل الفضائحي هو سلوك «كريه اجتماعياً، أو وعي فردي بآداب المجتمع أو بمبادئ الأخلاق يثير الاستنكار». تماماً يثير الاستنكار - أو إعجاباً سرياً وحسداً - أو الدهشة والفضول.

لطالما أردت أن أجمع معاً، في كتاب واحد، صالة من النساء المختلفات في الأعمار، والخلفيات الاجتماعية، والمواهب، النساء اللواتي أثارت اهتمامي حيواتهن وشخصياتهن - اللواتي كن شهيرات أو سيئات السمعة في الماضي والحاضر، لأنهن سلكن سلوكاً فضائحياً، فأصبحن بذلك شخصيات مثيرة للجدل.

جميع النساء في هذا الكتاب، شابات أو مسنات، يربطهن رباط واحد: فكل واحدة منهن كانت متورطة في فضيحة أو عدة فضائح، وكل واحدة أحرزت شهرة، أو حصدت عاراً لسلوك أهان أسرتها وأصدقاءها ونظراءها والناس عموماً. وإن معظم هؤلاء النسوة، أو ربما كلهن بالاختيار أو المصادفة، أصبحن شخصيات فضائحية لأنهن كن مهووسات.

الآن، المهووس ليس بالضرورة شخصاً مجنوناً مجرداً من مداركه. المهووس حسب تعريف المعجم هو شخص لديه حماسة شديدة، أو مبالغ بها أو مفرطة، تجاه شخص ما أو شيء ما. وهكذا فالمرأة المصابة بالغلمة الشديدة هي «امرأة تعاني رغبة جنسية قوية على نحو شاذ ولا تستطيع التحكم بها»، والعكوفة على الملذات هي المرأة «التي تشعر بشدة بأن المتعة الحسية هي في المقام الأول»، وهكذا أيضاً فالشخص المصاب بالاستحواذ المرضي هو «شخص لديه هاجس مرضي تجاه فكرة واحدة»، أي تتسلط عليه فكرة تسلطاً مقلقاً وغير سوي.

كل امرأة في هذا الكتاب كان لديها هوس، أصبحت مهووسة بسبب حماستها المفرطة إما لرجل ـ أو عدة رجال ـ أو لفكرة. ولأن هؤلاء النساء لم يخفين هوسهن فقد خلقن فضائح.

لقد كانت حماستهن المفرطة متنوعة. فالليدي جين إيلينبورو عُدَّت مصابة بالغلمة الشديدة، وكان سلوكها فضائحياً بسبب إفراطها في ممارسة الجنس. والليدي إيما هاملتون رُجح أنها كانت عكوفة على الملذات. وهكذا أيضاً كانت بولين بونابرت. لقد سببن فضائح لأنهن تحدين أعراف مجتمعاتهن ونشدن المتعة وفقاً لمقاييسهن.

ومن ناحية ثانية كانت آن رويال وفيكتوريا وودهول مصابتين بالمس الأحادي. لقد أحدثتا الفضائح لأن كل واحدة منهما تسلطت عليها فكرة واحدة ـ فآن رويال تسلطت عليها فكرة محاربة مؤسسات الدولة، وفيكتوريا وود هول فكرة النضال من أجل حقوق النساء وتحريرهن.

لقد تفاوتت هؤلاء النساء الواحدة عن الأخرى. ومع ذلك كُن في الواقع على قدم المساواة، فكل واحدة ثارت على أفكار عصرها أو أخلاقياته، وكل واحدة سارت على نحو مضاد للسلوك التقليدي ـ وكل واحدة أثارت الضجة والقيل والقال والغضب وسط معاصريها.

أعجبتني هؤلاء النساء لأنهن كن حرائر وغير هيابات. والآن جمعتُهن معاً ـ جمعتُ ثلاثين منهن في ستة عشر فصلاً، أربعة عشر منها تروي بتفصيل تام قصصاً شخصية، حيوات هؤلاء النساء التي بحثت عنها خلال عدة سنوات في المدن الأمريكية ولندن وباريس وروما ومدريد.

تسع من هذه السير الذاتية جديدة تظهر في طبعة لأول مرة، وسبع منها ظهرت في شكل مختلف إلى حد بعيد في كتابين من كتبي المبكرة.

ربما كان بعض هؤلاء السيدات أحمقَ، عنيداً، ساخطاً وذاتياً في سلوكه، مقدماً القليل وكذلك محرزاً القليل من القيمة الاعتبارية المستديمة. ومع ذلك كلهن هنا، لأني وجدتهن بصورة أساسية غير عاديات أو مسليات أو جميلات. مع كل واحدة منهن أقمت علاقة حب أدبية. وقد تبين لي أن بعضهن مسنات جداً، والبعض صغيرات جداً، والبعض عاصفات جداً، والبعض عصبيات جداً ـ والبعض كن محقات تماماً، كاملات فعلاً بالنسبة لي. ومع ذلك فكل كاملة أو ناقصة ملكت قلبي، أو بطريقة أخرى، لم تكن مقحمة في حياتي، وعلى هذه الصفحات.

لقد تمتعت بمهووساتي المفضوحات ـ وأستطيع أن آمل فقط بأن يتمتع قارئي بصورة متساوية بحافز مرافقتهن التي هي سارّة أحياناً، وتثير السخط أحياناً.

الكتاب الأول

الخليلة بوصفها فضيحة

النساء القعائد(*)

أنت، بالنسبة لي أيها الفن، تريح من الهموم، وتضيء حتى ليل الظلمة، أنت زحمة وسط العزلة.

تيبولوس

بعد ظهر أحد أيام عام ١٦٧٥، صعدت نيل غوين، المرأة الصغيرة ذات الشعر الأحمر، التي سبق أن خدمت في مبغى عندما كانت طفلة وجسدت أخت مونتيزوما على المسرح وغدت المحبوبة الملكية في سن التاسعة عشرة، صعدت إلى عربة كان أهداها إياها تشارلز الثاني، وانطلقت عبر مدينة لندن في نزهتها اليومية. وسرعان ما عرف المراقبون العربة ـ لكن دون من بداخلها. وقد اعتقد المتفرجون الغاضبون الذين احتشدوا هنا وهناك أن شاغل العربة كانت لويز دو كيروبال دوقة بورتسماوث، وهي امرأة فرنسية أرسلها لويس الرابع عشر لتسلية تشارلز. كانت حشود الناس ساخطة لأنهم علموا أن لويز دو كيروبال كاثوليكية، في الوقت الذي كانت العواطف التي تناهض الكاثوليكية متأججة. وعندما شقّت العربة طريقها المجهد خلال الجمهور المحتشد،

* Kept Woman – المرأة القعيدة: امرأة يزودها رجل بمكان ومال، ويزورها على نحو منتظم ليعاشرها. (المترجم)

صاح الناس لاعنين راكبها. تحملت نيل غوين الإهانات بقدر ما تستطيع ثم نفد صبرها. أمرت الحوذي بأن يقف، وأخرجت رأسها من النافذة وصاحت «صلّوا أيها الطيبون، كونوا متحدين، فأنا مومس بروتستانتية». وبصوت واحد زعق الناس معبرين عن بهجتهم. لوّحت المومس البروتسانتية بيدها نحو الحشد، بينما تابعت العربة طريقها. ووسط المئات من المراقبين لم يفكر أحد بأنه من غير اللائق أن تعلن خليلة الملك عن موقعها ببساطة وصراحة كبيرتين.

بعد ٢٣١ سنة، في يوم من أيام نيسان عام ١٩٠٦، وصلت ممثلة أخرى جذابة ـ بعد رحلة طويلة مع عشيقها عبر الأطلسي ـ إلى نيويورك لتلقى ترحيباً حاراً من حشد من المستقبلين ضم مارك توين وآرثر بريسبان وجين آدامز ووليام دين هاولز وهـ. ج. ويلز. كانت تدعى ماريا أندرييفا، وكانت فنانة على درجة عالية من الثقافة الأدبية. وكان عشيقها الروائي والكاتب المسرحي الروسي الكبير مكسيم غوركي ابن الثامنة والثلاثين.

قدم غوركي إلى الولايات المتحدة للحصول على دعم مالي من أجل الحركة الثورية الروسية. كان مقامه عالياً ـ حتى الرئيس ثيودور روزفلت فتح له باب البيت الأبيض ـ والحكومة القيصرية كانت منزعجة. ولما فشلت الحكومة القيصرية في منع غوركي من دخول أمريكا بوصفه إرهابياً، قررت السفارة الروسية في واشنطن بقسوة أن تجعله منبوذاً بوصفه فاجراً. لقد تحدثت الصحافة الأمريكية عن ماريا أندرييفا بوصفها زوجة غوركي، واحتفت بزوجة الكاتب، وقد سُجلت هكذا في فندق بيلكلير. والآن عملت السفارة الروسية لكشف الحقيقة.

فالسيدة غوركي الحقيقية كانت في روسيا. وقد انفصلت عن الكاتب منذ سنوات، لكنها ردّت طلبه بالطلاق. ووصال ماريا أندريفا مع الكاتب لم يُجزه رجال الدين. كانت ماريا خليلته على مدى ثلاث سنين.

لقد قدرت السفارة الروسية على نحو صحيح ردة الفعل الأمريكية حيال هذا الفجور القبيح. فقد تصدرت الفضيحة معظم الصحف. ونشرت صحيفة (عالم نيويورك) صورة زوجة غوركي الحقيقية، وصورة التي دُعيت السيدة غوركي والتي لم تكن زوجته على الإطلاق، إنما ممثلة روسية عاش معها بعد انفصاله عن زوجته قبل ثلاث سنوات.

في عام ١٦٧٥ كانت نيل غوين مبتهجة لاعترافها بأنها كانت خليلة. وفي عام ١٩٠٦ اضطُهدت ماريا أندريفا. لقد طرد الزانيان من فندق بيلكلير، ثم من فندق بريفورت ومن فندق راينلاد، وهذا الأخير طُردا منه في منتصف الليل. وتغاضى الرئيس روزفلت بسرعة عن استقبال البيت الأبيض. وتراجع الأمريكيون المشهورون عدا إدوين ماركام وجون ديوي. كما انسحب دين هاولز من حفل العشاء الذي كان عليه أن يترأسه، وهرع مارك توين ليحل محله. ألغيت مواعيد المحاضرات. وفي بوسطن عللت إحدى المضيفات المنسحبات بقولها: «أنا لا أريد محاكمة السيد غوركي، ولكن من الواضح أن موقفه من الأخلاق يختلف عن موقفنا». كانت الصحف مبتهجة. ابتهجت ابتهاجاً عظيماً بالقول إن «طهارة نُزُلنا لم تعد تدنسها امرأة ساقطة». انسحب غوركي إلى روسيا حيث حصل في النهاية على الطلاق، وبذلك أصبح زواجه من الممثلة قانونياً. وخلال هذه السنوات ذاتها عبر غوركي عن موقفه إزاء الولايات المتحدة في سلسلة من القصص القصيرة اللاذعة.

هذان الحدثان ـ الفرح الجماهيري بقبول نيل غوين، والرفض الغاضب لـ ماريا أندريبفا ـ يوضحان إلى أي حد انحطت الخليلة في النظر الشعبي في أقل من قرنين ونصف. في القرن السابع عشر كان لدى الخليلة سبب لجعلها فخورة بوضعها. وفي النصف الأول من القرن العشرين انحطت بها الحال إلى التمويه المؤلم بأنها صديقة صالحة، رفيقة ثابتة، وتدعى فتاة.

اليوم، في الوقت الذي لا تزال الدعارة تفرض وجودها، واختلاط الجنسين أكثر انتشاراً من أي وقت مضى، فإن موقع الخليلة القديم هو خارج نطاق الشرف ـ موقع تتوق بعضهن إليه، موقع يؤول ببطء ولكن بصورة أكيدة، إلى الانقراض بالطبع يظل هنالك خليلات في كل أمة متحضرة في العالم الغربي، ولكن لم يعد بإمكان وضعهن أن يزدهر. ويكثر الهمس الآن في أوساط كبار السن عن فضيحة، عن استهجان، في الوقت الذي ينعم الشبان بشيء يدعى «العيش معاً». لكن لم يكن هكذا دائماً.

ما هي الخليلة؟ جميع المعاجم على وجه التقريب تتطابق في وصفها. في المعجم الإنكليزي الجديد «هي المرأة التي تحتل على نحو غير مشروع مكان الزوجة». وفي معجم ستاندارد الجديد «هي المرأة التي تشغل على نحو غير شرعي، أو دون زواج، مكان الزوجة». وفي معجم ويبستر العالمي الجديد «هي المرأة التي يعتاد الرجل العيش معها على نحو غير شرعي كعشيقة».

بما أن الخليلة تتصنع، مدة أسبوع أو سنة أو العمر كله، مع عشيقها المتزوج أم غير المتزوج، دور الزوجة، أو تقوم بواجب الزوجة الأساسي،

فمن الأفضل أن تكون مفهومة إن أراد المرء أن يفهم أولاً معنى الزواج. «يستخدم الزواج عموماً كمصطلح لأجل المؤسسة الاجتماعية»، هذا ما كتبه إدوارد ويسترمارك في «موجز تاريخ الزواج». «وبحكم أنه يُعرف كعلاقة بين رجل وامرأة يقرها العُرف أو القانون وتستلزم حقوقاً وواجبات...... فالزواج يتضمن دائماً حق المضاجعة؛ وتجعل المؤسسة الاجتماعية هذه المضاجعة مباحة في حالة الزوج والزوجة، ويُنظر إليها على أنها، إلى حد ما، واجب كل منهما لإشباع رغبة الشريك».

نشأ الزواج في فترات غامضة للمجتمع المتوحش أو البدائي. في البداية تزاوجت مجموعات من الرجال بمجموعات من النساء، وكان يجري دائماً تغيير الشركاء، وتجري دائماً تربية ذريتهم بصورة مشاعية. «هذه العادة كان يقرها العُرف، وفيما بعد القانون»، «وبالتالي جرى التحول إلى المؤسسة الاجتماعية». وأخيراً حل الزواج الأحادي محل تعدد الزوجات والأزواج في العالم الغربي. ومع قبول الزواج من شخص واحد فقط، كانت الخليلة جاهزة لدخول التاريخ.

في الوقت الذي كسبت فيه الزوجة الأحادية امتيازات محددة أجازها القانون، ودرجات من الحماية، تُركت عرضة للتنافس مع نساء أخريات. لقد أدركت بسرعة أن الطبيعة كانت عدو الزواج الأحادي. فعندما تكون في الطمث أو في مرحلة متقدمة من الحمل، لا تستطيع إرضاء رغبات زوجها الجنسية. وعندما ترهقها السنون ويذبل جمالها، لا تستطيع منع زوجها من البحث عن شبابه الضائع في شباب نساء أخريات. وبينما يحسن مرور الزمن موقعها بوصفها رفيقة، تجد أن ذلك يبلد شهوات زوجها الجنسية، وإن ذلك يجعله يتوق إلى التغيير

والتجديد علّ ذلك يحفزه من جديد. وعندما تكون قد تزوجت من أجل مهرها، كما هو الأمر في العديد من الحالات ـ ملكية وأموال ومركز اجتماعي وسلطة ـ تدرك أن زوجها يمكن أن يبحث عن الحب الجنسي منذ البداية في مكان آخر. لقد حصلت الزوجة الأحادية على لقب زوجها وحمايته، لكنها لم تحصل على عهد بوجوده في سرير الزوجية فقط. إن خوفها المسيطر قد تأسس جيداً ـ لأن الزواج الأحادي قد خلق المرأة «التي تحتل بصورة محرمة مكان الزوجة».

لقد اتخذت الزوجة المحرمة، زوجة الرجل المتزوج أو غير المتزوج، عبر العصور أسماء وصفات عديدة: زانية، زوجة معارضة (امرأة يعيش معها رجل عيشة زوجية لكن دون زواج)، سرية، مشبوهة، حظية، بغي، مومس، بنت هوى، خليلة، فاسقة، قعيدة، قرور (لا تردّ يد لامس)، متبذلة (تركت الاحتشام والتصون). جميع هذه الأسماء والنعوت، مع تنويعات ضئيلة في الوظيفة والأداء، وصفت بها المرأة ذاتها ـ الخليلة.

ومع ذلك تقع معظم الخليلات في واحدة من هذه المقولات المحددة. وتمثل الزانية، التي لولا وجودها لكان الروائيون من ستاندال إلى تولستوي أقل غزارة بكثير، نمطاً خاصاً من المرأة القعيدة. إنها امرأة تقيم علاقة جنسية مع رجل آخر في الوقت الذي لا تزال متزوجة على نحو شرعي. فالمرأة المتزوجة ترتكب الزنى، في حين تقترف غير المتزوجة السفاح.

عندما أعلن موسى واحدة من وصاياه العشر «أنتِ لن تقترفي الزنى»، كان يحمي إلى حد بعيد الأزواج من أضرار الغير ومن الأذى الروحي. في زمن العهد القديم كانت الزانية تُرجم حتى الموت. وفيما بعد

لطف المسيح من هذه القساوة. لقد أجاب المسيح بتحدٍ عندما وضع الفريسيون بين يديه زانية ظانين أنها ستُرجم «من منكم بلا خطيئة فليرجم الحجر الأول».

وفي حين نشدت العديد من الزانيات، عن طريق اقتراف الآثام، تحسين وضعهن المالي أو منزلتهن الاجتماعية، غدت أغلبية النساء المتزوجات متورطات في علاقات محرمة لأنهن بحثن عن الحب. وهنالك المئات من الأمثلة على ذلك. وحالة مارغريت دو بونمان هي حالة نموذجية.

كانت مدام دو بونمان، الشقراء ذات العينين الزرقاوين الرائعتين، متزوجة من الملازم الأول فيكونت بيير دو بونمان حين قابلت أول مرة الجنرال جورج بولانجيه، الذي كان وقتئذٍ وزير الحرب في فرنسا. لقد تعرف أحدهما إلى الآخر خلال حفل عشاء في باريس دعت إليه صديقة مدام دو بونمان. لقد أحب أحدهما الآخر من أول نظرة، ولم يفترقا منذ تلك اللحظة أبداً.

أمضيا معاً أربع سنوات، وخلال تلك السنوات صعد نجم الجنرال بولانجيه وسقط. ففي عام ١٨٨٧ وضع بولانجيه بدعم من الملكيين خطة سرية لإقامة حكومة ديكتاتورية، وبسبب ذلك نُفي إلى الأقاليم. ولدى عودته إلى باريس متخفياً شكّل الحزب القومي، بعد ذلك استقال من الجيش ليتفرغ لإدارة الحزب. وقد فازت حملته المعادية للديمقراطية في الانتخابات التمهيدية فوزاً ساحقاً وشُطرت فرنسا إلى معسكرين. فقد دعم أناتول فرانس بولانجيه، بينما حاربه إميل زولا. وبذلك ارتفع مقامه عالياً. ولكن كان هنالك مدام أرمان دو كيلافيت التي أشارت بصورة

جافة، بعد حفل دُعي إليه بولانجيه،إلى «أن بولانجيه ليس أسداً، بل مجرد ثعلب». ولم يكن الثعلب يمتلك شجاعة الأسد. فعندما حانت لحظة القرار الحاسمة، لحظة اتخاذ قراره في تحقيق انقلاب كان قادراً عليه، تداعى. وبينما كان يتخبط في تردده تصرفت الحكومة القائمة بصورة ملائمة بعد أن أدركت ضعفه. وعندما كان يجري الإعداد لمحاكمته فر إلى بروكسل.

بقيت مدام دو بونمان خلال تلك السنوات المشؤومة بجانبه. ومع أن بولانجيه كان انفصل عن زوجته منذ مدة طويلة، ظلت خليلته ذات زوج، لقد حصلت على طلاق مدني، لكن ذلك لم يكن كافياً. كانت كاثوليكية متزمتة. التمست من الفاتيكان فسخ زواجها، لكن دون جدوى، وهكذا ارتضت دور الزانية. تبعت بولانجيه إلى منفاه الأول في رويات، وهي منتجع فرنسي، حيث كان معتقلاً في مقر عسكري. وحين علم بوصولها، ذهب بولانجيه إلى حائط سجنه متفادياً الحراس لإخفاء لقائهما الغرامي الأول. وسرعان ما بدأا يجتمعان يومياً في جو من السرية والحظر. كانت مدام دو بونمان تعزف له على البيانو مرتدية عباءات ليلية مصنوعة من الدانتيل والساتان، وتقرأ له من الكتب العسكرية وتضاجعه. وبعد وقت قصير غدت حبلى، لكنها فقدت الجنين في شهرها الرابع إثر انهيار أصابها.

عندما فر بولانجيه إلى بروكسل عام ١٨٨٩ مع ثمانية عشر من ضباطه وخدمه، رافقته دو بونمان وفي جعبتها ستون ثوباً من أثوابها. وفي بروكسل أصيبت بعدوى ذات الجنب، وعندما غادر الاثنان إلى لندن استفحل مرضها. وفي حين تعاطى بولانجيه الأفيون لتهدئة أعصابه،

وتآمر بالحاح ليعود إلى باريس، جهدت خليلته دون توقف لجمع المال اللازم لبقائهما حيًّين. وسرعان ما أصبحا على حافة الإفلاس. انتقلا إلى سانت هليير الواقعة في جزيرة جيرسي. وهنا عانت مدام بونمان نوبات سعال رهيبة بسبب برودة المكان. ولما كانت غير قادرة على الاحتفاظ بالطعام فقد تحولت إلى هيكل إنساني، لقد هزلت ببطء بتأثير مرض السل. وذات مرة جرَّت جسدها المنهك نحو باريس لتجمع إرثاً أتى متأخراً جداً. وبعد وصولها إلى بروكسل، وإلى بولانجيه عام ١٨٩١ ماتت.

على بلاطة قبرها نقش بولانجيه اسمها الأول «مارغريت» وتحته عهداً بسيطاً «سأراكِ عما قريب». وقد برٌ بوعده. فبعد شهرين ونصف الشهر وقف أمام قبرها وأطلق النار على نفسه. شُيِّدت بلاطة قبره بالقرب من بلاطة قبرها، ونُقشت على بلاطة قبره العبارة التي أوصى بها. في الأعلى اسمه الأول «جورج»، وتحته نُحت سؤال العشيق «هل باستطاعتي العيش دونك مدة شهرين ونصف؟».

وسط أصناف الخليلة المختلفة ثمة حالتان غير شرعيتين، حالة السُرِيَّة، وهي نمط من الشريك الجنسي كان مقبولاً على نطاق واسع حتى القرون الوسطى، وحالة المُعارضة (أن يُعارِض الرجل المرأة فيأتيها بلا زواج ولا ملك)، وهي نمط من الشريك الجنسي أُجيز على نحو واسع، وسُلِّم به من الوجهة القانونية كذلك في الأزمنة العصرية.

لقد عرفت السُرِّيَّة تاريخياً لمدة أطول من المدة التي عُرفت فيها الزوجة. في البداية كانت في أغلب الأحيان جائزة الحرب، أَمَة مملوكة لأغراض مالكها. كان عليها في أزمنة تلت أن تقوم بما تقوم به الزوجة،

في الفراش وخارجه،وأن تحب سيدها وتطيعه، وأن تكون وفية له. وكان عدم الإخلاص إثماً غالباً ما يستحق العقاب حتى الموت. لم تكن السُرِّيّة تملك هي وأطفالها حقوق الميراث أو المواطنة. وقد اعترفت الكنيسة بالسُرية طوال سبعة قرون بعد قسطنطين، وسوغ وجودها سلسلة الرؤساء منذ ديموستين إلى توما الأكويني.

كانت خليفة السُرِية بمعنى من المعاني هي المُعارضة. وحسب موسوعة العلوم الاجتماعية: إن الزواج العرفي هو زواج لا يحتفل به بأي شكل من الأشكال، ويبنى فقط على موافقة الطرفين المتبادلة. وهكذا فهو الزواج الذي لا يعتمد من أجل شرعيته على أي طقس ديني أو مدني. إنه غير مرخص وغير مسجل وغير رسمي». لقد أقرت روما حقوق الزوجة التي تزوجت زواجاً عرفياً، كذلك أُقرت في إنكلترا حتى عام ١٧٥٣، وأُقرت حتى عهد قريب في نصف الولايات المتحدة تقريباً. ومع ذلك فهي زوجة غير شرعية. إنها خليلة.

مثل هذه الخليلة كانت ليوني ليون، الفتاة الفرنسية الجذابة البالغة من العمر أربعة وعشرين عاماً التي عقدت اتحاداً عرفياً مع رجل الدولة الفرنسي ذي العين الواحدة ليون غامبيتا.

غادرت مدموزيل ليون، وهي ابنة كولونيل فرنسي، منزلها قاصدة باريس بعد موت والدها. وقد استُخدمت لتدرّس أطفال أحد موظفي الدولة الهامين. وفي آخر الأمر أغواها هذا الموظف. فغادرت أسرته، وشعور بالذنب يعصف بها، لتقيم وحدها وتتدبر أمر معيشتها بأفضل ما تستطيع.

وفي أحد أيام عام ١٨٦٩ شهدت جلسة للهيئة التشريعية لتستمع إلى خطاب غامبيتا العظيم. محامٍ بليغ وعضو في مجلس النواب، إنه

هو الذي نادى بسقوط نابليون الثالث بعد سيدان(*) (Sedan)، وهو الذي أسس الجمهورية الجديدة وصمم على الاستمرار في قتال بسمارك بعد الفرار من باريس في منطاد. راقبته مدموزيل ليون، الطويلة والجميلة، من مقعدها باهتياج متزايد. وعندما التقت عينا غامبيتا بعينيها تلعثم في خطابه للحظة. وفي اللحظة التي أتم بها خطابه خط جهاراً حاشية موجزة وأرسلها إليها أمام أعين الجميع. عندها هبت واقفة ومزقتها بتحدٍ ولاذت بالفرار. وبعد سنتين تقابلا من جديد في منزل صديق لهما. تبعها غامبيتا في الشارع وحشرها في زاوية منه واقترح عليها الزواج.

أصبحت خليلته، لكنها لم تصبح زوجته. كانت كاثوليكية ترى أن الزواج الحقيقي هو الزواج الذي يحدث داخل الكنيسة. ومن ناحية ثانية كان غامبيتا قائد حزب مقاوم للأكليروس في فرنسا. ولم يكن باستطاعته قبول احتفال ديني دون أن يتعرض مركزه للخطر. وعندما لم يحظ بزواج كنسي اقترحت تسوية «لنكن مخطوبين شكلياً ونتبادل خاتمي الزواج، وليعد أحدنا الآخر بالزواج في المستقبل». وهكذا غدت خليلته.

وعلى الرغم من أنها احتفظت بمنزلها الخاص، إلا أنهما عاشا معاً. كانت حب حياته وملهمته. وبتشجيع منها أصبح رئيساً لمجلس النواب عام ، ١٨٧٩ وبعد ثلاث سنوات أحبط جراء هزيمته في المجلس، واعتزل الحياة العامة وخطط لجعل اتحاده بـ ليوني ليون رسمياً. وبالأحد عشر ألف فرنك الأخيرة اشترى عقار بلزاك القديم في «Les Jardies» وحدد موعداً للزفاف. ولكن قبل الزفاف بوقت قصير أصاب نفسه عن غير

---

* سيدان : بلدة في شمال شرق فرنسا على نهر الموز قرب الحدود البلجيكية . في هذه البلدة استسلم جيش نابليون الثالث للألمان . المترجم

قصد بطلق ناري أثناء قيامه بتنظيف مسدس خاص بالمبارزات. ومع أن إصابته لم تكن بليغة إلا أنه أصيب بالتسمم ومات في ليلة رأس السنة من عام ١٨٨٢. في البداية دخلت خليلته الدير، وبعد ذلك، وبمساعدة أتباع عشيقها، عاشت في علية في باريس حتى وفاتها عام ١٩٠٦. وقد احتفظت حتى النهاية بكلمات كان غامبيتا كتبها، ربما كانت بالنسبة لها أثمن من عقد الزواج : «إلى ضوء روحي؛ إلى نجمة حياتي ليوني ليون. إلى الأبد! إلى الأبد»!

وسط جميع أشكال المرأة القعيدة، فإن الحظية (المرأة التي تتلقى مكافأة مقابل الجنس من نبلاء القوم أو من الأشخاص البارزين اجتماعياً) هي الأقرب، في المفهوم العام ، إلى الخليلة. وتمتلك الحظية استقلالية أكثر من الخليلة. إنها تتمتع بحرية اختيار العشاق الذين تفضلهم. وهي ليست مقيدة بالتزامات زواج أو زواج زائف. وخلال حياتها ربما تقيم علاقة مع شخص واحد ـ أو ربما مع مئة، ويمكن أن تعيش وتنام مع رجل من اختيارها مدة يوم واحد أو سنة أو طيلة المدة التي ترغب فيها. وربما تبحث في كل اختيار عن الحب أو الأمن أو كليهما. إنها ـ بغض النظر عن الطموح والماديات ـ سيدة نفسها.

إن العديد من علاقاتها، كما لاحظ الدكتور جوزيف تننبوم في كتابه لغز المرأة، «تُبنى على قاعدة راسخة من الحب والانجذاب الجنسي. وربما لأنها علاقات اختيارية وقابلة للإنهاء فإنها تدوم أكثر من العديد من الزيجات الرسمية». ما الذي يدفع بامرأة إلى أن تكون حظية؟ إنها الحاجة الاقتصادية أحياناً. إن امرأة ولدت في الفقر، وفي ظروف لا تتوفر فيها إمكانات العيش خارج نطاق الزواج، من المحتمل أن تبحث

عن نصيبها في الحياة عن طريق تسويق جمال وجهها وجسدها أو سلوكها الشهواني، مع إرادة لتحقيق القوة. وإن امرأة تنتمي إلى الطبقة الوسطى أو إلى طبقة أقل شأناً من الطبقة الأرستقراطية ربما ترغب في الصعود إلى الدوائر النبيلة أو إلى تحقيق الثروة عن طريق المتاجرة بجمالها وذكائها وفتنتها خابرة الثمالة التي تأتي من امتلاك السلطة. وفي بعض الأحيان تكون ثمة ضرورة سيكولوجية. فمن المحتمل أن تبلغ امرأة النضج ولديها رغبات جنسية أو غلمة شديدة، فترغب في العديد من الرجال أو في تنويع الرجال، وربما تفقد ذاتها في الشهوة التي لا ترتوي أبداً، لأنها تبحث عن الحب الذي لم تتلقّه من أبويها، أو بسبب علاقة الأب غير المرضية التي أدت إلى استمرار الحقد تجاه الرجال.

في صالة الحظايا التاريخية ثمة العديد من الشخصيات المدهشة. ولكن كان هنالك واحدة فقط هي آن دو لينكلوز التي عُرفت بـ نينون. كانت حظية كلاسيكية إن جاز لنا وصفها بذلك. كانت دقيقة الجسم طويلة القامة متناسقة الجسد، ذات شعر أحمر وعينين سوداوين واسعتين وشفتين ممتلئتين مثيرتين. كانت حلوة الشمائل متقدة الذهن متضلعة بالموسيقا والأدب وفي الجماع. عاشت خمسةً وثمانين عاماً، ومارست مئات الحيوات.

ولدت في باريس في أيار من عام ١٦٢٠. كانت والدتها منفرة ومتدينة وربة بيت قاسية حاولت أن تغرس في نينون مخافة الله. وكان والدها، بحسب فولتير، موسيقياً متواضعاً فقيراً، عزز دخله بأن عمل قواداً. وقد جعل من ابنته، وهو العارف بأذواق الرجال، طفلة محنكة بأمور الدنيا. ففي الثانية عشرة من عمرها تعلمت الرقص والعزف على

الهاربسيكورد وقرأت مونتيه(*). لقد مجد والدها مزايا مذهب المتعة، وهذا الدرس تعلمته نينون جيداً.

توفي والدا نينون قبل أن تبلغ العشرين تاركَيْنِ لها إرثاً صغيراً استثمرته بحكمة مما حقق لها دخلاً يكفيها. وقبل وفاة والدها كانت قابلت العديد من أصدقائه ـ كُتّاب، جنود، نبلاء صغار ـ الذين يحتشدون في ضواحي باريس. والآن وقد أصبحت حرة طليقة جذبت اهتمامهم.

أقامت نينون علاقات مع جمع غفير، كان أولها مع الكونت الشاب غاسبار دوكوليني. وبالتزامن مع هذه العلاقة أقامت علاقة مع آبي ديسيا ومع الماريشال ديستري، وعندما غدت حاملاً أعلن كل منهما شرف أنه أحبلها. وقد حسما موضوع أبوة الطفل المنتظر بإلقاء النرد، وهكذا نشأ ابنها الأول في كنف ماريشال ديستري.

إن علاقات نينون وظهورها أغرت كاردينال دو ريشيلو بدعوتها. كان يتوق إلى جسدها، وكانت ترغب في علاقة أفلاطونية. ولم ينجح أحد منهما في مسعاه. وبدلاً من ذلك دفعت نينون للكاردينال أعز صديقة لها وهي ماريون ديلورم. وكانت ماريون أكثر تقبلاً للعروض الكنسية، وإلى الخمسين ألف كرون التي دفعها لقاء التمتع بمفاتنها.

وسرعان ما تولت نينون شؤون أشهر صالون في باريس. لقد قدِم أشهر الزوار لرؤيتها والاستسلام لها. وقد قسمتهم نينون إلى ثلاث فئات: «الدافعون، الضحايا، المفضلون». كان سانت ـ إيفريموند عشيقها

---

* ميشيل مونتيه ١٥٣٢ـ ١٥٩٢ : كاتب ومفكر فرنسي عاش في التأمل والقراءة ثم طاف أوروبا . دوّن أفكاره واختباراته في كتابين «المحاولات» و يوميات» . المنجد

وصديقها. وكذلك كان الـ Rochefoucauld. وتقاسمها مركيز دو سيفينيه والدوق دانييه. وابن مركيز دو سيفينيه خلف والده بالذهاب إلى فراشها، ولكن لأمد قصير. فقد صرفته نينون بسرعة لأنها لاحظت أنه يمتلك «روح ثور هائج، وجسد ورقة رطبة، وقلباً يشبه بقطينة محمَّرة في الثلج». أما علاقتها مع ماركيز دو فيلاكرو فقد كانت الأطول في مدتها، إذ نقلها إلى بيته الريفي حيث بقيت فيه ثلاث سنوات. وحين تركها ليتزوج هرعت نينون لإقامة علاقة مع م. دو غريسيه الذي رزقت منه ابنها الثاني.

وعلى الرغم من أن مظهرها العام يوحي بأنها باردة ولا مبالية، كانت تدب بها الحياة أثناء ممارسة الحب وتطلب من عشاقها ذات الحرارة. كانت تقول «تحتاج الواحدة إلى الروح الوثابة لكي تحب كما ينبغي أكثر مئة مرة من حاجتها إلى قيادة الجيوش». وفي مناسبة أخرى شرحت ذلك بقولها «الحب دون حماسة هو كالصنارة دون طعم». وعندما غدا كونت دو شواسول غير مُبالٍ كثيراً في ممارسة الحب، أرسلت إليه حاشية تتضمن جملة من كورنيي : «أيتها السماء، ما أكثر الفضائل التي جعلتني مكروهاً!».

ذات مرة، في المراحل المبكرة من علاقتها بـ مركيز دو سيفييه (الذي قُتل فيما بعد في مبارزة)، سكبت مشاعرها إثر وقوعها في الحب محاولة إظهار عاطفتها: «أيها الحب! أحس أنك غضب إلهي! اضطرابي، أفراحي، كل شيء يعلن حضورك. اليوم أشرقت شمس جديدة من أجلي؛ كل شيء يحيا، كل شيء مفعم بالحيوية، كل شيء يبدو كأنه يحدثني عن ولعي وهيامي، كل شيء يدعوني أن أحنو عليه. منذ أن

أحببتك غدا أصدقائي أغلى على نفسي؛ غدوت أحب نفسي أكثر؛ بدت أصوات عودي أكثر تأثيراً في نفسي، وأصواتي أكثر انسجاماً. إن شئت عزف مقطوعة تستولي عليَّ الحماسة والشوق، والاضطراب الذي يسببانه يعترضني في كل دقيقة. عندئذٍ حلم يقظة، مليء بالبهجة، يلي نشوتي. أنت حاضر في عينيَّ؛ أراك، أتحدث معك، أخبرك بأني أحبك، وأرغب أن أقر منك؛ أكتب إليك ودمعي فوق رسائلي، أعيد قراءة رسائلك، إنها تبدو لي الآن بهيجة وعاطفية وشهوانية وقصيرة. أستشير مرآتي، أسأل النسوة عن مفاتني. وفي إيجاز أحبك، أنا مجنونة ولا أعرف كيف سأغدو إن لم تفِ بوعدك هذه الليلة».إن القليل من الرجال يستطيعون مقاومة دعوة كهذه الدعوة.

كان ذكاء نينون أيضاً مثيراً للإعجاب، وتصبح لاذعة لدى تعرضها لموقف محرج. فعندما طلبت وصية عرش النمسا آن من نينون، وقد أغاظها صالونها الفاضح، أن تذهب إلى الدير وافقت مقترحة « The Monastery of the Grands Cordeliers » وهذا الدير، كما يعرفه جميع سكان باريس، لا يسكنه فقط الرهبان الفرنسيسكان ـ لكنه اشتُهر بانغماس رهبانه بالفسوق وملذات الجسد. وفي مناسبة أخرى رفض أحد عشاقها، وهو مركيز دو لاشاستر، القيام برحلة عمل ما لم توقع نينون اتفاقية تضمن إخلاصها له أثناء غيابه. فوقعت نينون بغضب. وفور رحيله اتخذت نينون سلسلة من العشاق الجدد، وأربكت الجميع عندما هتفت ضاحكة «آه» ذلك هو الضمان المبهج الذي أعطيته لـ شاستر».

لقد قدِم عظماء الناس للتودد إليها. موليير وسكارون ومدام دو مينتنون وفولتير ابن الثالثة عشرة (الذي أوصت بإعطائه ألفي فرنك

لشراء الكتب) وكريستينا ملكة السويد. لقد منعت السكيرين من ارتياد صالونها، وتجنبت هي نفسها الكحول. وسخرت من العفة، لكنها لم تسمح بالمحادثات السوقية. كانت صادقة ومخلصة، فعندما أكره أحد النبلاء على الفرار من باريس قسم مدخراته البالغة عشرين ألف كراون بين كاهن وبين نينون، ورجاهما الاحتفاظ بالمال إلى حين عودته. وعندما تمكن من العودة إلى باريس فزع حين علم أن صديقه الكاهن كان أعطى نصف المال للفقراء لكسب سمعة الإحسان. فعلق النبيل المفلس على ذلك بقوله «إذا كان هذا ما لقيته من قديس فما الذي أنتظره من خاطئة؟». لكنه دهش عندما وجد نينون تنتظره مع العشرة آلاف كراون كاملة لم تمس.

وعندما بلغت الأربعين كان يُنظر إليها كمرجع أول في موضوع الجماع. وعدها الجميع، كما قال هوراس والبون بعد عدة عقود، بـ «سيدتنا في الحب». ولكي تزيد دخلها قررت نينون أن تستخدم سمعتها استخداماً عملياً. وهكذا أسست مدرسة دعتها «مدرسة البسالة» ـ تعبير مهذب لـ مدرسة الجِماع.

كان منزلها هو حجرة الدراسة. وكان التلاميذ من الشبان الأرستقراطيين الذين سجلتهم أمهاتهم لكي يتعلموا مستلزمات الرجولة. وقد غطت نينون المنهاج بأحاديث تضمنت طرق الاهتمام والتعامل مع خليلة أو زوجة، سيكولوجية النساء، الاقتراب الصحيح بهدف الغزل والإغواء، الطرق المقبولة لإنهاء علاقة، فيزيولوجية الجنس البارعة. كانت مدرسة نينون نجاحاً فورياً.

ولما لم يكن ثمة منهج مكتوب للتعاليم التي تعطى في حجرة

الدرس، فإن العديد من التعاليم التي تلقنها ـ في شكل نصائح، إجابات عن أسئلة، أقوال مأثورة ـ يتذكرها تلاميذُها الذكور، وبذلك يتعلمونها على نحو تام. وإليك عينة من تعاليم المعلمة نينون:

«إنه لمن الجيد أن تحتفظ بالطعام ليوم آخر، لكن المتعة ينبغي أن تؤخذ في حينها.... ليكن حديثك مع الأنثى يدور باستمرار حول ذاتها، ونادراً حول ذاتك.... خذ بحسبانك أنها تهتم بمفاتنها أكثر من اهتمامها بعواطفك ... تذكر أن هنالك لحظات ينبغي أن تعامل فيها النساء بشيء من الخشونة بدلاً من الكثير من المراعاة؛ الرجال هم الأكثر هزيمة بسبب حماقتهم وليس بسبب عفة المرأة... إن شئت الكف عن الحب أولاً، فدع للمرأة فرصة لإحداث صدع فتظهر بمظهر القاسية.... إن المرأة التي تود أن تهجر رجلاً تهجره لأي سبب عدا امرأة أخرى».

غالباً ما كانت نينون تصغي إلى مشاكل شبانها الخاصة والدقيقة ثم تقدم لهم النصائح والإرشاد. وفي مناسبات عديدة، عندما لم تكن الكلمات تفي بالغرض ويتطلب الأمر تطبيقاً عملياً، كانت نينون تأخذ شبانها إلى السرير لتوضح لهم تقنيات المداعبات والجِماع. وكان الشاب فيليب دو كورسيون مركز دو دانجو واحداً من الذين استمتعوا بالتدريب المخبري في السرير بإدارة أستاذته. وفيما بعد استخدم معرفته العملية استخداماً جيداً مع زوجتيه الثريتين كما ذكر في مذكراته.

العديد من النساء الشابات ذوات الدم النبيل حسدن تلاميذ نينون الذكور، وبحثن عنها أيضاً ملتمسات النصيحة. وفي حين لم تكن نينون تدير صفوفاً للنساء، فقد حاولت مساعدتهن قدر ما تستطيع. ويُذكر أن فتاة من أصل كريم قدمت إلى نينون وسألتها، «ما الحجم الذي ينبغي

أن يكون عليه ثدي المرأة لتجذب العاشق؟ » أجابت نينون ببساطة «الحجم الكافي ليملأ يد رجل مخلص».

وعندما بلغت نينون عقدها السادس هجرت صفوفها، لكنها تابعت قبول الشبان الذين أرسلتهم عائلاتهم إلى صالونها ليتعلموا الحنكة وحسن السلوك. ويقال، ربما كان ذلك مشكوكاً بصحته، أن شيفالييه دو فيير ابن نينون غير الشرعي كان واحداً من هؤلاء الشبان. وقد قبلته شرط أن يخفي والده م. دو غريسيه أمر قرابتها بالشاب. ولكن، لأنه ابنها، فقد أولته اهتماماً أكثر من الآخرين. أما الشاب فقد أراد أن يكون عشيقها، وعندما ابدى شغفه بها أبعدته عن صالونها. لكن الشاب عاد إليها وهو أكثر حماسة. فقست عليه نينون قائلة «انظر إلي، لقد مضى على قدومي إلى هذا العالم ٦٥ عاماً، فهل تظن أن باستطاعتي الإصغاء إلى تصريح بالحب؟ ألا تعتقد بأن هيامك ما هو إلا سخافة؟ وبهذه الكلمات أبعدته مرة أخرى، لكنها أخفقت في إبعاده بصورة كلية. وفي النهاية قررت أن تكشف له السر، فاستدعته.قدم إليها معتقداً بأنه حظي أخيراً بعطفها. وقبل أن تبدأ الحديث معه حاول أن يظهر هيامه بها. فانبرت قائلة بغضب «هل تدرك من أنا ومن أنت؟ ثم أخبرته الحقيقة. كان مذهولاً تماماً. عانقته نينون عناق الأم لولدها. فحدق بها وتمتم بكلمات ثم فر إلى الحديقة حيث انتحر بسيفه.

بعد ذلك أصاب نينون الهرم. ولم تعد تسمح للزوار بمناداتها باسمها المستعار. ويتحتم عليهم مناداتها بـ مدموزيل دو لينكلوز. وقد قضت أيامها الأخيرة، وفقاً لـ فولتير، بهدوء وسلام «بعض العشاق، العديد من الأصدقاء، القراءة، الجلوس معظم الوقت، حفلات عشاء

مقبولة». وقد عبَّرت عن مرارتها مرة واحدة فقط، فقد قالت لـ سانت ـ إيفرموند «إذا قيل لي بأنه ينبغي عليَّ أن أحيا مرة ثانية وأعيش ذات الحياة التي عشتها، فسوف أشنق نفسي في اليوم التالي». لكن ذلك كان فقط مزاجاً سرعان ما تلاشى. وعموماً كانت تسترجع ماضيها بصفاء وهدوء. لأنها، كما ذكَّرها سانت ـ إيفرموند في رسالة أخيرة بعثها إليها «أرى أنك أسعد مخلوق وجد. لقد عشقَك أرفع الرجال شأناً في العالم وعشقت بما فيه الكفاية، ولم تتركي شيئاً من المتع إلا تذوقتها...».

توفيت في تشرين الأول من عام ١٧٠٥، لقد استسلمت نينون. وقد كتبت وهي على فراش الموت آخر أشعارها:

أُعرض عن تعازيكم،
ولا أُبالي بالآمال التي تقدمونها:
ولأني مسنة بما يكفي لأموت،
فلماذا يتعين عليَّ أن أرغب في العيش؟

إن الحظية، كما تمثلها نينون دو لينكلوز، تختلف عن المومس في الدرجة الأولى في امتلاكها الحرية والاستقلالية لاختيار الرفيق. «المومس» كما ذكر ويليام تيت في الـ «Magdalenism» هي «بوجه عام التي تزج بنفسها علانية إلى حياة الفسق والفجور، وهي غير المقيَّدة في اختيار عشاقها، وتعتمد في رزقها على العائدات المتأتية من ممارسة الدعارة». ويمكن أن نجد شرحاً مفصلاً في موسوعة العلوم الاجتماعية، حيث تُعرَّف الدعارة بأنها «تشتمل على ثلاثة عناصر: الأجر، ويتضمن عادة مالاً يأتي عرَضاً، مع أن الهدايا والدعوات يمكن أن تشكل تعويضاً

مالياً؛ تعدد العلاقات الجنسية مع احتمال ممارسة الاختيار؛ لامبالاة بالجانب العاطفي». وباختصار فالمومس ليست هي التي تؤجر جسدها من أجل الرزق فحسب، بل هي التي لديها عددٌ وافرٌ من العشاق وكثرة من العلاقات السيئة السمعة، وهي التي تنغمس فيما يدعى «شغف دون سرور».

إن وجود المومسات قديم قدم «العهد القديم». ثمة عاهرة تراقب جدران أريحا وهي تنهار. وكانت البغايا يتجولن في طرقات مصر القديمة وفارس واليونان عارضات أجسادهن. ويُعْدَدْن بالآلاف في المدن الكبيرة الحديثة كـ نيويورك ولندن وباريس وروما وبرلين. إنهن هناك لأن الرجال يريدونهن. وكما أن الزواج الأحادي خلق الخليلة بوجه عام، كذلك فقد رعى مفهوم الحب الفروسي المومس بوجه خاص وحافظ عليها. إن التقييدات الرومانتيكية في فعل الحب ـ الالتزام بالدماثة وباللطف وبالدبلوماسية وعدم الأنانية ـ قاومت أنانية الرجل ولا عقلانيته واندفاعه الجنسي البدائي. إن فعل الحب في البغاء ينبذ مثل تلك الحواجز. يمكن أن يصبح الرجل للحظات حيواناً وخشناً وغير مقيِّد يسعى إلى إمتاع ذاته تماماً. وبعد تلك اللحظات يرحل دون التزامات عاطفية أو اجتماعية.

ما الذي يدفع بالنساء إلى ممارسة الدعارة؟ هناك العديد من الدراسات الاستطلاعية. في واحدة من هذه الدراسات فإن ٢٪ فقط من المومسات اللواتي استجوبن أعلنَّ أنهن أصبحن مومسات لمجرد حاجتهن إلى المال. العديد منهن كنَّ كسالى أو متخلفات عقلياً نظرن إلى الدعارة بوصفها أسهل من العمل خلف شريط العداد أو المكتب. والعديد منهن

كن لا أخلاقيات وعددن التنوع الجنسي ضرباً من ضروب اللهو. والعديد منهن أملن بتفاؤل أن يقابلن رجلاً من طبقة أعلى يمكن أن يرعاهن. والعديد منهن دفعهن أزواجهن إلى ذلك. ومنهن من انخرطن في الدعارة بسبب البيئة اللا أخلاقية؛ ومنهن هربن بسبب الإهمال الأبوي وسوء المعاملة. ومنهن من شكون من الوحدة.

هذه هي الأسباب التي أفصح عنها المومسات أنفسهن طوال قرن. لكن الأطباء النفسيين يقدمون اليوم أسباباً أخرى أكثر ذكاءً. المومس هي فتاة أصابها الواقع فيما مضى بخيبة الأمل. وتجد في النشاط الجنسي المفرط نجاحها الصغير. إنها تحقق قيمة وهوية. وفوق كل ذلك تمارس انتقامها. وبسبب إرهاب والدها في الطفولة تغدو كارهة لجميع الرجال. والآن فهؤلاء الرجال الذين كانت تخشاهم هم أذلاء أمامها، لأنهم بحاجة إليها. هؤلاء الرجال هم مخصيون وأخساء أمامها لأنها تعلم بأنهم ليسوا قادرين أبداً على إرضائها. سوف يبدو هذا سادية غير واعية، مع أن المومس هي في الواقع ماسوكية. وكما أشار الدكتور جوزيف تيننبوم «إنه لمن المستحيل أن تحرر المومس من تعاستها، لأنها تتوق إلى التعاسة أكثر من أي شيء». إنها تزدري مهنتها ومع ذلك لا تتخلى عنها، وخلال كل ساعة وكل ليلة تحقق نصرها الهزيل.

وبخلاف نينون دو لينكلوز وبقية الحظايا فإن المومسات نادراً ما يصبحن شهيرات بشكل كافٍ لتُسجل حيواتهن. فمعظمهن يعشن في الظل وفي أماكن معتمة وسرية. لكن حفنة منهن أصبحن شهيرات بسبب مواهبهن وراعياتهن أو رعيانهن، وبذلك تحدّين المجهولية. وكانت كاترين ماريا فيشر واحدة منهن، وقد عُرفت بـ كيتي فيشر.

ولدت كيتي في حي سوهو في لندن عام ١٧٣٨، من أبوين ألمانيين فقيرين. وعندما بلغت سن النضوج عملت عند بائع قبعات. وفي تلك الحقبة كانت مخازن القبعات، مثل المسرح، خزائن عرض من أجل الشابات الجميلات اللواتي عندهن استعداد ليصبحن مومسات أو حظايا. كانت كيتي جميلة. كانت فتاة صغيرة رقيقة ذات عينين زرقاوين مشعتين وأنف دقيق وفم شهي. كانت متقدة الذهن، ذكية ومرحة. وكانت تتمتع بمظهر نبيل وباتزان سيدة من أصل كريم. ولم تكن طويلة خلف مكتب المخزن.

وحدث أن بهرها ملازم في الجيش وابن تاجر إنكليزي بهداياه وبوعوده البراقة، وسرعان ما احتجبت في شقته وغدت خليلته. ومن ناحية ثانية كان الشاب مارتن شديد البخل، لذا لم تشعر كيتي بالاستياء عندما سافر إلى الخارج. على أية حال فقد وجدت مهنتها.

وبسرعة بدأ الزبن يطرقون باب كيتي. توماس ميدليكون وريث ثروة ضخمة أدخلها إلى عالم الأزياء الفاخرة وإلى عالم الأوبرا، وعرفها بـ إيسلينغتون سبا. وأدخلها الضابط البحري أوغستوس كيبل إلى المجتمع المخملي. ومن خلال هذا المجتمع تعرَّفت إلى معجبين جدد منهم الأدميرال لورد جورج أنسون والجنرال جون ليغونييه وإدوارد دوق يورك شقيق جورج الثالث المستقبلي.

لم تبع كيتي فيشر نفسها بثمن بخس. كانت تتقاضى مئة جنيه إنكليزي لقاء ليلة واحدة. وقد غضبت غضباً شديداً عندما أعطاها دوق يورك، بعد أن قضى ليلة معها، خمسين جنيهاً بورقة مصرفية. وبازدراء بالغ وضعت ورقة الـ خمسين جنيهاً مع شريحة الخبز المدهونة بالزبدة والتهمتها كـ إفطار، ولم تعد تستقبله في فراشها أبداً.

كانت شهيرة جداً، وتجتنب ارتكاب الخطأ، إذ إن كل شيء تفعله يتحول إلى خبر. وعندما تناولت الشاي في مقصورتها في المسرح أثناء العرض لم يتفاجأ أحد. وعندما طلبت الفريز الطازج في الشتاء ودفعت ثمن الصندوق عشرين جنيهاً ابتهج الجميع في لندن. وعندما كلف أحد البارونيتات(*) جوشوا رينولدز برسمها بدا ذلك طبيعياً. وبعد ذلك رسمها رينولدز مرة ثانية على أساس أنها تمثل كليوباترا. وعُلقت نسخ اللوحة الأصلية في العديد من المدن الكبرى. وعندما استضافت اللورد مونتفورت القزم وأُبلغت بأن اللورد ساندويتش، المنافس على كسب ودها، أوشك على المجيء، ودفعت اللورد القزم إلى تحت تنورتها وسارت معه بأمان إلى خارج الغرفة، ضج أعضاء البرلمان بالضحك لدى سماع القصة. وعندما سقطت عن حصانها في حديقة سانت جيمس انتاب القلق العديد ممن يشتغلون بالصحافة الإنكليزية، وكانت ثمرة هذا القلق قصيدة نشرتها صحيفة «يونيفرسال ماغازين».

بعد ست سنوات من النجاح الجماهيري قابلت خلالها الملك جورج الثاني، ووليام بيت وكازانوفا، سقطت مريضة وهجرت مهنتها. وفي عام ١٧٦٥ التقت جون نوريس، الذي كان جده أدميرالاً في البحرية البريطانية، ووالده ملاّكاً كبيراً، وكان هو نفسه عضواً في البرلمان. وبعد عام تزوجت كيتي نوريس في إسكتلندا إكراماً لعائلته! وبعد عدة شهور أرسل حموها في طلبها بعد امتحان شاق للذات، واستقبلها في عزبته ووافق على الزواج. كانت كيتي سعيدة جداً في ذلك الشتاء ومريضة جداً، وبعد خمسة شهور من يوم عرسها ماتت، وكانت في التاسعة والعشرين من عمرها فقط.

---

* جمع بارونيت ، وهو لقب أدنى من البارون . المترجم

يقول أندريه موروا في كتابه (سبعة وجوه للحب): «إن الرغبة الجنسية التي هي مصدر عاطفة الحب تظل فعلياً غريزة لا تتبدل. ولكن مظاهر هذه الغزيرة، التي هي طرائق الحب، تتغير عبر سير القرون». لإدراك التطور في طرائق الحب، ولإدراك المواقف المتغيرة تجاه اللواتي يجعلن من فن الحب مهنتهن، يحتاج المرء إلى أن يتتبع فقط ارتحالات الخليلة منذ دخولها المجتمع حتى الأزمنة الحديثة.

بدأ ظهور الخليلة منطقياً في حضارة الإغريق القديمة. وكان الزواج الأحادي مرعياً، ولكن ذلك لم يشكل ضمانة للحد من انتشار التمتع بالنساء. كانت الزوجة الأثينية (نسبة إلى أثينا) كالأمة تقطن خلف المنزل معزولة عن جميع الزوار الذكور، لا تملك حرية الحركة، ودون حقوق وراثية قانونية. حتى إنها لم تفكر يوماً بأنها لعبت دوراً في الحبل بالذرية، لأن «البذرة» ينتجها الذكر. وكان ضبط النسل شائعاً. ونظراً لأنه لم يُجز لها رعاية عائلة كبيرة، كانت تفرك فتحة رحمها بزيت خشب الأرز ومرهم الرصاص لمنع الحمل. كانت محبة وشريفة ومطيعة. وإذا نشدت قصة حب في مكان ما، فإنها تجازف بحياتها لأنه إن انكشف أمرها فـ لزوجها الحق القانوني بقتلها.

لا غرابة في أن العديد من النساء الأثينيات بقين متحررات، وفي أن العديد منهن لعبن دور الخليلة الأكثر بهجة. وكانت الخليلة أو الـ Proné هي الأقل احتراماً بين الأنماط المتنوعة للخليلة. كانت تعمل في المنازل وتعترف بها الدولة وتأخذ منها الضريبة، وتتميز بثوب أوسع من الحجاب بمقدار ضئيل. كانت تقف أمام الزبن لامتحانها. وبما أنها تدفع من إيرادها للدولة فإن دخلها يتحسن عبر السنين. وكانت الـ Auletris فوق

المومس في المنزلة الاجتماعية، فهي مغنية مدرّبة وتعزف الفلوت وخبيرة بالرقص الفاحش والجِماع. ولكن فوق جميع النساء المتحررات في اليونان القديمة وقفت الـ Hetaira أو الحظية.

كانت الحظية الأثينية عادة شابة جذابة رفيعة الثقافة، ذات شعر أشقر ونهدين صغيرين. ترتدي ثوباً وردياً يفرضه القانون. ولأنها لا تملك حقوقاً مدنية وممنوعة من دخول أي معبد غير معبدها الخاص، بقيت مواطنة حرة. كان متوسط أجرها خمس مئة دراخما ذهبية لقاء زيارة. وقد أصبح العديد من هذه الحظايا شهيرات شهرة الجنرالات والفلاسفة وكُتّاب المسرحيات أو الأبطال الأوليمبيين. كان هنالك «كليبسيدرا» التي تحتفظ بساعة رملية بجانب سريرها وتصرف عشاقها حين ينتهي جريان الرمل. وكان هنالك «سيرين» التي اشتد الطلب عليها حين أعلنت أنها تعرف ١٢ طريقة مختلفة لممارسة الجِماع. وكان هنالك «ثيوريس» التي منحت الكاتب المسرحي سوفوكليس ابناً غير شرعي وهو في سن الشيخوخة. (عندما خشي ابن سوفوكليس غير الشرعي أن يفقد الإرث، أخذ والده إلى المحكمة بسبب عجزه العقلي، وقد أثبت سوفوكليس أهليته العقلية حين وقف وقرأ آخر مسرحية من مسرحياته الـ ١١٣). وكان هنالك «لاميا» التي طالبت ديمتريوس بوليوريستس ملك مسادونيا أن يدفع لها ٢٥٠ طالين لقاء خدماتها. ولكن بين جميع حظايا التاريخ اليوناني تأتي في المقام الأول «أسباسيا» و «لاييس» و«فرين».

لا نعرف الكثير حول مفاتن أسباسيا الجسدية، عدا أن شعرها كان ذهبي اللون وصوتها فضّي الرنين وقدمها صغيرة. ويُعتقد أنها وقفت

أمام صديقها فيدياس عندما أبدع «أثينا البارثينون». وأعجب سقراط بفصاحتها. ويقال إنها كتبت العديد من خطب بيركليس، خصوصاً الخطبة الجنائزية البارزة التي وضعها في بداية الحرب البيلوبونيزية.

ولدت أسباسيا في ميليتوس، وأدارت ماخوراً في ميغارا، وقدمت إلى أثينا عام ٤٥٠ قبل الميلاد لتدير مدرسة لتعليم الخطابة والفلسفة، أُسست في الدرجة الأولى للسيدات الشابات. ومن المحتمل أنها تابعت إدارة الماخور كنشاط إضافي. على أية حال فقط انضم كل من سقراط وإنكساغوراس ويوريبيدس إلى سيدات صفوفها. وعندما حضر بيركليس(*) أيضاً إلى المدرسة وفُتن بها شُيِّد مستقبل أسباسيا، وانسحبت على الفور من مهنة التدريس لتستعيد دورها كحظية.

يُعتقد أن بيركليس كان في الأربعين من عمره، وأسباسيا في الخامسة والعشرين، عندما تقابلا. كان في أوج شعبيته، فقد جلب الديمقراطية إلى أجزاء من اليونان ورفع من شأن ثقافتها. كان متزوجاً، ولديه حظية من كورنثه، وولدان مراهقان. والآن نبذ زوجته وحظيته ليكرس طاقاته لـ خليلته الجديدة، التي كانت حاملاً منه. حمل بيركليس أسباسيا إلى منزله، وبما أنها ليست مواطنة أثينية لم يستطع الزواج بها، لكنه أوصى بثروته إلى ابنهما، بيركليس الثاني، وسرعان ما أهمل أتباعه ومجلسه من أجل حظيته.

استاء أعداء بيركليس، وحتى بعض أصدقائه من أسباسيا، خصوصاً من الدور الذي لعبته في الشؤون السياسية، فتآمروا عليها

---

* بيركليس ٤٩٥ـ٤٢٩ قبل الميلاد، أكبر رجال الدولة في أثينا. تزعَّمَ الحزب الديمقراطي وأدار شؤون المدينة أكثر من ربع قرن فبسط سيادتها على سائر المدن. شجع الآداب والفنون وبلغت أثينا في عهده عصرها الذهبي فأغناها بالمباني والتماثيل والآثار الأدبية (المنجد).

لتحطيمها. لقد أدانوها واتهموها بالكفر بآلهتهم. وبأنها تقوم كالقوادة بجلب النساء الشابات الأثينيات لـ بيركليس إرضاءً لشهوته. وقد جرت محاكمتها عام ٤٣٢ قبل الميلاد أمام هيئة من المحلفين ضمت ١٥٠٠ رجل، ولم يُسمح لـ أسباسيا بالكلام دفاعاً عن نفسها لأنها أجنبية.

وعندما أدرك بيركليس أن الأمور لا تجري في مصلحة محبوبته، وأن عقابها سيكون الموت إذا أدينت، تدخل للدفاع عنها شخصياً. وعلى الرغم من أنه عُرف برباطة جأشه وحصافته وتحفظه، فقد فتح قلبه للمحلفين. تهدَّج صوته بتأثير الانفعال، ثم انهد وبكى. وعندها تحرك المحلفون دون وعي وصوتوا لتبرئتها.

لكن المناوئين لـ أسباسيا لم ينتهوا بعد. فأريستوفانيس، الذي كان يمقتها، حمَّلها مسؤولية التحريض على الحرب البيلونيزية المكلفة. وأصر على أنها مازالت تدير أعمال الدعارة، ذلك أن ضابطين شهمين من ميغارا اختطفا مومستين من مومساتها، لذلك دفعت أسباسيا بيركليس لمهاجمة ميغارا. في حين أنه من المرجح أن بيركليس بدأ القتال ليحكم سيطرته على بحر إيجة. وتصاعد الشعور العام بالعداء تجاه أسباسيا.

عندما سحب بيركليس مواطنيه خلف أسوار أثينا، آملاً أن يحقق أسطوله النصر، تفشَّ الطاعون بين جنوده ومات الكثير منهم. وفقد بيركليس ولديه الشرعيين. وبعد انتهاء الحرب اتُهم بيركليس بشراء السلام مختلساً أموال الخزينة العامة. أدين بيركليس وُغرِّم بـ نحو ربع مليون دولار. وبعد تسع سنوات عاد إلى السلطة. وكان أول ما فعله هو إجبار الهيئة التشريعية على إضفاء الشرعية على ابنه بيركليس الثاني، الذي كان حينئذٍ جنرالاً أثينياً. بعد ذلك بوقت قصير توفي بيركليس

وهو في الستينيات. أما أسباسيا فقد أصبحت، بعد شهر، تاجرة أغنام ثرية تدعى ليزيكليس.

كانت لاييس هي الحظية الثانية الهامة في اليونان القديمة. وقد ولدت في صقيلية وجُلبت إلى كورنثة كـ أُمَة، واشتراها رسام لاستخدامها موديلاً. وخلال ثلاث سنوات لقَّنها الفنان أصول الآداب الاجتماعية والسلوك. وبعد أن استطاع الاستغناء عنها أطلقها، وسمح لها بالعمل في ماخور. كانت، كما علق أثيناوس «فائقة الجمال، وأجمل من أية امرأة أخرى شاهدها».

كان من الطبيعي أن تتجه نحو أثينا لتقف أمام النحاتين العظام، ولتقدم نفسها كـ خليلة للأعظم بينهم. في البداية أستأجرها الفنان الذائع الصيت ميرون. وعندما تجردت من ملابسها ووقفت عارية أمامه ذُهل الرجل العجوز. وفي الحال قدم لها ثروة، محتويات محترفه، لقاء قضاء ليلة معه. أما هي فقد أمعنت النظر في شعره الأشيب ولحيته، وفي ثيابه المهملة، ثم خطفت ثيابها وخرجت. في اليوم التالي قصَّ ميرون شعره وشذبه وحلق لحيته وحَمَّر وجنتيه وعطر وشاحه الجديد، ثم طوق عنقه بسلسلة ذهبية، ووضع في أصابعه خواتم مرصعة بالأحجار الكريمة، ثم التمسها خارجاً واعترف لها بحبه. نظرت إليه دهشة وقالت «صديقي العزيز أنت تسألني مارفضته البارحة من والدك».

لقد أعطت نفسها إلى أولئك الذين أحبتهم. وعندما أعطاها ديموستين عشرة آلاف دراخما لقاء قضاء ليلة معه رفضت ذلك. وعلى الرغم من ذلك كانت على استعداد لأن تهب نفسها دون مقابل إلى فيلسوف أو باحث صادق وصريح. الفيلسوف أريستيبوس دفع لها مالاً

كثيراً لما تتمتع به من حنان، وبذلك أصبحت قادرة على المشاركة في أعمال الإحسان وفي تقديم الهبات إلى المعابد.

وعندما ذهب مالها وجمالها تابعت تقديم جسدها، ولكن بأثمان رخيصة. وقد كتب إيبكراتس واصفاً السنوات الأخيرة من حياتها «لاييس كسلى ومدمنة، إنها تطوف حول الموائد. إنها أشبه بطير من الطيور الجارحة التي، وهي في قوة الشباب، تقذف بنفسها من أعالي الجبال لالتقاط صغار الماعز، ولكنها تحط في شيخوختها على أبراج المعابد حيث تعيش ينهكها الجوع والزجر... كانت لاييس في ربيع أيامها غنية وفاتنة، الآن قدِم شتاؤها، سقط الهيكل ودُمر. إنها توقف أي قادم لتسكر معه؛ ثروتها قروش معدودات؛ تتقبل الشاب والعجوز والجميع، وتمدُّ يدها من أجل بضعة قروش».

في السبعين م عمرها عشقت شاباً في العشرينيات وتبعته إلى تيسالي، وهناك انتهكت حرمة معبد فينوس وقدمت جسدها للشاب، فقامت النساء القريبات بطردها ثم رجمنها حتى الموت. وفي أثينا التي لم تنسَها ينتصب قبر ضخم احتراماً لذكراها.

لكن ثمة حظية هامة ثالثة في اليونان مازالت تُذكر باستمرار. كان اسمها منيساريت، لكن بسبب لون بشرتها الضارب إلى الصفرة دُعيت فريني. وقد ولدت في بلدة صغيرة في ثيسبيا. وعندما بلغت سن النضوج ذهبت إلى أثينا. وهناك غدت خليلة أبيليس الذي استخدم جسدها كـ نموذج لـ أفروديت. وبعدئذٍ أصبحت خليلة براكسيتيليس الذي أوقفها أمامه موديلاً لعملين نحتيين لـ أفروديت التي تبدو في العمل الأول عارية وفي العمل الثاني في لباسها. وعندما عرض عليها

براكسيتيليس أن تختار، رمزاً لحبه، أي قطعة من المنحوتات النفيسة في محترفه ترددت ورجته أن يختار لها ما يشاء فرفض. وبعد بضعة أيام جاءته واختارت إيروس وأهدته إلى موطنها. وهناك بقي يجذب السياح لسنوات تلت، ثم صادره نيرون، وفُقد عندما احترقت روما.

من بين جميع حظايا اليونان كانت فريني الأكثر تواضعاً. كانت ثيابها لائقة وبسيطة. ولم تكن ترتاد الحمامات العامة. وعندما تمارس الجِماع تمارسه دائماً في الظلام. وكانت تقف في رواق المعبد مرتين في العام، ثم تتعرى وتمشي عارية حتى تخوض البحر لتقديم الولاء للآلهة.

ويقال إنه لا أحد استطاع أن يقاوم مفاتنها. لكن بعضهم قال إن ثمة شخصاً واحداً استطاع ذلك. وهم بذلك يشيرون إلى الفيلسوف كزينوكراتيس الذي هيمن على أكاديمية أفلاطون مدة ربع قرن. كان رجل فضيلة، دون رغبة جسدية، يكرس جل وقته في الاستغراق الفكري. وكانت فريني مأسورة به. وقد تساءلت : ترى كيف يقضي لياليه؟ إذ هو في النهاية مجرد إنسان. وراهنت على أن بمقدورها إغواءه. وقد قبل المعجبون به الرهان. وفي ليلة من الليالي تزينت فريني ولبست ملابس رقيقة وطرقت بابه. فتح كزينوكراتيس الباب فدخلت فريني مسرعة وقالت إن ثمة لصوصاً يتعقبونها، وسألته أن يسمح لها بالمكوث عنده حتى الصباح. استجاب الفيلسوف لطلبها، وطلب منها النوم على دكة، ثم رجع إلى فراشه. تجردت فريني من ثيابها واندست بجانبه، لكنه بقي دون حراك. عانقته فريني بضراوة فلم يستجب لها. عندها خرجت فريني يائسة وفرت وسط الظلام. لكنها لم تدفع الرهان قائلة: «لقد راهنت على التعامل مع إنسان لا تمثال».

أكثر العشاق استجابة لها أغدقوا عليها الأموال. وعندما هدم الإسكندر الكبير أسوار طيبة تبرعت فريني بإعادة بنائها، شرط أن تلصق على الأسوار الجديد لوحة تنقش عليها هذه الكلمات: «هدم الإسكندر طيبة وأعادت فريني بناءها». فرفض سكان طيبة عرضها.

كان من الطبيعي أن تستاء زوجات رجال أثينا من فريني، فدفعن بـ يوثياس، وهو الذي فشل في التقرب منها، ليقدمها إلى المحاكمة لانتهاكها الأسرار الأليوسينية(*)، ولقيامها بإفساد ألمع مواطني الجمهورية. وأثناء سير المحاكمة أغرت فريني المدعي الشهير هيبيريدس بالدفاع مقابل أن تصبح خليلته. وقد أدار هيبيريدس قضيتها بألمعية، لكن القضية بدت له خاسرة، ولاح عقاب الموت. وفي لحظة إلهام قاد هيبيريدس فريني باتجاه القضاة ثم رفع الثياب من على كتفيها وأنزلها حتى خصرها، فبدا صدرها عارياً تماماً. حدق القضاة إليها بدهشة. هذه ليست امرأة، إنها الألوهية. وإن هذا الجسد الكامل لا يمكن أن يخفي روحاً معيبة. أربك هذا الاستنتاج الخرافي القضاة فصوتوا على براءتها.

احتفظت فريني بجمالها حتى النهاية. وفي سنواتها الأخيرة ابتكرت مستحضراً يحمي من التجاعيد، وبفضل ذلك المستحضر تابعت ازدهارها. كان موتها مجيداً، وأقيم لها نصب تذكاري في معبد ديانا، صاغه براكسيتيليس الذي سبق ذكره.

بعد أقل من ثلاثة قرون ظهرت خليلة عظيمة الشأن. كانت ماسيدونية، لكن أصلها يعود إلى مصر. إنها كليوباترا التي اعتلت،

* احتفالات دينية تقام في أليوس في أتيكا على شرف ديمتر وهباتها التي قدمتها للبشرية. (معجم الأساطير - ترجمة حنا عبود).

وهي في السابعة عشرة من عمرها، عرش البطالسة في الإسكندرية، المدينة التي أسسها الإسكندر الكبير، وشرعت في قيادة مليون من الرعايا. في البداية حكمت بالاشتراك مع أخيها الشاب بطليموس السابع، وقد أصبحت زوجته بمرسوم شرعي. وعندما مات بطليموس السابع غرقاً في نهر النيل تزوجت أخاها بطليموس الثامن. وقبل ان تترمل مرة ثانية كانت تحمل في أحشائها طفلاً من يوليوس قيصر، وقد رأت في هذا الوريث تحقيقاً لطموحها. لأن مصر أصبحت مع قدوم قيصر مجرد مستعمرة رومانية، لذا اعتزمت كليوباترا تغيير كل ذلك.

لم يكن لدى كليوباترا جيوش لتحقيق طموحها، لم يكن لديها سوى نفسها. وأدركت أن روما يحكمها الرجال. وقد أدهشت ثقتها بقوة مفاتنها الكثيرين، لأنها لم تكن رائعة الجمال. ومعظم المؤرخين يعتقدون بأنها كانت سمراء (مع أنها كانت تصبغ شعرها باللون الأحمر)، وذات عينين زرقاوين واسعتين وأنف جميل وفم مشكّل على نحو رائع وذقن حسنة التكوين. كانت ضئيلة الحجم ذات ثديين مخروطيين. ويعتقد بلوتارك بأن ملامحها لم تكن كتلك التي تدهش ناظريها، ومع ذلك كان لديها نقاط قوة أخرى. كانت تتصرف بلباقة وتهذيب، كانت حادة الذكاء ذات شخصية مستقلة. كان يحيط بها جو مثير للشهوات الجنسية ويعد بالمتع الحسية، وكانت قادرة على تملق الرجل وإرضاءه، ولديها، كالحرباء، قابلية لأن تتلون حسب ما تقتضيه المناسبة.

عندما قدم يوليوس قيصر أول مرة إلى الإسكندرية لمست كليوباترا فرصتها. ولا يُعرف ما إذا كان يوليوس قيصر قد أُرسل إليها لأن الحاكم بالوصاية كان أبعدها عن المدينة، أم لأنها صممت على رؤية قيصر طلباً

لعونه. وقد وصلت كليوباترا إلى الإسكندرية في قارب صغير يرافقها صديق وخادم يدعى أبولودوروس. ثم لُفت بعدة بطانيات وربطت بحبل خوفاً من أن يغتالها شقيقها. وهكذا حملها أبولودوروس للقاء قيصر. وعندما فُكت الرزمة تحولت دهشته إلى إعجاب، وقبل مرور عدة أيام غدت خليلته، ثم غدت من جديد خليلة مصر كلها.

عندما كان قيصر، الوسيم والقاسي، في شرخ الشباب، أغوى العديد من النساء ـ بينهن زوجة بومبي وكاتو أخته غير الشقيقة ـ لكن بدا له أن كليوباترا ستكون حبه الدائم. وعلى الرغم من أن زوجته كانت تنتظر عودته، ومن أن الاضطراب السياسي في روما كان يقتضي أن يكون فيها، أطال بقاءه في الإسكندرية. وكان يستقبل كليوباترا يومياً ويبقيها معه حتى الفجر. وكانت ثمرة رفقتهما ابنهما قيصريون الذي أصبح بطليموس الرابع عشر، ويبدو واضحاً أن قيصر قصد أن يجعل منه الإمبراطور التالي لروما.

وبعد أن أخمد التمرد الإفريقي الذي حرَّضت عليه كاتو وسيبيا، عاد قيصر إلى روما مكللاً بالنصر عام ٤٦ قبل الميلاد. وبعد وقت قصير استدعى كليوباترا وابنهما. وصلت كليوباترا مع حاشية كبيرة وعبيد مخصيين، وأُسكنت منزلاً واسعاً على الضفة اليمنى من نهر التيبر. لم يطل بقاؤهما معاً فترة طويلة إذ هلَّ الخامس عشر من آذار وفيه طعن المتآمرون الملتفون حول قيصر ٢٢ طعنة ـ في الرقبة وفي الظهر والجنب والفخذ. وأثناء دفاعه اليائس عن نفسه صرخ مدهوشاً في وجه بروتس «حتى أنت يا طفلي؟». ثم خر ميتاً على أقدام أصدقائه.

كان عرش روما شاغراً. ترى من سيحكم؟ تقربت كليوباترا من

مارك أنتوني القوي والعملي والودي، ودافعت عن قضية طفلها من قيصر. لكن أوكتافيان ربيب قيصر البالغ من العمر ١٩ عاماً انبرى ليدافع عن قضيته. ولتفادي الحرب الأهلية، نصح أنتوني كليوباترا بالعودة إلى مصر والانتظار. وهذا ما أُجبرت عليه.

وفوراً تولّت السلطة حكومة الثلاثة ـ أنتوني وأوكتافيان وليبيدوس. وتأكيداً للأوضاع الجديدة، قام أنتوني برحلة ودية إلى الشرق. وعندما عَرَج على طرسوس استدعى كليوباترا.

لم تصل كليوباترا لتتوسل من أجل قضية دافعت عنها، بل وصلت كملكة. إذ تقدمت نحو رصيف الميناء بمركب مطلي بالذهب ذي مجاذيف من فضة وأشرعة أرجوانية، وبدت خادماتها الجميلات كحوريات البحر. وعزفت فرقتها الملكية موسيقا غريبة. واضجعت كليوباترا تحت مظلة كبيرة ذهبية مرتدية ملابس رقيقة ومحاطة بغلمان يذرون بالمراوح.

دعت كليوباترا أنتوني ليتغدى معها، فأقبل ومعه حاشية كبيرة، ودهش مما رأى من مظاهر البذخ والترف.

وبعد أن تناول معها عشاءين آخرين وجد أنتوني، البالغ الثانية والأربعين، نفسه وقد وقع في حب كليوباترا البالغة من العمر ٢٩ سنة. تبعها إلى الإسكندرية وقضى الشتاء في قصرها وفراشها. شربا معاً وضحكا واصطادا ومارسا الجنس. وذات مرة راهنت كليوباترا عشيقها على أنها تستطيع أن تحتسي من النبيذ ما يساوي نصف مليون دولار (في نقد اليوم) في جلسة واحدة. قبل أنتوني الرهان. ملأت كليوباترا كأسها بالنبيذ ورمت فيه جرهرتين تساويان عشرة ملايين سيستيرس (مسكوكة فضية رومانية قديمة) وشربته. كان كل ذلك مسلياً ومضحكاً،

لكن أنتوني كان قلقاً حول أوكتافيان. وفي الربيع عاد أدراجه إلى روما، ووعد كليوباترا بالعودة في القريب العاجل، وفي الخريف ولدت كليوباترا منه تؤمين، طفلاً وطفلة أسمتهما فيما بعد الشمس والقمر.

غاب أنتوني أربعة أعوام مارس خلالها السياسة وتزوج شقيقة أوكتافيان الفاضلة، وجهز الخطط ليقود فتح بارثيا. وأخيراً أُرسل، لكي تُجمد سلطته، إلى الخارج بمهمة فتح العالم. وفي بارثيا وقعت الكارثة ـ إذ فقد أنتوني خمسين ألف رجل ـ لكنه احتفل بها في الإسكندرية وكأنها انتصار. وهناك وقع ثانية تحت تأثير سحر كليوباترا، فطلق زوجته. وفي عام ٣٦ قبل الميلاد تزوج المصرية كليوباترا. وأعلن توأميها حاكمين في الأقاليم الشرقية، وكليوباترا وابنها قيصريون حاكمين في مصر وقبرص. ثم أمضى عدة أعوام في استرخاء واستجمام. لكن أوكتافيان لم يهدأ له بال، أخذ وصية أنتوني من عذراوات فيستا (عذراوات موكلات بتعهد النار المقدسة وإبقائها متقدة) وقرأها أمام أعضاء مجلس الشيوخ. وهي تنص على أن ولدي أنتوني من كليوباترا سيغدوان وريثيه، وأنه يتعين دفنه في الإسكندرية. عم السخط روما، ودقت اللحظة الحاسمة. أعلن أوكتافيان الحرب ـ ليس على أنتوني ـ بل على كليوباترا، وأرسل أسطوله الحربي بقيادة أغريبا.

في عام ٣١ قبل الميلاد جهز أنتوني وكليوباترا سفنهما البالغ عددها خمس مئة سفينة لمواجهة سفن أغريبا البالغ عددها أربع مئة سفينة. وعندما تحولت المعركة لصالح أغريبا سحبت كليوباترا سفنها المصرية وعددها ستين سفينة ثم هربت.

بعد ذلك سمع أنتوني خبر وفاة كليوباترا، فعرّى صدره وطعن

نفسه. وبعد أن أصاب نفسه بجرح قاتل علِم بأن الخبر كاذب، وأن كليوباترا ما تزال حية وهي مختبئة في أحد المدافن. أمر أنتوني أن يُحمل إليها. ولدى وصوله محمولاً، مرغت كليوباترا وجهها المغطى بالدموع في جسده المدمّى وأخذت بالنواح. طلب أنتوني كأساً من النبيذ، شربه، ثم مات.

أخيراً، عندما واجهت كليوباترا أوكتافيان المنتصر واجهته وحدها. وعلى الرغم من أنهاكانت مستلقية في سريرها عارية عندما دخل عليها الفاتح فجأة، لم تحاول إغواءه، بل على العكس غطت جسدها بثوب. ثم حاولت أن تُلين أوكتافيان باطلاعه على الرسائل التي كان كتبها لها والده بالتنشئة يوليوس قيصر، لكنها لم تفلح، بعد ذلك علمت بأنه سوف ينقلها إلى روما أسيرة في غضون ثلاثة أيام. إنها ما زالت ملكة ولن ترضى بذلك. ويُعتقد بأنها ربما كانت محتفظة بأفعى صغيرة سامة في إناء، أو أنها حصلت على أفعى هُربت إليها في سلة تين. على أية حال حملت كليوباترا الأفعى ووضعتها على ذراعها وحرضتها على لدغها. هرع أوكتافيان ليمص السم من جرحها، لكن السم كان سرى في جسدها وفعل فعله. ودُفنت بجانب أنتوني. ذُبح ابنها من قيصر، وأرسل التوأمان من أنتوني إلى روما لتشرف على تربيتهما زوجة أنتوني السابقة، وسرعان ما غدت كليوباترا أسطورة.

في ظل حكم أوكتافيان، الذي أصبح أوغوستوس، وفي ظل حكم عدد من القياصرة الذين حكموا بعده فترة قصيرة ثم خلعوا، ازدهر الفجور في روما، وكثيراً ما بقي سرير الزوجية فارغاً. كان ثمة مومسات قانونيات يسمح لهن بممارسة الدعارة خارج أسوار المدينة، ولكن في

الليل فقط. كن يلبسن أثواباً طويلة مميزة ويتقاضين أجراً محدداً لقاء الزيارة. وكان ثمة سراري مثل كلاوديا أكتي سرية نيرون اليونانية المخلصة، ورفيقات أقل إخلاصاً مثل مارسيا التي كانت بين المتآمرين في عملية اغتياله، والتي كانت مرتبتها أكثر قليلاً من مرتبة العبيد. وكان ثمة حظايا يزدن قيمة ليلتهن بجمالهن الرقيق واللواتي يشجعن المعجبين بلباسهن الحريري الشفاف. لكن الأكثر من هذا وذلك كان ثمة الزانيات. «النساء الطاهرات هن اللواتي لم يُستجررن قط» هكذا علق الشاعر أوفيد بسخرية. ومن الواضح أن العديد من المتزوجات كن يُستجررن. وعلى الرغم من أن القانون كان يهدد الزوجة الزانية بالموت، والعاشق بتجديع الأنف فإن العديد من الزوجات كن يتغلبن على هذا الخطر بتسجيل أنفسهن كمومسات بأسماء زائفة، ومن بين أكثر الزانيات غرابة وسوء سمعة كانت فاليريا ميسالينا، التي أصبحت الزوجة الثالثة لإمبراطور روما كلاوديوس.

كان والدها عضواً في مجلس الشيوخ، آمن بربة البيت الطاهرة. لكن والدتها لم تكن ربة بيت طاهرة. وهكذا نشأت ميسالينا في جو من الانحلال الخلقي. في السادسة عشرة من عمرها زُفت إلى قريبها كلاوديوس حفيد أنتوني والبالغ من العمر ٤٨ سنة. بعد ثلاث سنوات، عندما اغتيل كاليغولا، وجدوا كلاوديوس يرتجف وراء الستارة، ثم أعلنه الحرس الإمبراطوري إمبراطوراً على روما.

سُرت ميسالينا بالسلطة الجديدة، لكنها لم تكُنَّ لزوجها سوى الاحتقار. في الحقيقة لم يكن كلاوديوس شخصية جذابة. كان طويلاً ونحيلاً وبطيئاً ومحدودباً. كان يهتز في مشيته ويعرج، كان يفأفئ

ويسيل لعابه، كما يسيل أنفه. واعتادت والدته أن تدعوه بالهولة الصغير، واعتقد أقرباؤه بأنه أبله. والواقع أنه لم يكن أبله على الإطلاق. فقد ألف إبان حياته عشرين كتاباً تتعلق بتاريخ أتروريا (بلاد قديمة في غربي إيطاليا)، وثمانية كتب عن قرطاج، ومسرحية باللغة اليونانية، وثمانية مجلدات في السيرة الذاتية. كما كتب بحوثاً في القمار، وفي الأبجدية الرومانية التي أضاف إليها ثلاثة حروف جديدة. أيضاً كانت ميوله الجنسية طبيعية. وبخلاف أسلافه لم يكن منحرفاً، وقد كتب غيبون «من بين الأباطرة الخمسة عشر الأوائل كان كلاوديوس الوحيد الذي كان ميله الجنسي طبيعياً».

لم تستطع ميسالينا تثمين فضائله. كانت ضجرة من الرجل العجوز المرتعش والمثقف والمخمور. وبعد أن أنجبت له ابنة وابناً. استغنت عن واجباتها الزوجية، وصارت تبحث عن المتع الرومانسية في مكان آخر. وقد بدأت بأفراد البلاط، ثم بالضيوف، كل ذلك والإمبراطور أعمى. لقد وقعت في غرام الممثل الوسيم منستر وطالبته بترك المسرح ليظل معها طوال الوقت. وعندما رفض الممثل الانصياع لرغباتها أبلغت الإمبراطور أن الممثل لا يطيع أوامرها، فأمره الإمبراطور بإطاعة أي أمر ملكي. هجر منستر المسرح ليخدم إمبراطورته. لقد عشقته بوحشية، ولم يجرؤ على كشف الندوب في جسده إلا بعد ثلاث سنوات. وقد أقامت ميسالينا نصباً من البرونز تقديراً لمواهبه.

في عام ٤٣ بعد الميلاد قاد كلاوديوس جيوشه في حملة على بريطانيا، وتُركت ميسالينا لتزج نفسها في عالم من الجنس الهائج. فدعت أشراف الرومانيين للاستمتاع بوصالها، والذين رفضوا دعوتها

اتهموا بجرائم مخالفة الدولة. وأخيراً غدت غير راضية عن علاقاتها الجنسية داخل القصر. فقررت البحث عن مغامرات جديدة في أكثر الأماكن ابتذالاً في المدينة. وقد قدم لنا جوفينال وآخرون صورة عنها في ذلك الوقت: شعر أصفر مكدس فوق رأس صغير مسطح؛ جبهة منخفضة؛ عينان واسعتان قريبتان من بعضهما؛ فم صغير بشفتين رقيقتين.

كانت تلج الحانات والأزقة والحجاب على رأسها للبحث عن الرجال. وفي رحلة من تلك الرحلات القصيرة رقصت عارية، وهي مخمورة، على منصة خشبية في ساحة عامة. وفي مناسبة أخرى أعادت ديكور غرفة نومها في القصر لتماثل ماخوراً، وعلقت على الباب اسم أشهر عاهرة في روما، ثم كشفت عن حلمتي ثدييها الصغيرتين، ودعت عامة الذكور للدخول لقاء أجر يعادل الأجر الرسمي. وبتشجيع من الناس المحتشدين تحدت عاهرة شهيرة في روما لتباريها، مصرة على أن باستطاعتها استقبال عدد من الرجال خلال ٢٤ ساعة أكثر من منافستها. ويخبرنا بليني بأنها بذت منافستها إذ استطاعت في غضون ٢٤ ساعة ممارسة المضاجعة ٢٥ مرة.

عندما عاد كلاوديوس من بريطانيا لم يعلم شيئاً حول هذا الطيش. وقد احتفى بإخلاص زوجته الشابة بأن سمح لها بالجلوس إلى جانبه في موكب النصر. وقد تابعت ميسالينا خلال ثلاث سنوات تلت خداع زوجها. وأخيراً، وفي نوبة من نوبات جنون الحب، ذهبت أبعد من ذلك بكثير. فعندما قرر الإمبراطور الاستمتاع بحمامات المياه المعدنية في مرفأ أوستيا، بقيت ميسالينا في روما لتلاحق شاباً من النبلاء يدعى

غايوس سيليوس. وكانت ميسالينا قد أغدقت عليه هدايا من الجواهر والعبيد، وأقنعته بتطليق زوجته. والآن، في غياب الإمبراطور، ذهبت أبعد. فقد وعدت سيليوس بعرش روما إذا تزوجها. قادته إلى القصر الإمبراطوري وأجرت احتفالاً شعبياً، ثم احتفلت معه بعيد باخوس، عيد الخمر. وأثناء قيادة ميسالينا لرقصة الفتيات العاريات في حركات إيقاعية، لبس سيليوس تاج اللبلاب حالماً بالمجد. وفي نهاية الرقص وُضع الفراش أمام حشد الضيوف، وعرضت ميسالينا وسيليوس فعل الحب.

لم يقلق الزواج الضُري ولا مهرجان باخوس أتباع كلاوديوس. الذي أقلقهم هو احتمال أن يخلع سيليوس كلاوديوس ويحكم بدلاً منه. واحد من المخلصين للإمبراطور يدعى نارسيسوس امتعض مما رأى وطلب من إحدى خليلات كلاوديوس المفضلة أن تحمل رسالة إلى الإمبراطور. في أوستيا ارتمت هذه الخليلة على أقدام الإمبراطور صارخة «ميسالينا تزوجت سيليوس». انتشر خبر زنا ميسالينا بسرعة، وانتاب كلاوديوس الرعب وعاد إلى روما.

عندما حُذرت ميسالينا باقتراب وصول الإمبراطور أنهت على نحو مفاجئ احتفالها. وفي حين فر سيليوس إلى المدينة وتفرق الضيوف، استدعت ميسالينا عذارى فيستا ومشت نحو مدخل المدينة. كانت عربة الإمبراطور مندفعة بسرعة، لكنها أبطأت عندما مرت أمامها، ثم اندفعت ثانية. أسرعت ميسالينا نحو حدائقها الخاصة، وهناك انتظرت، وأمها بجانبها، مصيرها.

في غضون ذلك أصدر كلاوديوس حكم عقوبة الموت بحق سيليوس ومنستر. لكنه تردد الآن وهو مخمور وهادئ. فقرر أن ينام أولاً ثم يفكر

في عقاب ميسالينا في اليوم التالي. أدرك نارسيسوس أن تأجيل الحكم ربما يأتي في صالح ميسالينا ويعرض حياته للموت، فأخبر الحراس بأن الإمبراطور أصدر حكماً بالموت بحق ميسالينا، وأمر بإعدامها فوراً.

عثر الحراس على ميسالينا في حديقتها وأخبروها بقرار الإمبراطور. أعطتها أمها موسى لتقتل بها نفسها فترددت. فسارع أحد الحراس وأغمد سيفه في صدرها. فماتت فوراً. في مساء اليوم التالي جلس كلاوديوس للعشاء ولاحظ أن مكان ميسالينا فارغ. بدأ يأكل، ثم سأل شارداً «أين الإمبراطورة؟»، فأُخبر بما جرى. أصغى باهتمام، أومأ برأسه، ثم عاد إلى طعامه وخمره.

سرعان ما حلت عصور الظلام، ثم العصور الوسطى، واستشرى الفساد والانحطاط في الإمبراطورية الرومانية. ومن المتفق عليه أن العصور الوسطى امتدت ما بين القرن الخامس والقرن الخامس عشر، وهي تشكل جسراً بين العصور القديمة والأزمنة الحديثة. وخلال هذه الفترة كانت المسيحية هي المهيمنة، وكان التبتل هو الحالة السائدة. لم تكن الخليلة فقط هي المستنكرة، بل كان فعل الجنس بين الزوجين ملعوناً. ونظراً لأن الإنسال كان ضرورياً لشيوع الإيمان، فقد سُمح به شرط ألا يكون لذيذاً. وهذا الموقف، حسب ما ورد في كتاب ج. تابلور (الجنس والتاريخ)، «وجد تعبيره القاسي بابتكار «Chemise Cagoule» وهو نوع ثقيل من أنواع قمصان النوم به فتحة مناسبة يستطيع الزوج من خلالها تحبيل زوجته متجنباً أي احتكاك بها». وبسبب تلك الضغوط كانت الكنيسة وأطفالها في العصور الوسطى عرضة لأن يستحوذ عليهم هاجس الجنس، وتابعت الخليلة صعودها.

لقد وضع رجال الدين المسيحي المعيار الأخلاقي لتلك الفترة. فقد اعترف القديس أوغستين قبل اعتناقه المسيحية أنه كان لديه قابلية نهمة للجنس، وأنه كان يفور بالفسق. وفي حين تغلب القديس أوغستين على ضعف جسده، فإن خلفاءه من رجال الأكليروس كانوا أقل عزماً. فقد صنعت تماثيل للقديسين بأعضاء ذكورية ضخمة على نحو شاذ، وفي أوساط العديد من الجماعات كانت هذه الأعضاء مغلفة بالجلد، وتستخدمها العرائس قبل دخول سرير الزوجية. وقد قيل بأن أسقف ليبج كان أباً لـ ٦٥ طفلاً غير شرعي. وأن رئيس دير الرهبان في سانت بيلايو اتخذ في حياته سبعين خليلة. وفي سويسرا، لكي يحمي الرجال المتزوجون زوجاتهم من الإغواء أثناء الاعتراف التمسوا من السلطات السماح لكهنتهم بالاحتفاظ بخليلة واحدة لكل منهم. في سالزبورغ، كان الكاهن الذي يحصر مغازلته في خليلة واحدة يعد مرشحاً للقداسة.

كان هذا الفجور انعكاساً للأوضاع في الفاتيكان في روما. إذ كان في مدينة روما نحو سبعة آلاف عاهرة تعملن مضيفات لأبناء الأبريشيات. وفي مقر البابا كانت الأبواب مفتوحة أمام الخليلات من كل نوع. في بداية القرن العاشر اتخذت ماروسيا، ابنة موظف بابوي، البابا سيرجيوس الثالث عشيقاً لها، وفي عام ٩٣١ تآمرت لكي يسمى ابنها غير الشرعي بابا جون السادس. في تلك السنوات كانت والدة ماروسيا خليلة البابا جون العاشر. وقد أحاطت عدة نساء سيئات السمعة بالبابا جون الثاني عشر، الذي نافس في نهاية الأمر الجميع في «انتهاك حرمة المقدسات والسيمونية (شراء المنصب الكهنوتي أو بيعه) والحنث باليمين والقتل العمد والزنا وسفاح القربى». أما خليفته، البابا ليو الثامن، فقد لفظ أنفاسه الأخيرة إثر سكتة قلبية بينما كان يقترف الزنا.

من بين الخليلات الاستثنائيات الأخيرات اللواتي ترددن على مقر البابا خلال العصور الوسطى كانت فانوزا دي كاتايني وغويليا فارنيس، وقد احتفظ بهما البابا ألكسندر السادس والد البورجيين السيِّئ السمعة. التقت فانوزا، وهي إسبانية الموطن، ألكسندر السادس أول مرة حينما كان محامياً في فالنسيا وكان يُعرف بـ رودريغو بورجيا. وعندما أتى به خاله البابا كاليكتوس الثالث إلى روما، جعله موثقاً عاماً في الفاتيكان، ثم لحقت به فانوزا، ورأت عشيقها يرتفع إلى مرتبة كاردينال ثم إلى مرتبة البابا. في تلك السنوات أنجبت له أربعة أطفال ـ منهم سيزار بورجيا ولوكريتشيا بورجيا ـ وعندما وصل إلى كرسي البابوية كانت بالقرب منه (ولتمويه علاقتهما أوجد لها ثلاثة أزواج). وعندما بلغت سن اليأس وهي في الرابعة والأربعين تقاعدت في بانسيون، والتفت ألكسندر السادس إلى غويليا فارنيس التي كانت في السابعة عشرة من عمرها.

كان أليساندرو فارنيس، المبعد لارتكابه سلسلة من الجرائم ويحاول التماس العفو، قد أرسل شقيقته غويليا إلى البابا. وعندما صوب البابا عينيه نحو غويليا الفاتنة أصدر عفواً فورياً عن شقيقها. وكانت غويليا قد تزوجت أوسيني منذ سنتين، فاقنعها البابا بترك زوجها والانتقال إلى شقه. ومع أنه أحبها بشغف، إلا أنه تابع طقوسه العربيدية. وفي عام ١٥٠١ كانت شاهدة على واحد من تلك الطقوس ـ خمسون عاهرة عارية يزحفن وسط ضوء الشموع، يلتقطن حبات الكستناء، وبعد ذلك يشبعن رغبات عدد من الرجال، ثم توزع الجوائز على الأكثر تحملاً للذكور المشاركين. أنجبت غويليا فارنيس لعشيقها

الأكبر سناً منهاـ كان يكبرها بأربعين عـامـاً ـ ثلاثة أطفـال. وقد توفي البـابا تاركاً وراءه أعـمـاله الشـائنة. وعندمـا مـاتت، بقـيت صـورتان لـهـا ذكرى لجمالها.

في منتصف القرون الوسطى، ظهرت الخليلة هيلواز المتعلمة والذكية التي تفـيض حبـاً وبهجة والتي وجدت عشـيـقـهـا في مكان مـرمـوق في الأكليروس. تيـتمت هيلواز في طفولتـها، فرعاها خالها فولبير الذي كان يعـمـل قـسـيـسـاً في كنيـسـة «نوتردام». وقـد تلقَّت تعـليـمـهـا في دير أرجنتـويل حيث أدهشت الراهبات بقدرتها على تعلُّم اللاتينيـة والعبـرية. بعد ذلك نقلها خالهـا إلى باريس. كانت في السـادسة عشرة، صـغيـرة الجسم، فاتنة، عندما قابلت أول مرة بيير أبيلار.

كان اللقـاء محتـوماً. فأبيـلار وخال هيلواز كانا قـسيـسين رفـيقين في كنيسة «نـوتردام». لكن أبيلار البالغ من العـمر ٣٦ عامـاً كـان أكثـر من مجرد قسيس. كـان شخصية وطنيـة. ولد في بريتاني عـام ١٠٧٩، وكان الأكبر بين أربعة أطفال. وقد نـشأ ليكون شـاباً وسيـماً ومـسلياً ومـغروراً. انغـمس في فـروع المعـرفـة واللاهوت والفلسـفة العـقلية، وقـدِم إلى باريـس ليـحاضر في «نوتردام». استـمع إليه الآلاف وتـأثروا بـه. وكان يُتوقع لهذا الخطيب اللامع في النهـاية إحـراز كـرسي البـابوية. عـندئذٍ رأى هيـلواز، فَنَسِيَ إلى حين وظيفته الكنسية.

لقد كان، كـما اعـترف، «شـعلة هيام»، وقـرر امتـلاكهـا، وكان واثقـاً من النجـاح. وقـد كـتـب حـول ذلك: «في الحـقـيـقـة بدا لـي ذلك سـهـل التحقيق. كنت شهيـراً ووسيـمـاً وأتمتع بميزات الشـبـاب، ولا أهاب إمكان رفض أية امرأة أخصهـا بحبي». وقـد دبر خطة لإغواء الشـابة البـسـيطة.

كان يعلم أن خالها رجل جشع. أخبر فولبير أنه يعتزم استئجار غرفة في منزله لقاء أجر، وأنه يرغب في تدريس ابنة أخته عدة لغات. أغرى المال فولبير، لكن التدريس أغراه أكثر. فدعا رفيقه القسيس أن ينتقل إلى منزله. وبدأت على الفور دروس هيلواز، لكنها لم تكن لغوية. وقد قال أبيلار «كنا متحدين»، «أولاً في المنزل الذي ستر حبنا، ثم في قلبينا اللذين يشتعلان في داخلنا... قبلاتنا فاقت كلماتنا؛ متعة تدريسها تفوق في إبهاجها شذا جميع عطور العالم».

تواصل التدريس، وسرعان ما أصبح لـ هيلواز طفل. فأرسلها أبيلار إلى أخته في بريتاني، وواجه خالها الغاضب بالحقيقة، واقترح أن يتزوجها شرط أن يظل الزواج سرياً، لكي لا يتهدد مستقبله في الكنيسة. وافق فولبير على ذلك. وعندما عادت هيلواز إلى باريس مع ابنها أسترولاب لم توافق على الزواج، فقد رغبت أن تظل خليلته، وليس زوجته، خشية أن يضعف الزواج حبهما ويفقده طعمه. وشعرت أيضاً أن الأسرة ستعيق نشاطه المهني وتقدمه. ومع ذلك تغلب فولبير. جرت مراسم الزواج سراً، وكان على الزوجين أن يعيشا منفصلين.

لكن أخبار الطفل شاعت، وكشف فولبير الزواج لكي يحمي عفة هيلواز. أنكرت هيلواز، ويدها على الكتاب المقدس، الزواج وأصرت أمام الناس على أنها خليلة أبيلار وليست زوجته. عاقبها فولبير بضراوة. وبضراوة أيضاً خطفها أبيلار وأعادها خفية إلى دير أرجنتويل، وطلب منها أن ترتدي زي راهبة وأن تبقى مختبئة ريثما يستدعيها.

الآن حدث سوء فهم ملحمي. فقد افترض فولبير أن أبيلار سئم من هيلواز فأدخلها الدير ليتمكن من إغواء امرأة أخرى. وافترض أيضاً أن

أبيلار جعل من زوجته راهبة ليعد نفسه ثانية لمنصب كاهن. قرر فولبير الانتقام. استأجر أربعة رجال من سفلة شوارع باريس، ثم عمد إلى رشوة خادم أبيلار ليقودهم إلى داخل غرفة نوم أبيلار ليلاً. هناك أوثق ثلاثة منهم أبيلار إلى السرير، بينما استل الرابع موسى. وقد كتب أبيلار: «لقد جبوا تلك الأعضاء من جسدي». اكتسحت أنباء الخصاء باريس، وسجل التاريخ أن نساء باريس بكين. ألقي القبض على ثلاثة من المغيرين. اثنان منهم، كما قال أبيلار، «عوقبا بأن قُلعت أعينهما وجُبت أعضاؤهما التناسلية»، أما الثالث فأودع السجن، وحرمت محكمة الكنيسة فولبير من جميع منافعه الدنيوية.

على الرغم من توسلات هيلواز، أيقن أبيلار أن مهمته الكنسية قد انتهت، وكذلك زواجه. وطلب من هيلواز أن تدخل ديراً للراهبات وتضع حجاب الراهبة. أطاعت هيلواز ,أما هو فتنسك في كنيسة سان دينيس. بعد ذلك كتب سيرته الذاتية الصريحة. وعندما قرأت هيلواز كلماته بدأت تراسله، وغدت هذه المراسلات جزءاً من التراث الأدبي للعالم الغربي. إن حبها الجسدي بقي حياً خلال السنوات التي كرستها للدين. لقد رغبت أن تظل خليلته. وقد كتبت مؤكدة له: «الله فقط هو الذي يأخذ هيلواز منك»، «نعم عزيزي أبيلار؛ إنه يعطي عقلي ذلك الهدوء الذي بفضله لا تمنعني ذكرى بليتنا من أن أتمتع به. فقط السماء! أي منافس آخر لا يمكنه أخذك مني؛ هل تتخيل أن باستطاعة أي مخلوق بشري أن يمحوك من قلبي؟».

من المحتمل أن هذه المراسلات الشهيرة لم تكتب في زمن هيلوازَ. ويعتقد الدارسون أن تلك الرسائل هي تزوير لامع ارتكب بعد قرن من موت هيلواز.

في السنوات التي تلت أدين أبيلار بالهرطقة لكتاباته الوقحة وتعاليمه غير القويمة. ذهب أبيلار إلى روما ليتولى الدفاع عن نفسه أمام البابا. لكنه لم يتمكن من ذلك، فقد مرض وتوفي وهو في الثالثة والستين من عمره، ودفن في حدائق دير باراسليه الذي كانت ترأسه هيلواز، لتتمكن من زيارة قبره والعناية به. وقد عاشت بعده مدة ٢٢ عاماً. وتوفيت عام ١١٦٤. بعد سبعة قرون أعيد دفن الاثنين في باريس في مقبرة بيير ـ لانشيز، حيث بقيا جنباً إلى جنب حتى هذا اليوم تحت حجر مزخرف.

مع أن هيلواز كانت تجسد نمطاً رومانتيكياً ومصقولاً من الخليلة، إلا أن العصر الذي عاشت فيه كان ما يزال متحرراً ومتهتكاً. لقد تغيرت العادات والأزياء، لكن ليس القيم الأخلاقية. وهكذا فبروز الخليلة لم يُعقه عائق. كذلك ازدهرت الحظية والعاهرة. ثلاث مئة من تلك النساء الفرنسيات رافقن الصليبيين أثناء حصار منطقة من المناطق. حيث كان العري مقبولاً، فالرجال والنساء ينامون عراة ويستحمون معاً وهم عراة. لم يكن ذلك غريباً، فالرجال يلبسون صدارات ضيقة تبرز الأجزاء الخصوصية من جسدهم، ويغطون أعضاءهم التنناسلية بال Braguettes، وهي أوعية تشبه الأكياس، وتلك كانت موضة سراويل القرون الوسطى. وتلبس النساء أردية كتانية طويلة تُشد بقوة تحت الصدر لكي تقولب الثديين، وثمة فتحات في القسم الأعلى من الثوب تكشف عن حلمتي الثديين. أما القسم السفلي فيشد بقوة حول الردفين بهدف التباهي الجنسي.

تدريجياً تحول الموقف العام تجاه الجنس. إذ نما في فرنسا وإيطاليا وألمانيا وإنكلترا الحب المصقول أو الرومانتيكي. وكان التروبادور

(الشعراء الغنائيون والشعراء الموسيقيون). قد أرسَوْا في أزمانهم عادات حسنة وسمواً وفروسية. وكان نصيرهم الأول ملكة فرنسا، بزواجها من لويس السابع، وبعد ذلك ملكة إنكلترا، بزواجها من هنري الثاني، التي كانت تخطط لتحظى بعلاقات جنسية مع مختلف الرجال، من الأقارب حتى العبد العربي المسلم. لقد بشر التروبادور بالحب الرومانتيكي بما فيه الكفاية. وقد مارس فرسان القرون الوسطى، النبلاء الجوالون، ذلك.

كان تأليه الأنوثة هو مساهمة التروبادور في انبثاق عالم قديم في الأزمنة الحديثة. هذا إلى جانب استنباطهم كلمة جديدة. لأن التروبادور استنبطوا كلمة خليلة واستخدموها لتعني المرأة التي أعطوها «عبودية طقس الحب». ولكن مع نهاية القرون الوسطى استخدمت الكلمة لتعني المرأة التي تحتل مكان الزوجة بصورة غير شرعية.

أخيراً عادت الحضارة من جديد، جاء عصر النهضة. واتخذت الخليلة اسمها وهويتها ومكانها، وأصبحت مهيأة لتدون في صفحات التاريخ.

وقد امتدت شهرة الخليلة وقيمتها طوال أربعة قرون، تلك السنوات التي انحصرت بين عام ١٥٠٠ و عام ١٩٠٠. بعد ذلك انحطت. لكنها خدمت، خلال أربعة قرون من انتصارها، بتفوق وامتياز، وتركت أثراً في السياسة والفنون.

إن العديد من الخليلات زينَّ العالم الحديث. وإن الحاجة إلى هؤلاء النساء ظلت دائمة طوال عقود. لقد تغيرت فقط المبادئ الأخلاقية لكل عهد تلا، مُثله الجمالية وأعرافه وأزياؤه. وكل واحدة من أولئك النسوة كانت امرأة بتنوع غير محدود. لكن الأدوار التي لعبنها خلف الستار كانت متعددة.

في الفترة ما بين عام ١٦١٠ و ١٧٩٣، منذ لويس الثامن في فرنسا حتى لويس السادس عشر، انتشر التسامح تجاه الخليلة. كانت جزءاً من الأرستقراطية. أحياناً حكمت من فرساي. وغالباً ما استقبلت زوارها الذكور وهي مضجعة في السرير أو أثناء تغيير ملابسها. لم تكن الملابس الداخلية الشفافة قد عُرفت بعد. وعموماً كانت الألبسة التحتانية من الكتان. ولم تكن السراويل التحتانية مستخدمة. كانت الخليلة تضمخ نفسها بالعطور والزيوت، لكنها لم تكن تغتسل بالماء.

كان وضع الخليلة قوياً جداً لأن الروابط الزوجية كانت ضعيفة. وكانت الأسر النبيلة تزوج أولادها وهم صغار، ذلك جعل الزيجات بالاسم فقط لخلوها من الحب. وعند بلوغ الأزواج والزوجات النضج يذهب كل في سبيله. كان الزنى مقبولاً. فعندما وجد الماريشال ريشيلو زوجته في السرير مع رجل غريب تذمر قائلاً: «مدام، يتوجب عليك أن تكوني أكثر حذراً»، ثم أردف قائلاً: «تصوري أن أحداً آخر وجدك هكذا». وعندما قابل كازانوفا المغنية ماري فيل وجد عندها ثلاثة أطفال يعبثون بتنانيرها. وقد فوجئ لانعدام الشبه بينهم. فأوضحت ماري قائلة «بالطبع لا يشبهون بعضهم، فالأكبر ابن دوق آنسي، والثاني ابن الكونت إيغمونت، والثالث ابن كونت ميزونبرغ». عندئذ اعتذر كازانوفا قائلاً: «سامحيني سيدتي فقد اعتقدت بأنهم أطفالك»، ضحكت السيدة وقالت: «هم كذلك». وقد لخص راهب برينس العرف السائد آنذاك قائلاً: «عندما ولجت خضم الحياة، كان يُعتقد أن من المضحك أن يحب الزوج زوجته، وبالعكس. الإخلاص الزوجي صفة البورجوازية».

بالتأكيد، فإن البورجوازية، التجار الأغنياء والطبقة الوسطى،

اتخذوا رأياً غامضاً حيال الخليلة. فعلى الرغم من أن بعض رجال هذه الطبقة حاولوا تقليد من هم أرفع منهم مقاماً، إلا أن معظمهم اختاروا التمسك بالإخلاص، إضافة إلى ذلك، فإن رجال الدين المسيحي الفرنسيين والفقراء وجدوا الكثير مما يعجبهم في فرساي. أما أبناء الطبقات الأدنى فقد وجدوا، قدر الإمكان، النساء في الكبريهات الرخيصة والمقاهي والنوادي في المدن والبلدات. وفي باريس كان يُطبع دليل السائح سنوياً متضمناً مواقع المواخير إضافة إلى أسماء المومسات الشهيرات وعناوينهن.

وعلى الرغم من أن الخليلة عانت الكثير في فترة أوليفر كرومويل (من ١٦٤٩ لغاية ١٦٥٨)، إلا أنها سرعان ما عادت إلى الظهور بعد عودة الملكية في إنكلترا. وبين عامي ١٦٦٠ و١٦٨٥ حققت الخليلة، بتشجيع من تشارلز الثاني، أعلى درجات الاحترام والقوة. كان كرومويل قد ندد بسفاح القربى والزنى والفسوق. وإذا ضُبطت المرأة وهي تمارس الزني فعقوبتها الموت؛ وإذا ضُبطت وهي تمارس الفسوق فعقوبتها السجن مدة ثلاثة أشهر. ومع عودة تشارلز الثاني أهملت معظم العقوبات. وابتهجت إنكلترا بالحرية الجنسية الجديدة. كان ثديا المرأة موضع إعجاب يقارب العبادة. وبما أن أثداء معظم الإنكليزيات كانت صغيرة، فقد استخدمن الأثداء الاصطناعية المصنوعة من الشمع. وكانت وسائل منع الحمل من أولى اهتماماتهن. وسرعان ما أصبح يعلن عنهن في الصحافة الشعبية، ويروجن في المواخير. وبذلك ازداد عددهن.

ومنذ أن تلقت الحظايا التبريكات من ملوكهن أصبحن مواطنات شهيرات وقُبلن في المجتمع النبيل. ففي بعض البيوت كن يجلبن ليسكنَّ

مع الزوجة تحت سقف واحد. ونبتت الدعارة وسط الجماهير وانتشرت في كل مكان كالفطور. إذ بلغ عدد العاهرات في لندن، حسب واحد من الإحصاءات، ٥٠ ألف عاهرة، وفي باريس ١٨ ألف عاهرة، (ربما كان كلا الرقمين مبالغاً فيهما). كانت مهنة مربحة جداً تحولت إليها أُسر بأكملها. مثال على ذلك أن السيدة لي ديفيز دربت ١٣ من بناتها ليصبحن عاهرات. وأخيراً فقد أتخمت السوق لدرجة أن قضاء ليلة مع عذراء أصبح يكلف ٥ جنيهات بدلاً من السعر السابق الذي بلغ ٥٠ جنيهاً.

منذ عام ١٧٩٩ حتى عام ١٨١٥، وتحت حكم نابليون بونابرت، لاقت الخليلة عطفاً رسمياً. وفي عهد نابليون الثالث، الذي دعاه فيكتور هوغو نابليون الصغير، تمتعت الخليلة بلحظاتها المشرقة الباهرة. كانت فضائحية، لكنها مقبولة في أفضل الدوائر. وغالباً ما كانت ثرية، وترتاد المنتجعات مراراً وتكراراً. ونادراً ما توجهت إلى إنكلترا. لأنها تعلم أن نعيها كان مكتوباً هناك.

كانت الملكة فيكتوريا على العرش، وامتد حكمها من عام ١٨٣٧ إلى عام ١٩٠١. وتميزت الفترة الفيكتورية بالاستحواذ الجنسي، وذلك بسبب محاولات قمعه. كانت الطبقة الوسطى مهيمنة وشديدة التزمُت. فقد كانت الألبسة التحتية في المخازن تُعرض بصورة تخفي الجزء الذي يغطي ما يمتد إلى تحت الخصر. وكانت النساء يذهبن إلى الأطباء ليس بسبب الأمراض المهبلية بل بسبب اضطرابات كبدية. وكان يشار إلى الصدور الحمّامية على أنها ثديا الفرخة. وقد امتد هذا الجنون إلى أمريكا، حيث أصبحت ساق البيانو عضواً بشرياً، وأصبح بنطال الرجل

لباسه السفلي. كان هذا التحفظ الأحمق في الولايات المتحدة قد انعكس في صفحات Gody's Lady's Book التي تضمنت النصيحة التالية: «إن من اللائق فصل أعمال الكُتّاب عن أعمال الكاتبات في رفوف كتب ربة المنزل». لم يكن هذا مناخاً مناسباً لتزدهر فيه الخليلة.

وعندما هَلَّ القرن العشرون وماتت فيكتوريا ماتت معها الخليلة تقريباً.

كتب ليزلي بلانش في «لعبة القلوب»: (ألقى القرن العشرون أمامه ظلاً طويلاً، ظلاً مشؤوماً وبغيضاً، وخلق حياة الكياسة، وأدان الحظية».

الحظية؟ هل أُدينت في القرن العشرين؟

ليس إلى حد بعيد. تقريباً. لكن ليس إلى حد بعيد.

ولكن قبل التوقع والدخول في الحاضر، يمكن إلقاء الضوء على المثير والممتع لمتابعة هذه الرحلة القصيرة عبر الماضي الفضائحي.

خائنات عهد الزواج

كان القانون، على مر التاريخ، قاسياً في عقابه للزوجة الخائنة. والسبب في ذلك يعود دون شك إلى أن القانون كتبه الرجال، ومن أجل الرجال، ليحمي ما بجله جميع الرجال، الملكية الخاصة. وقد عُدت النساء شكلاً من أشكال الملكية الخاصة. وفي تلك المناسبات التي رغبت فيها هذه الملكية الحية أن تحرّر نفسها من مالكها، غضب الناطقون باسم الرجال نصرة للعدالة والنظام.

في أثينا أجاز سولون للرجل أن يتخلص من زوجته، بأية طريقة يرغب فيها، إذا ضبطت وهي ترتكب الزنى. وفي روما أجرى الإمبراطور سبتيميوس سيفيريوس ثلاثة آلاف محاكمة بسبب هذه الجريمة. وفي أثينا أُعطي الزوج المجروح خيار قتل زوجته الآثمة، أو إحالتها إلى المحكمة لمعاقبتها. ومع نمو المسيحية غدا للكتاب المقدس الكلمة الأخيرة في إصدار الحكم على المرأة الساقطة. كان قانون الكتاب المقدس قاسياً أيضاً: هكذا هي المرأة الزانية، تأكل ثم تمسح فمها وتقول أنا لم أفجر.

لقد أبلغت المسيحية، في طورها الأول، الزانية بأنها ارتكبت إثماً وينبغي معاقبتها بالموت، وقد جلب البيوريتانيون (الطهريون) والمهاجرون هذا الموقف الأخلاقي إلى العالم الجديد. كانت الزانيات

الأمريكيات يوضعن في جهاز التعذيب الخشبي (Stocks)، أو يجبرن على ارتداء حرف A قرمزي، وفي عام ١٦٣٨ أدينت ثلاث نساء في ماساشوستس وحكم عليهن بالموت لارتكابهن الزنى.

تقريباً في كل الأزمنة القديمة والأمكنة، لم يكن للمرأة المتزوجة، التي تحولت إلى خليلة، صوت ولم تأخذها رأفة. ولكن في ما بعد، وفي الأزمنة الأكثر تنوراً لم يعد مصير الزوجة الخائنة الموت، لكنها كانت تعاني بدلاً من ذلك النبذ الاجتماعي القاسي. ومع ذلك فإن العديد من هؤلاء النساء يستحققن الأفضل من معاصريهن. فعندما ينفذ المرء إلى حيواتهن وزيجاتهن وقلوبهن، يشعر أن لزاماً عليه أن يغمد نصل القسوة الحاد. لأن معرفة هؤلاء النساء، ومحاولة فهم الضغوط الخارجية أو الحاجات الداخلية التي دفعتهن إلى التمرد على القانون والمجتمع، تحث المرء على أن يكون أكثر تسامحاً معهن.

لقد كثرت الزانيات في كل طبقة من طبقات المجتمع. لكن ثمة ثلاث سيدات مازلن في الذاكرة. وقد كن أعلى مرتبة وسط الشهيرات في زُمَرهن، فقد امتلكن الثروة والمنزلة الاجتماعية، ليس بسبب حيواتهن الغنية بالتجارب، بل لأنها كانت دائماً مكشوفة أمام الرأي العام، وكذلك فإن تفاصيل أعمالهن الطائشة عرفتها الأجيال التي تلت. ومن ناحية ثانية ربما كان هنالك المئات من أمثالهن انطفأت شهرتهن سريعاً. إن سجلات تاريخ الزنى متخمة بالنساء اللواتي تلاشت أسماؤهن من التاريخ. وقبل الانتقال إلى حكايات الزانيات الشهيرات، ربما من الأفضل أن نقف قليلاً أمام حالة نموذجية لزوجة خاطئة تمتعت بالشهرة مدة قصيرة ثم طواها النسيان بسرعة. إنها السيدة كاثرين إيرل.

في النصف الأخير من القرن الثامن عشر كان جميع سكان لندن يتابعون باهتمام محاكمة طلاق كاثرين إيرل المتهمة بالزنى. كانت إيرل قد تزوجت من وليام إيرل عام ١٧٥٠، وحملت إليه بائنة ضخمة. ولم يكن إيرل بحاجة إلى تلك البائنة فقد كان غنياً جداً، ويعادل دخله السنوي ثلاثة آلاف جنيه، لكن المال لم يكن يرضي زوجته. وفي إحدى الأمسيات، وبينما هي تشاهد مسرحية، وقعت في حب الممثل الأول شارلز هولاند. وفي نوبة من نوبات الهيام كتبت إليه مقترحة أن تصبح خليلته. كان الممثل مأخوذاً، لكنه سهل الانقياد، وبكياسة قبل اقتراحها.

ولتعزيز حبهما، استخدما منزل الآنسة جيلبيرت، وهو واحدة من صديقات كاثرين. وعندما انتابت إيرل الشكوك حول زيارات زوجته الليلية الطويلة إلى منزل الغَزَّالة، اقنع الآنسة جيلبيرت بالتجسس على زوجته. وفي لحظة من لحظات الإلهام الشهواني، فتحت جيلبيرت ثقباً في جدار غرفة نوم ضيفيها. وأثناء المحاكمة اعترفت الآنسة جيلبيرت بأنها شاهدت من الثقب الذي أحدثته «السيد هولاند يركع أمام السيدة إيرل ويرفع تنانيرها ويقبل ركبتها». ثم وصفت عملية الزنى التي أعقبت بتفصيل مرح.وإثر الطلاق عاد وليام إلى حياة العزوبية الأسعد. وبسرعة طوى النسيان زوجته الخائنة.

ومن الزانيات الشهيرات نذكر إلزابيث ميلبانك التي عُرفت بالسيدة ميلبورن. كانت عريقة النسب، إذ ينحدر والدها من عائلة كريمة في يوركشاير. وكانت إلزابيث في السابعة عشرة عندما تزوجت السير بينيستون لامب، الذي كان مرشحاً ليصبح البارون ملبورن. وقد تمتع

السير ملبورن بثروة ضخمة كان ينفق منها بإسراف على متع الصيد والخمر والقمار وعلى خليلة تدعى السيدة صوفيا بادلي ظل يقابلها. وعلى الرغم من أنه مكث في البرلمان مدة أربعين عاماً إلا أنه لم يتحدث فيه إلا مرة واحدة. فهو لم يكترث بالأحداث الجارية ولا بالترقية، وفي المقابل كانت زوجته مكترثة بها إلى حد بعيد.

اتخذت السيدة ميلبورن، الفاتنة الأنيسة ذات العينين السوداوين، منزلاً رائعاً في لندن، وأدارت صالوناً لامعاً كانت محوره، وشرعت تكرس نفسها للجنس الآخر. كان الرجال محور دراستها واهتمامها. ولم يكن أحد منهم يضجرها باستثناء زوجها. كانت تمثل كل ما يرغب فيه الرجل: جذابة، مسلية، ذكية، لينة العريكة، عاطفية. وفي حين ينشغل زوجها في نادي ألماك، كانت تعطي نفسها للعديد من معجبيها، وذلك من أجل المتعة وليس لتعزيز مكانتها الاجتماعية. وقد أقامت علاقة مع اللورد كوليرين. ويقال بأنه باعها إلى جورج ويندهام إيرل إيغريمو الثالث، لقاء ١٣ ألف جنيه، وأنها حصلت على حصة من هذا المبلغ. في ما بعد تزوج لورد إيغريمو، الذي كان يربي الخيول ويقتني الأعمال الفنية، امرأة أخرى بناءً على اقتراح السيدة ميلبورن. وأخيراً التقت أمير ويلز الشاب، الذي سيغدو جورج الرابع، ورقصت معه. انتشى الأمير بتلك المرأة التي غدت خليلته. ونتيجة لهذه العلاقة ترقّى زوجها من بارون إلى فيكونت، ثم، على سبيل التهكم، إلى بارون حجرة النوم.

في لندن عُرف أطفال السيدة ملبورن الستة، أربعة صبيان وبنتان، بـ«المنوعات» نظراً لأصلهم المشكوك فيه. إن ابنها الثاني وليام هو دون شك ابن لورد إيغريمو، وابنها الرابع جورج هو ابن أمير ويلز. أما ابنتها

الأولى إميلي فكانت من عاشق مجهول الهوية. وعلى الرغم، أو بسبب، سلوكها الفضائحي كان في عداد أصدقائها فوكس وشيريدان، وقبل كل شيء لورد بايرون.

توفيت السيدة ميلبورن عام ١٨١٨، قبل أن تشهد انتصارها الأعظم ـ فقد غدا ابنها وليام لامب، فيسكونت ميلبورن الثاني، رئيس وزراء إنكلترا. وقد قال عنها فيما بعد «إنها امرأة استثنائية وأم مخلصة وزوجة رائعة» ثم دمدم «لكنها ليست عفيفة، ليست عفيفة».

في زمن خيانة السيدة ميلبورن الزوجية الأعظم، ثمة سيدة أخرى كريهة المحتد ومن طبقة أعلى فاقتها في مغامرات الزنى، أولاً بصفتها أميرة أستورياس ثم بصفتها ملكة إسبانيا ماريا لويزا. لقد ولدت أميرة لبارما، ويتذكرها كارلوس الثالث الذي حكم مرة هناك، عندما بحث عن عروس لابنه ووريثه الذي أصبح كارلوس الرابع. بدأت ماريا تزني قبل أن يتولى زوجها العرش، وكان ذلك واضحاً للجميع باستثناء زوجها الملك. وذات مرة تناقش زوجها، عندما كان ما يزال أميراً، مع أبيه حول الزنى، فقال كارلوس الشاب «إنه لمن الصعب على امرأة من طبقة ملكية أن ترتكب الزنى، إذ لديها فرصة ضئيلة بسبب وجود قلة من الناس من ذات الطبقة»، فأجاب كارلوس الثالث «أي حمار أنت ياكارلوس؟ أي حمار أعمى؟».

لم يكن جمال ماريا لويزا هو الذي جذب العشاق. فقد رسمها غويا طوال الوقت: ضئيلة، ذات عينين خرزيتين وأنف منقاري وفم قبيح. وبعد سنوات سينظر نابليون بونابرت في وجهها الفاجر ويعلق «إن ماضي ماريا لويزا وشخصيتها مكتوبان في وجهها، إنه يفوق أي شيء يمكن

تخيله». لكنها كانت مفعمة بالحيوية وذكية وشبقة وشهوانية، لم يشبعها عشاقها أبداً، وكل واحد منهم كرهها في النهاية.

عندما ارتقى زوجها عرش إسبانيا بوصفه كارلوس الرابع، كانت ماريا لويزا قد خلفت وراءها العديد من الخيانات. ولم تكن الملكية لتزيد من قيمة كارلوس في عيني ماريا لويزا. كان رجلاً لطيفاً وعاطفياً وبديناً كثير الجلوس ذا أنف طويل. وكان أكثر اهتماماً بكمانه من زوجته، وكان بالفعل حماراً أعمى، كما وصفه والده. وقد خانته ماريا لويزا عندما كانت في الثامنة عشرة من عمرها مع الشاب كوند دي تيبا «Conde de Teba». ثم غدت خليلة المسن أوغستين لانكاستر. ثم خليلة الدوق دون خوان بيغناتيلي، الذي كان والده واحداً من عشاق دوقة ألبا. وبعد دون خوان أتى لويس دي غودوي أحد جنود الحرس النزاع نحو الموسيقا والذي عرّفها بأخيه الأصغر. ومنذ ذلك الوقت هيمن الأخ الأصغر دون مانويل دي غودوي على الساحة.

في الفترة التي أعقبت كانون الأول من عام ١٧٨٨، عندما أصبحت ماريا لويزا ملكة، غدا الشاب غودوي حب حياتها الكبير، وارتقى بسرعة من رتبة وضيعة في الجيش إلى مرتبة رئيس الوزراء. ولكنه، في تلك الأثناء، كان عديم الإخلاص لها. وقد بحثت، حتى وهي مستسلمة لـ غودوي، عن عواطف جديدة في مكان آخر. وكان أحد المفضلين لديها هو دون لويس دي أوريخو سكرتير وزير في الحكومة. وقد عُين أوريخو، المتعصب للثقافة الفرنسية، رئيساً للدولة لمدة قصيرة لاسترضاء نابليون. وكان دون مانويل مالو هو المفضل الآخر لديها، وكان من رجال الحرس الجذابين، وقد أغرقته الملكة بالهدايا الثمينة. وذات

مرة، مر مالو في عربة فاخرة أمام الشرفة التي كان يقف عليها كارلوس الرابع وماريا لويزا وغودوي. فتساءل الملك قائلاً «كيف يقدر ذلك الرجل على امتلاك جياد أفضل من جيادي؟» تورد وجه الملكة وقالت: «علمت أنه حصل على ثروة من الأنديز»، فقال غودوي «حسناً، ما سمعته ليس كذلك». فأراد الملك أن يعرف بدقة ما قد سمعه، فقال غودوي بوقار «سمعت أن ثمة امرأة عجوزاً قبيحةً وغنية جداً تعوله، ولا أستطيع تذكر اسمها». لقد تجرأ غودوي على توجيه تلك الإهانة لأنه يدرك أن الملكة تحبه حباً حقيقياً على الرغم من أن لديها العديد من العشاق.

كان غودوي، حتى في ذروة مجده، يعرفه الناس بـ «صانع النقانق» أو «لحام الخنازير»، ذلك أنه ولد في إقليم إيسترمادورا حيث تكثر الخنازير. وفي السابعة عشرة من عمره قدِم إلى مدريد لينضم إلى الحرس الملكي. وعندما قابلته ماريا لويزا تقرر مصيره. لقد أهدته عربة وستة جياد ورقَّته إلى رتبة جنرال. وقد قابله الملك وأحبه كثيراً. وفي عام ١٧٩٢ أصبح غودوي، البالغ من العمر ٢٤ عاماً، دوق دي لا ألكويدا ورئيس وزراء إسبانيا.

كان غودوي كارثة من الناحية السياسية. فإلى جانب أخطائه الأخرى، فقد تحدى نابليون وفشل، ثم تحالف معه ضد بريطانيا العظمى، وفقد ترينيداد. كانت حياته الخاصة قلقة، ليس بسبب كونه عشيق الملكة فحسب، ولكن لأنه أبقى على خليلة اختارها بنفسه. كانت تدعى جوزيفا تودو، وأنجبت له ولدين. وأخيراً أجبر على اتخاذ زوجة لأن الملك اقترح عليه الزواج. هكذا تزوج عام ١٧٩٧ من ماريا تيريزا دي فايا بريغا ابنة أخت الملك.

عندما شجع غودوي الفرنسيين على دخول إسبانيا، ساعد في تأجيج روح الثورة الشعبية. وفي عام ١٨٠٨، بعدما هرب بشق الأنفس مع زوجته، وصل إلى بايون بمعونة الفرنسيين ورحب به نابليون ترحيباً حاراً. وبعد خمسة أيام عُزل الملك كارلوس الرابع والملكة ماريا لويزا. وكانت كلمات الملك السابق الأولى هي «أين مانويل؟». وفي شهر كانون الأول من عام ١٨١٨ توفيت ماريا لويزا. وبعد ثلاثة أسابيع لحقها الملك إلى القبر. بعد ذلك توفيت زوجة غودوي، وهجرته خليلته، فبقي وحيداً معدماً. ثم رحل إلى باريس وعاش في شقة في بنسيون لقاء ستة آلاف فرنك سنوياً كان يدفعها الملك لويس ـ فيليب. وقد كرس معظم سنوات وحدته الطويلة وهو يلتمس معونة الحكومات الإسبانية المتعاقبة، ويسلي الأطفال الفرنسيين الذين يلعبون في حدائق التويلري.

على الرغم من أن نابليون بونابرت لم يكن يحترم ماريا لويزا، إلا أنه كان لطيفاً معها. ولكن في تلك الفترة كانت تقطن في سويسرا زانية احترمها نابليون،واشمأز منها. كانت تُعرف بـ مدام دو ستايل، وقد ازدراها نابليون بسبب عدوانيتها، وشخصيتها التي لم يقدرها في النساء، وقد اضطهدها بسبب تدخلها في السياسة.

كان والد آن لويس جيرمين ـ مدام دو ستايل ـ، المواطن السويسري جاك نيكر، واحداً من أغنى رجال أوربا (أقرض الحكومة الفرنسية مليوني فرنك)، ومدير خزانة الملك لويس السادس عشر. كانت والدتها سوزان كاتبة وابنة رجل دين من أتباع كالفن. وكانت جميلة لدرجة أن المؤرخ الإنكليزي غيبون عشقها. وأثناء عملها في باريس بصفة وصيفة سيدة، سرقت خطيب سيدتها، ولم يكن غير م. نيكر. نشأت جيرمين في

قصر كوبيه الواسع المطل على بحيرة جنيف، في جو مشبع بالنشاط الفكري. وكانت جيرمين طفلة تميزت بنضوجها المبكر. ففي سن الخامسة، وأثناء غارتها على صالون أمها، اقتربت من الدوقة دو موشي العجوز وزعقت «مدام، ما هو رأيك في الحب». كانت جيرمين أثناء مراهقتها تقوم مع والديها برحلات منتظمة إلى باريس. وهناك، وفي سن الرابعة عشرة، قابلت أول مرة إيريك ماغنوس، بارون دو ستايل ـ هولستاين، الذي كان يكبرها بـ ١٧ عاماً. كان القائم بالأعمال السويدية في باريس، وكان فقيراً. وقد فكر نيكر أن بإمكانه أن يجعل منه صهراً جيداً، فاشترى له منصب سفير مدة الـ ١٢ عاماً التي تلت لجعله أكثر تأهيلاً. وفي العشرين من عمرها أصبحت جيرمين نيكر بارونة دو ستايل ـ هولستاين ـ مع أنها عُرفت بـ مدام دو ستايل ـ ومنذ البداية بدت جيرمين غير متحمسة لذلك.

ونظراً لأن لديها طموحات أدبية، فقد أجهدت نفسها في الكتابة. وأصدرت خلال فترة وجيزة روايتين. وفي عام ١٧٨٨ أصدرت كراسة سياسية حول جان جاك روسو، وصفته فيها بالعبقري الذي «يمشي عبر الحياة مثل رجل أعمى»، «ويتوجب قيادته مثل طفل، والإصغاء إليه ككاهن». في ذلك الوقت ماتت طفلتها من البارون دو ستايل. أعقب ذلك فترة حزن أهملت مدام دو ستايل فيها، مؤقتاً، زوجها والأدب لتكرس نفسها للزنى، ليس مع رجل واحد، بل مع عدة رجال.

لم تكن مدام دو ستايل جذابة من الناحية الجسدية، بل كانت قبيحة، باستثناء عينيها الواسعتين ومظهرها الحيوي. وقد اتخذت خادمة مسؤولة عن غرفة نومها هي غوفرنور موريس. لم تكن مدام دو ستايل

بحاجة إلى الجمال لكي تغوي الرجال. فقد كانت ذكية وحيوية وعدوانية وواثقة من نفسها ومتحررة إلى أبعد الحدود، وتمتلك ثقة فتاة أحبها والدها حباً كبيراً.

كانت مدام دو ستايل زانية نشيطة. فقد أعطت نفسها لـ شارل دو تاليران، ولـ دوق مونتمورنيسي، ولـ كومت دو ناربون، الذي كانت تعتقد أحياناً بأنه الوحيد الذي أحبته دائماً. ويقال بأن ناربون هو ابن الملك لويس الخامس عشر غير الشرعي، والذي كان ضابطاً في الجيش. وهذا لم يردع مدام دو ستايل. فذات مرة تقنعت بزي ذكر وزارته في خيمته. وكان من نتاج علاقتهما ولدان غير شرعيين ورواية «زولما»التي كتبتها بعدما هجرها ناربون. وقد كتبت في روايتها تنتقده: «لقد رحل لأنه غادر بطبعه، وهو فظ في علاقته مع النساء». ومع ذلك، وعلى الرغم من هذا النشاط الزنوي، وجدت الوقت لتنجب لزوجها ثلاثة أطفال.

في عام ١٧٤٩ قابلت رجلاً هيمن على ما بقي من حياتها. كان زوجها في السويد، وكانت في سويسرا حين صادفت بنجمان كونستانت البالغ من العمر ٢٧ عاماً، والذي درس في أكسفورد وأدنبره، وأراد أن يُعرف في فرنسا بصفته كاتباً وسياسياً. كان طويل القامة، أخرق وذا شعر أحمر. وقد اعترفت مدام دو ستايل عندما رأته أول مرة «لقد ملأني اشمئزازاً».

ومع ذلك فقد بدأت علاقتهما الغرامية بعد وقت قصير من لقائهما. ويُعتقد أن مدام دو ستايل أنجبت ابنة من كونستانت، وأنها ألقت الطفلة في سفارة السويد في باريس حيث يعمل زوجها.

وفي تلك الأثناء ركزت مدام دو ستايل أنظارها على ذكر آخر،

ولكن هذا الآخر كان أقل إذعاناً لإرادتها. كان نابليون المستقبل ما يزال الجنرال بونابرت عندما تسلم وهو في إيطاليا رسالة من مدام دو ستايل مجّدته فيها وعنفته لزواجه من جوزيفين قائلة: «إن اقتران عبقري بتلك التافهة لهو بشع وشاذ». رمى نابليون رسالتها قائلاً «إنها امرأة مجنونة».

بعد ذلك واصلت مطاردتها نابليون. كان هدفها الحقيقي أن تؤثر عليه بأفكارها السياسية ـ كمعارضتها لخطته الرامية إلى إسقاط الحكومة السويسرية ـ أكثر من سعيها لتكون خليلته. لكنها لم تكن أسمى من محاولتها جلبه إلى سريرها. وقد عادت إلى باريس، يتبعها عشيقها، لتنضم ثانية إلى البارون دو ستايل، ولتستغل علاقاتها لمقابلة نابليون. وعندما قابلته أخيراً خبرت «عسر التنفس»، وبالكاد استطاعت أن تتكلم. بعد ذلك قابلته مرة ثانية واستطاعت أن تتكلم. حاولت مناقشته في السياسة، لكنها اعترفت بأن ذلك الموضوع «أزال جميع التعابير من عينيه، وبدتا كأنهما نُحتتا من المرمر»، وفي مناسبة أخرى كانت أكثر أنثوية وإغواءً. وعندما لم تستطع أن تلينه قالت متبرمة: «إذن أنت لست مغرماً بالنساء؟»، فأجاب نابليون ببرود شديد: «أنا مغرم بزوجتي».

مع ذلك لم تستسلم مدام دو ستايل. فذات مرة، كما أشيع في باريس، دخلت منزل نابليون للبحث عنه. طافت في المنزل، ووجدته وحيداً في الحمام. زأر نابليون احتجاجاً على هذا الاعتداء على خلوته، فأجابت بفتور «العبقري ليس له جنس».

في النهاية انقلبت على بطلها. وبدأت تكتب الكتب التي تهاجم

فيها سياسات نابليون. تحمل نابليون ذلك، ولكن عندما تناهى إلى سمعه أن مدام دو ستايل تدير صالوناً ترتفع فيه الأصوات منتقدة القنصل الأول نفد صبره. لقد قرر أن يطردها من باريس. وفي الحال تسلمت أمراً رسمياً يطلب منها الابتعاد عن المدينة مسافة أقلها ٤٠ فرسخاً. وهذا يعني بالنسبة لـ كونستانت الذي كان قد انتخب عضواً في مجلس النواب هجره لمقعده حالاً. حاولت مدام دو ستايل إقناع نابليون بإلغاء الأمر، فرفض معلناً «أن تكون مدام دو ستايل ملكية أم جمهورية فهذا حقها وليس لدي شيء يدينها. لكنها آلة مستمرة تحرك الصالونات». وكان هذا شيئاً لا يغتفر.

ومع ذلك لم يكن نابليون الشخص الوحيد الذي أغضبته مدام دو ستايل . كذلك نفد صبر زوجها البارون دو ستايل بسبب سلوكها. وأخبرها بأنه لم يعد في وسعه أن يظل ديوثاً، واتفق الطرفان على الانفصال. وعندما اتخذ البارون خليلة، في محاولة لتأكيد رجولته، لم تتضايق مدام ستايل. فقط عندما علمت أنه مريض جداً انضمت إليه، وكانت حاضرة عندما توفي في كوخ ريفي خارج باريس.

بعدما أُبعدت مدام دو ستايل وكونستانت خارج باريس قضيا فترة نفيهما بالكتابة والسفر. ذهبا إلى فايمار. وقد عدها غوته ذكية. وعلق شيلر قائلاً «العيب الوحيد فيها هو أنها ثرثارة بصورة لا تطاق». وأخيراً قال غوته: «إن طموحها الكبير هو أن تخضع رجال السياسة وتطبع في أذهانهم آراءها المتسلطة».

كانت تكتب بسرعة كبيرة. وعندما طُبعت أعمالها الكاملة في باريس بعد ٣٠ سنة من موتها بلغت ١٧ مجلداً. وقد نجحت نجاحاً باهراً

روايتها الرومانتيكية «كورين». وقد أخبرها اللورد بايرون الذي أصبح صديقها بأن «لغة الرواية وقحة، وأنها رواية خطرة لتوضع بين أيدي النساء الشابات». وفي مناسبة أخرى كتب معلقاً على أحد كتبها: «أحياناً هي على حق، لكنها دائماً على خطأ فيما يتعلق بإيطاليا وإنكلترا: لكنها محقة في وصف القلب». لقد قدرها اللورد بايرون عندما قال لـ الليدي بليسينغتون «مدام دو ستايل هي الأذكى، على الرغم من أنها ليست امرأة حلوة المعشر»، ثم أضاف «إنها تفكر مثل رجل، لكنها تشعر مثل امرأة».

كانت عندما تدع الكتابة، تتابع علاقتها العاطفية والشاذة مع كونستانت. لم تدرك أبداً أهمية الحب، وقد كتبت تقول «الحب هو كل تاريخ حياة امرأة، لكنه فصل في حياة رجل». ونادراً ما كانت تفارق كونستانت، الأمر الذي كان ينهكه. إذ لم يكن باستطاعته العيش بدونها، ومع ذلك لم يكن يحتمل سلوكها المستبد، لم تكن غطرستها ناشئة عن ثروتها، إذ سيخلف لها والدها ثلاثة ملايين فرنك ـ بل لأنها متفوقة فكرياً. كان كونستانت واحداً من الرجال القلائل الذي استطاع الانسجام معها في قاعة الاستقبال، ولكن بجهد جهيد.

بعد موت زوجها، طلب منها كونستانت الزواج منه، فرفضت. وبعد موت والدها انفصل عنها، فكتبت له حاشية أنهتها بهذه الجملة «الوداع عزيزي بنجمان، آمل أن تكون على الأقل بجانبي حين أموت، آه، إني لم أغلق عيني والدي، فهل تغلقهما لي؟».

في عام ١٨٠٩ تزوج كونستانت، سراً، من شارلوت فون هاردنبيرغ. لكن سرعان ما اكتشفت مدام دو ستايل الأمر. فعمدت،

لمواساة نفسها، إلى وضع كتاب آخر «De L'Allemagne»، وإلى معاشرة ضابط إيطالي يدعى ألبرت ـ جان ـ ميشيل روكا، الذي دعته جون. كان الإيطالي في الثالثة والعشرين سرعان ما أصيب بالسل، وكانت مدام دو ستايل في الخامسة والأربعين سرعان ما أصبحت حبلى. وفي عام ١٨١٣، قبل ثلاث سنوات من اعتزامها الزواج منه، انطلقت معه في جولة شملت روسيا وفنلندا والسويد وإنكلترا. وفي روسيا التمست مقابلة القيصر ألكسندر لمناقشة قضايا السياسة الأوربية، فقد رغبت أن يقاوم القيصر جيوش نابليون. لكنها لم تحقق، بعد لقائها القيصر، ما كانت تصبو إليه، ذلك أن القيصر كان التقى بنابليون من قبل في تيليست وكان اللقاء ودياً. ومع ذلك حققت مدام دو ستايل في جولتها الكبيرة العديد من الانتصارات الجدلية، ويكفي ما قالته مدام دو شاستيني: «في أوربا اليوم ثمة ثلاثة قوى، إنكلترا وروسيا ومدام دو ستايل».

بعد واترلو عادت مدام دو ستايل إلى باريس مرة ثانية لتدير صالونها بحيوية. لكن بدأت صحتها بالتدهور. وماتت في شهر تموز من عام ١٨١٧, وقد كتب أحدهم «لقد تمزقت إلى أشلاء بسبب نضالها العنيف لتكون خليلة الرجال وسيدتهم». دفنت مدام دو ستايل في كوبيه بسويسرا بجانب والدها، الذي كان الرجل الوحيد الذي أحبته حباً حقيقياً.

صورة بريشة جورج رومني

على الرغم من أن إيما هاملتون وماريا فاليفسكا وبولين بونابرت انتمين إلى قوميات مختلفة فقد جمعهن بوجه عام شيئان. لقد كن نتاج الفترة التاريخية ذاتها، وكن مثال الزوجات غير العفيفات. واحدة من هؤلاء الثلاث جعلتها علاقتها الغرامية الرئيسية الزانية الأكثر شهرة والأكثر إثارة للاهتمام في القرن الثامن عشر. إنها إيما ليون بالمولد، ثم عُرفت بـ إيميلي هارت، وأخيراً بـ الليدي إيما هاملتون.

في البدء التقت بعشيقها الشهير لورد هوراتيو نيلسون في عام ١٧٩٣. وكان اللورد نيلسون قد سُحر بها فوراً. وقد كتب إلى زوجته «آمل في يوم ما أن أعرفك بالليدي هاملتون، إنها واحدة من النساء الاستثنائيات في العالم». لم يذكر أنها واحدة من أكثر نساء العالم جمالاً.

جميع الرجال تقريباً أثنوا على ملاحتها. كانت طويلة مكتملة رقيقة المظهر. يصل شعرها الأصحرعندما تفرده إلى الأرض. كان جبينها عريضاً، وعيناها رماديتين، وأنفها حسناً، وفمها جميلاً. قال عنها غوته حين قابلها «كانت جميلة إلى أبعد حد وبنيتها رائعة». وقال السير جيلبيرت إليوت «إنها لا تضاهى». وقد تنافس الرسامون غينسبورو

ورينولدز ولورانس في رسمها، وقد رسمها رومني عدة مرات، وكتب في عام ١٧٩١ «هنا أنثى شابة طبيعية ولعوب، أنيقة ومتناسقة، سيماؤها رائعة وتفور صحة وحيوية». ثمة واحد من القلائل قال خلاف ذلك. إنه اللورد فيتزهاريس الذي قال: «كانت فظة وخشنة الأخلاق وسيئة الطبع».

ولدت إمّا ليون في أيار من عام ١٧٦٥ في شيشاير. توفي والدها الحداد عندما كانت طفلة، ورحلت مع جدتها إلى هاوردن. في الثالثة عشرة عملت مربية أطفال عند طبيب العائلة، وبعد سنتين رافقت والدتها إلى لندن لتعمل موظفة عند خضري، ثم خادمة عند طبيب، ثم مرافقة لامرأة ثرية، ثم نادلة لدى تاجر خمور. بعد ذلك بوقت قصير وقع حادث جعل إمّا تدرك أن ثمة فرصاً لتقايض أنوثتها المرغوبة مقابل أمنها وضمان عيشها. فقد ألقت كتيبة التجنيد القبض على واحد من أعمامها وأجبر على الخدمة العسكرية، فلجأت زوجته المعدمة مع طفلها طلباً للعون. وعندما علمت إما بأن إطلاق سراح عمها مرهون بتوصية من كابتن السفينة، ذهبت لمقابلته. كان يدعى جون ويليت ـ باين، وهو ضابط بحري شاب وعاطفي. وقد أثارته مفاتن إما، فعرض عليها بفظاظة أن تغدو خليلته ليطلق سراح عمها. وخلال أسبوع كان عمها حراً.

كانت إما في السابعة عشرة عندما ولدت ابنة. وقد أشرف الكابتن المشغول على الطفلة عدة شهور، ثم نسي الطفلة وأمها. عُمِّدت الطفلة وأرسلت إلى عائلة من الأقارب، التي تلقت مساعدات خلال عدة سنوات من إحسان عشاق أمها.

بعد أن وظفت إيما جسدها مرة لغرض مفيد، أصبحت الآن توظفه على نحو منتظم. فقد عملت لوقت قصير في بيت دعارة في شارع أرلينغتون. ثم عملت لدى معالج دجال هو الدكتور جيمس غراهام الذي يشرف على معبد الصحة حيث يأتيه السذج ليستعيدوا شبابهم عن طريق استخدام حمامات الحليب والتدليك والعرش المغناطيسي والسرير الصيني. وكانت إيما تقدم رقصات جنسية وهي عارية حول السرير الصيني الشرقي. وقد نقل السير هاري فيدزستونهو إلهة الصحة إلى بلدته سوزكس. وعاشت إيما تحت حمايته ردحاً من الزمن، إلى أن قابلت شارل فرانسيس غريفيل الثري هاوي الفن والتحف الأثرية. وقد كرست إيما نفسها لـ غريفيل. ولأن غريفيل لم يكن من النوع الذي يتلهى سرعان ما طردها مفلسة. فبعثت له رسالة هستيرية تشكو فيها حالتها وتشرح محنتها وتتوسل إليه أن يساعدها. ويبدو أن الرسالة حركت عواطفه فجلبها إلى لندن لتصبح خليلته وحده.

أمضيا معاً مدة أربع سنوات عشقته خلالها بجنون. وقد تعلمت كيف تلبس وتمشي، وكيف تقدر الفن والموسيقا، وكيف تتحدث مع من هم أرفع منها، وكيف تتصرف كمضيفة على طاولته. وقد وقفت أمام الرسام جورج رومني الذي لم يصور بعدها أحداً.

كان ذلك نحو عام ١٧٨٣ عندما كان في التاسعة والأربعين من عمره وكانت في الثامنة عشرة من عمرها عندما وقع نظره على إيما أول مرة. وكان جورج قد هجر زوجته وأطفاله في قريتهم وذهب إلى لندن للبحث عن فرصته بوصفه فناناً. وبعد فصل من الدراسة في إيطاليا عاد إلى لندن وأصبح مطلوباً بصفته رسام وجوه. في هذه الفترة شاهد إيما

وسُحر بها. وقد رسمها كـ فينوس، وسيرس(*)، ومريم المجدلية، وجان دارك، وكسندرا(**)، وبصفتها إيما. لقد كانت، كما اعترف، ملهمته في معظم الأعمال الفنية التي أنجزها. وقد هيمنت بمفاتنها عليه فغدا متقلباً وغير مستقر عكس طبيعته، مما أدى إلى حدوث أضرار في صحته وعقله. وأخيراً، وقبل ثلاث سنوات من موته، عاد إلى زوجته وعائلته بعد انفصاله عنهم مدة ٣٧ عاماً.

ولكن على الرغم من أن رومني تمتع بحضور إيما كـ موديل، وحظي بفرصة وضعها على القماش، إلا أنه لم يفز بقلبها. فقد كانت تخص شارلز فرانسيس غريفيل، وفي السنوات التي تلت لم تكن في متناول أحد عدا فرشاة رومني.

في عام ١٧٨٥ قدم غريفيل إلى إيما خاله سير ويليام هاملتون، وكانت في العشرين من عمرها، أما هو فكان في الخامسة والخمسين. كان نحيلاً، وسيماً، مثقفاً، موفور الصحة. وكان شغل نفسه بأطلال بومبي، ودرس بركان فيزوفيوس، وانغمس في الشعر والفلسفة، وجمع النقود الرومانية وأواني الورود النادرة، وكان يهوى الجمال الكلاسيكي، وإيما تجسد الجمال الكلاسيكي، وقد أثارت اهتمامه على الفور.

كانت زوجة سير ويليام الثرية قد توفيت منذ ثلاث سنوات، مما يجعل غريفيل الوريث الثاني للإقطاعة - إن لم يتزوج خاله مرة ثانية. والطريقة المثلى المطمئنة هي أن يقدم للرجل العجوز خليلة. وهكذا قدم له إيما.

---

* سيرس : الساحرة التي حولت بسحرها رفاق أوديسيوس إلى خنازير . . . . معجم الأساطير ترجمة حنا عبود .

** كسندرا : ابنة بريام الجميلة وهبها أبولو نعمة النبوءة الحقيقية . . . . . معجم الأساطير ترجمة حنا عبود .

لم تُخبر إيما بالصفقة. علمت فقد بأنها مدعوة هي وأمها لتحلا ضيفتين عند سير ويليام. وافقت إيما شرط أن يلحق بها غريفيل. وفي عام ١٧٨٦ ذهبت إلى نابولي، ولم يلتحق بها غريفيل. وعندما غدا المضيف أقل مثالية ناشدت إيما غريفيل أن يهب لحمايتها، لكنه لم يكترث بالأمر. عندئذٍ فهمت إيما اللعبة وخططت للانتقام. فبعد سنة من مرافقتها سير ويليام بوصفها خليلة، تزوجته لتقضي على أحلام غريفيل بالإرث للأبد.

لم تلقَ إيما، بصفتها ليدي هاملتون، الترحاب في البلاط الإنكليزي، لكنها استقبلت بمودة في بلاط ميلانو، حيث تحكم، شقيقة ماري أنطوانيت، الملكة ماريا كارولينا، وغدت إيما صديقتها الحميمة. وطوال سبع سنوات عاشت إيما حياة هانئة. لم تكن تحب سير ويليام، بل كانت تحترمه. كانت مضيفة ممتازة. وقد اتخذت مع زوجها مقصورة دائمة في مسرح سان كارلو. وفي عام ١٧٩٣، عندما كانت إيما في الثامنة والعشرين، قدِم إلى نابولي الكابتن الإنكليزي هوراتيو نلسون، فانقلبت حياة عائلة هاملتون، ولم تعد كالسابق.

كان نلسون شخصية هامة لكنه لم يكن بعدُ بطلاً حقيقياً. كان رجلاً هشاً، خجولاً، صغير الحجم، متزوجاً من أرملة سابقة في لندن. قاد سفينته «أغاممنون» إلى خليج نابولي، ونزل منها ليوجه رسالة ديبلوماسية إلى السفير الإنكليزي. وفي الحال أُخذ لمنزل سير ويليام. وهناك سحره جمال إيما وظرفها وفطنتها. كانت الزيارة قصيرة لكن نلسون لم ينسها وكذلك إيما.

بعد خمس سنوات، أثناء مطاردته الفرنسيين، وصل نلسون إلى

منطقة مجاورة لـ نابولي، فمكث فيها لكي يلتقي من جديد عائلة هاملتون. في ذلك الوقت كان نلسون أسطورة حية. كان قد فقد عيناً وذراعاً مما أضفى عليه مسحة بطولية. كان أدميرال الأسطول الملكي، وكان اسمه، وهو الذي حقق انتصاراً في النيل، على كل شفة ولسان. كانت نابولي متلهفة لاستقباله. وكانت إيما في عداد المستقبلين،وقد هتفت حين رأته «آه يا إلهي، هل هذا ممكن؟» وارتمت على ذراعه الوحيدة.

أعدت إيما وزوجها مأدبة عشاء تكريماً للورد نلسون. ومع أنه كان ثمة حشد كبير من الحاشية إلا أن إيما لم تكن واعية إلا إلى شخص نلسون. وكان نلسون مأخوذاً بجمالها وإخلاصها. وتبع ذلك عشاءات أخرى.

إن اكتشاف نلسون لإيما غمره بالرضا العاطفي الذي لم يجده في بيت الكاهن في نورفولك حيث نشأ مع عشرة إخوة وأخوات، كذلك لم توفره له أرملة الدكتور فرانسيس نيسبت التي تزوجها حين كان في التاسعة عشرة من عمره. كان بحاجة إلى امرأة غير متحفظة، وكانت إيما هي تلك المرأة. وحين وجدها تخلى عن حملته العسكرية ضد الفرنسيين ليعزز صلته بزوجة السفير. وبينما كان نلسون يغازل إيما تحت سقف سير ويليام، كان الفرنسيون في حالة تنقل من مكان إلى آخر. وبعد وقت قصير أُجبر نلسون على إخلاء نابولي. وقبل أربعة أسابيع من وصول الفرنسيين إلى المدينة كان نلسون في طريقه إلى باليرمو مصطحباً معه عائلة هاملتون والملك والملكة. ومن باليرمو، وبينما كان يترقب اتصالاً من إنكلترا، انصرف نلسون مدة خمسة أسابيع إلى متعة التطواف مع

عائلة هاملتون. وخلال تلك الفترة بدأت العلاقة التاريخية بين نلسون وإيما. ترى ما الذي دفعهما إلى الهزء بالأعراف؟ كان نلسون واقعاً في غرام امرأة ترضي غروره. وكانت إيما، المتعبة من ضآلة شأنها في إيطاليا ومن زوجها البالغ من العمر ثمانية وستين عاماً، تستمتع بالمجد بصفتها معشوقة الأسطورة الحية. والعواقب؟ ربما اعتقدا بأنهما فوقها. وعندما عادا إلى باليرمو كانت إيما حبلى.

قررت عائلة هاملتون، ونلسون، السفر براً إلى إنكلترا. وفي فيينا غنت إيما «آريا نلسون» بمصاحبة فرانز جوزيف هايدن، ولكن تجاهلهما البلاط في درسدن. وفي تشرين الثاني من عام ١٨٠٠ وصلا إلى لندن. لكن الشائعات سبقتهما، وكانت الفضيحة تحوم في الجو. وبينما استقرت عائلة هاملتون في البيكاديلي، عاد نلسون إلى أسرته ليواجه زوجته الغاضبة. لم تكن ليدي نلسون معنية كثيراً بانتصار زوجها في النيل بقدر ما كانت معنية بغزو إيما له. وخلال أسابيع حاول نلسون إرضاء زوجته بوساطة خليلته إيما. فقد دعا عائلة هاملتون إلى منزله، مقترحاً الانتقال للعيش فيه. وكان فزعاً عندما أوضحت له إيما أن ليدي نلسون تكُنُّ لها كراهية لا توصف. وحصلت المكاشفة بسرعة. ففي عام ١٨٠١ بينما كانت عائلة نلسون تتناول الإفطار، وقفت زوجته فجأة وقالت «سئمت من سماعي عزيزتي ليدي هاملتون، وأقترح أن تتخلى عن واحد منا». حدّق فيها نلسون غاضباً وقال «حاذري، إني أحبك بإخلاص، لكني لا أستطيع نسيان التزاماتي تجاه ليدي هاملتون، ولا التحدث إليها دون عاطفة أو إعجاب». أجابته ليدي نلسون بأنها اتخذت قرارها، وانسحبت من الغرفة، ومن حياة نلسون إلى الأبد.

الآن أصبح الرباعي ثلاثياً، إيما ولورد هاملتون وبينهما نلسون. وعلى الرغم من أن إيما كانت حبلى في شهرها التاسع، ظل زوجها غافلاً عن ذلك بسبب نوعية الملابس التي كانت ترتديها، وندرة وجود زوجها معها حتى في غرفة النوم. وقبل ولادة الطفل عُين نلسون أدميرالاً تحت إمرة سير هايد باركر وأرسل إلى البلطيق. وفي قمرته كان يكتب رسائل الحب. ووعدها بأن الحملة ستنتهي في غضون ثمانية أسابيع، بعد ذلك سوف يتزوج «أجمل امرأة في العصر، وسوف ينعمان بالسلام في بيت صغير، ويعملان لمساعدة الفقراء، وسوف يكونان مثالاً للفضيلة». وأخيراً وصلت كلمة سارة من إيما. فقد ولدت له ابنة. فرغب بتسميتها إيما، لكن إيما أسمتها هوراتيا. لقد حصلت الولادة سراً، وخلال ثلاثة أيام لم تكن إيما واقفة على قدميها فقط، لكنها شوهدت متأبطة ذراع زوجها في قاعة الموسيقا. وقد زعمت إيما نلسون أن الطفلة تخص آل تومبسون (بعد ذلك سيموت تومبسون وسترعى إيما الطفلة، وسيتبناها نلسون قانونياً).

وخلال ستة أشهر كان نلسون يحلم بإيما، لكنه حاول التركيز على المعركة أيضاً. ولدى عودته إلى لندن ذهب لرؤية ابنته الشقراء ذات العينين الزرقاوين التي كانت عند أرملة تدعى جيبسون. وقد شجعته رؤية نسله على محاولة إقناع إيما لتنجب له طفلاً آخر، فرفضت بسبب اعتلال صحتها. لكنه أقنعها بالانتقال للعيش في بيت ريفي في سوريٍ. وفي نيسان من عام ١٨٠٣ توفي هاملتون. ومن المشكوك فيه أن هاملتون لم يشك لحظة بطبيعة العلاقة بين زوجته ونلسون.

وفي عام ١٨٠٣ أعلنت إنكلترا الحرب على فرنسا، وعين نلسون

آمراً في حوض البحر الأبيض، واستقرت إيما في مرتون بليس. وقد أحاطت نفسها بالخلعاء والبوهيميين والشخصيات سيئة السمعة أمثال دوق كوينزبيري المضياف والمسرف والمقامر والذي يحيا بالشمبانيا. بعد سنتين عاد نلسون إلى إيما، وسرعان ما استنكر تهورها وأصدقاءها. لكنها استمالته من جديد، وخلال أيام قدمها بوصفها زوجته، مضيفاً «لسوء الحظ، هي ليست بعدُ ليدي نلسون».

بعد ثلاثة أسابيع استدعى نلسون للخدمة. وفي الليلة التي سبقت جلسا مع ضيوفهما للعشاء. لم تأكل إيما، بل ظلت تبكي طوال العشاء. بعد ذلك جثا نلسون أمام ابنته النائمة ذات الخمسة أعوام وصلى من أجلها. ثم قبلّ إيما ورحل. ومن سفينته بعث رسالته الأخيرة «مع بركة الله سوف نلتقي ثانية، قبلي عزيزتي هوراتيا ألف قبلة». وردت إيما «ليهبك الله النصر، ولتعد إلى بيتك، إلى إيما وهوراتيا وجنة ميرتون، لأنه حين تكون فيها ستغدو جنة».

في ٢١ تشرين الثاني من عام ١٨٠٥ أصيب نلسون برصاصة قناص، تهشم كتفه وتحطم عموده الفقري. حُمل إلى الأسفل وهو يعاني آلاماً مبرحة. وبعد ثلاث ساعات فارق الحياة وأصابعه فوق رسم لإيما.

كتب طبيب نلسون إلى والدة إيما يخبرها بموته، وقد هرعت لنقل الخبر الكارثي إلى إيما. انهارت إيما وعلا بكاؤها «ذهب عقلي وقلبي»، وكانت مريضة جداً حين جلبوا جثمانه.

كانت وحيدة مع هوراتيا، ووجدت العزاء في الخمر والمقامرة. وقد حُجزت الـ خمس مئة جنيه وهي مرتبه الذي تركه لها نلسون بسبب الديون. باعت ميرتون بليس لـ أبراهام غولد سميد لقاء مبلغ ١٣ ألف

جنيه، ولكنها سرعان ما أنفقت المال على حفلات الأنس والسمر. وأخيراً باعت مقتنيات نلسون.

في عام ١٨١٣ اعتقلت إيما بسبب الديون وحُكم عليها بالسجن مدة عام. وبعد تسعة أشهر بائسة قضتها في السجن كفلها صديق قديم لـ نلسون يدعى جوشوا جوناثان سميث، فأطلق سراحها، وقد منحها خمسين جنيهاً ورافقها مع ابنتها إلى فرنسا.

استأجرت منزلاً ريفياً يبعد ميلين عن كاليه، وناضلت من أجل إرسال هوراتيا إلى مدرسة إنكليزية قريبة، وعاشت من أجل ابنتها فقط. وبعد سبعة أشهر تدهورت صحتها بسبب إفراطها في تناول الخمر والمسكرات. وفي ١٥ كانون الثاني من عام ١٨١٥ توفيت وهي في الخمسين من عمرها.

عادت هوراتيا إلى إنكلترا ووضعت لدى أصدقاء. وقد علمت بعد ذلك بأن نلسون كان والدها، لكنها لم تعرف أبداً أن السيدة البدينة المدمنة التي عاشت معها في فرنسا كانت أمها.

الكونتيسة البولونية

لم أر أحداً سواكِ، لم أعجب بأحد سواكِ،
لا أريد أحداً سواكِ.
نابليون بونابرت

على الرغم من أن زنى ماريا فاليفسكا كان معروفاً مثل أية فضيحة في زمنها، إلا أن سمعتها الشخصية تأذت قليلاً.إن الزانيات الأخريات استخدمن الرجال إما طلباً للمنزلة والرفاهية أو للمتعة الجسدية. لكن سلوك ماريا الفضائحي كان إلى حد بعيد إيثارياً ورومانسياً. فقد عاشرت رجلاً واحداً بصورة غير مشروعة، وعندما استسلمت له كانت تفكر في مصلحة بلدها. لقد خضعت ليس طلباً للأمن أو الحب بل استجابة لمنطق السياسة والوطنية. وقد أغواها ديبلوماسي. بعد ذلك أقبل الحب.

ولدت ماريا في بولونيا خلال عام ١٧٨٩، من عائلة نبيلة وقديمة وفقيرة. ونشأت في مبنى ضخم متهدم في ملكية تشرف عليها أمها الأرملة. كان ثمة ستة أطفال تضم الشقيق الأكبر ذا الوضع البائس وشقيقات متعددات. وعندما بلغت ماريا الخامسة عشرة بدأت تثير

اهتمام الكونت أناستازيو كولونا فاليفسكي، الملأك الثري وسيد القلعة العظيمة في فاليفاس قرب وارسو. وقد ترمل فاليفسكي ذي المزاج الحزين مرتين، وفي سن الثامنة والستين من عمره بدأ يغازل ماريا. وفي حين تأثرت أمها إعجاباً بالأمر، كانت ماريا أقل اهتماماً. فقد كتبت إلى صديقتها في باريس: «يستمر فاليفسكي بإثارة ضجري بعنايته ورعايته». وفي عام ١٨٠٥ أصبحت ماريا البالغة ستة عشر عاماً الكونتيسة فاليفسكا. سُدّدت ديون والدتها، ورُمم مسكن العائلة، وأرسل شقيقها إلى فرنسا للدراسة.

رافقت ماريا زوجها إلى إيطاليا لقضاء شهر العسل، ووجدته (أي زوجها) طيباً ولطيفاً، ثم عادت إلى القلعة لتؤدي دور الزوجة ـ السكرتيرة، ولتنجب له طفلاً معتل الصحة. وقد كرست ماريا نفسها للأمومة وللمشاركة في حملة تحرير بولونيا التي كانت خلال ١٢ سنة مستعبدة لروسيا والنمسا وبروسيا.

في كانون الأول من عام ١٨٠٦ وصل نابليون، الذي ما زال نجمه يتألق، إلى بولونيا لقتال الروسيين والنمسويين. وقد نظر إليه كل بولوني على أنه المحرر. وفي قرية برونيا انضمت فاليفسكا إلى الحشود التي اصطفت في الشوارع للترحيب بالإمبراطور. وأثناء تبديل خيوله لمح ماريا بشعرها الأشقر وعينيها الزرقاوين اللتين تعكسان البساطة والرقة.

وبعد طرد الروسيين من بولتوسك عاد نابليون إلى وارسو لانتظار الربيع، في حين عسكرت قواته على الضفة اليمنى من فيستولا. كان لديه الوقت، ثم تذكر الفتاة التي رآها وسط الحشود في برونيا. استعلم عنها، وطلب من تاليران أن يأتيه بها. وبوساطة الأمير جوزيف

بونياتوفسكي رئيس حكومة بولونيا المؤقت دُعيت ماريا لحضور الحفلة الرسمية التي يقيمها نابليون في قصر بلانشا. لكن ثمة هاجساً جعلها ترفض. ونزولاً عند رغبة زوجها وبعض الوطنيين المتحمسين قبلت الدعوة، إذ لا ينبغي إغضاب المحرر.

وصلت ماريا متأبطة ذراع زوجها، وكانت شاحبة. راقب نابليون بتلهف كل حركة من حركاتها، وأخيراً بعث نابليون رسولاً يطلبها للرقص، فأخبرت الرسول بأنها «لا ترقص». وبغضب اجتاز نابليون الصالة وواجهها، ثم سألها «لم لا ترغبين في الرقص معي؟ توقعت ترحيباً مختلفاً». ثم انصرف، وهرعت ماريا إلى قلعتها. وفي صباح اليوم التالي أرسل إليها وروداً ورسالة قصيرة.

لم أر أحداً سواكِ، لم أعجب بأحد سواكِ، لا أريد أحداً سواكِ. أجيبيني وهدئي من انفعالي.

نابليون

أرعب تصريح نابليون الفظ ماريا. وأخبرت الرسول بأنها لا جواب عندها على الرسالة، وفي صباح اليوم التالي كتب إليها ثانية. لم تُرد ماريا فض الرسالة، لكن الأمير بونياتوفسكي ظهر فجأة وفض الرسالة وقرأها لها:

سيدتي ألم أعجبك؟ كان لدي سبب لكي آمل أن أعجبك. أو ربما كنت على خطأ. وفي حين تزداد حماستي فإن حماستك ما تزال خامدة في مكانها. أنت تقضّين مضجعي! آه! امنحي قلبي المسكين الذي ينتظر ليهيم بك بضع لحظات من الفرح والسعادة. هل من الصعب أن توافيني بجواب؟

نابليون

حتى الآن لم تجب ماريا. وأصر الإمبراطور. وأخيراً لجأ بدهاء إلى ضرب دفاعات ماريا غير الحصينة. فقد وعدها بشيء أكبر من الحب. لقد لمّح إلى أن استجابة ماريا ستجعله أكثر اهتماماً بتحرير بولونيا، فكتب:

ثمة أوقات يكون فيها الأمل مثل اليأس ثقيل الوطأة. ترى ما الذي يرضي حاجات القلب المثقل؟ لا أحد يستطيع إزالة العقبات التي تفصل بيننا سواكِ. آه تعالي! تعالي ستحصلين على كل ما تطلبين. ستغدو بلادك أغلى على نفسي، حالما تشفقين على قلبي المسكين.

نابليون

وبوساطة مساعده الجنرال جيرو دوروس عمل على أن تنتشر مناشدته الأخيرة لها بين أعضاء الحكومة البولونية المؤقتة. فكانت ردة فعلهم كما توقع. فقد رأوا في شخص ماريا سبيلاً لإعادة إحياء أمتهم. لذا قام العديد منهم بزيارتها. فرفضت مقابلتهم متذرعة بالمرض. فناشدوا الكونت فاليفسكي للتدخل. لكن مشاعر النبيل العجوز في هذا الأمر ظلت غير معروفة. ترى هل قاوم رجال بلده؟ هل استسلم آملاً أن يكون اهتمام نابليون بزوجته أفلاطونياً؟ أم هل قبل التضحية بشرف زوجته من أجل بولونيا؟ ولكن مهما كان شعوره بصفته زوجاً، فقد أجبر زوجته على استقبال الوطنيين البولونيين.

ناشدوها أن تزور نابليون لمصلحة ٢٠ مليون بولوني. ذهلت من هذا الطلب، ثم تساءلت عما إذا كانوا يريدون منها أن تصبح خليلة الإمبراطور. أجابوا بأنهم لم يقصدوا ذلك. فقد أرادوا منها الذهاب إلى نابليون لتلتمس منه شخصياً العمل على استقلال بولونيا. ولكن إذا

كان ثمة ضرورة لتصبح خليلة الإمبراطور لمساعدة بلدها فلا غضاضة عليها في ذلك. وأبرزوا عريضة موقعة من جميع أعضاء المجموعة، قرأها لها أحدهم: «إذا كنتِ رجلاً ينبغي عليك تقديم حياتك في سبيل عدالة قضيتك ونبلها. وكامرأة ثمة تضحيات أخرى تستطيعين القيام بها. هل تظنين أن أستير قدمت نفسها للملك أحَشْويروشَ بسبب حبها له؟ لقد ضحت بنفسها لتصون أمتها ـ وقد حصدت المجد بفعلتها هذه.

وأخيراً وافقت ماريا التعسة على لقاء نابليون. وكان أول لقاء شخصي معه مفاجئاً. لم تكن تعلم ماذا ينتظرها، لكنها لم تتوقع حنواً. وفي الواقع كان نابليون رقيقاً. وقد أثاره جمال ماريا الحزين، وقوامها الكامل، ومقاومتها. وأخيراً، عندما شاهدها وحيدة جالسة في غرفة خاصة من غرف القصر جاهد ليكبح جماح نفسه. انحنى أمامها وقبل يديها، ثم طوقها بذراعيه وقبلها، فتخلصت منه وهرعت نحو الباب إلا أنه أمسك بها وأعادها إلى المقعد. عبر لها عن حبه فبكت. كان متجاوباً مع مخاوفها، وراح يحدثها عن حبه لـ بولونيا وعن خططه لاستعادة استقلالها. وسألها عن الكونت فاليفسكي. ولمَ زُفت إلى رجل عجوز؟ ولحسن الحظ ظهر دوروس، فسأله نابليون «الآن»؟ ثم التفت إلى ماريا قائلاً «حسن، اذهبي ياحمامتي الجميلة، لا تخافي من الصقر... ستحبينه عاجلاً أم آجلاً، وسوف تقودينه في كل الأمور».

وهكذا عادت ماريا دون أن يطولها أي أذى لد كونت فاليفسكي. ولكن دون أن يطولها أي أذى لليلة واحدة فقط. وفي صباح اليوم التالي تسلمت باقة من الألماس وباقة من الأزهار مع التماس من الإمبراطور.

ماريا، عزيزتي ماريا، أنت أول من فكرت به، أول من رغبت في رؤيته. ستأتين مرة ثانية، هل ستفعلين؟ لقد وعدت بذلك. إن لم تفعلي سيطير إليك الصقر! سأراك على العشاء ـ أصدقاؤنا أخبروني بذلك. أود أن تقبلي هذه الباقة: أريدها أن تكون صلة سرية، متأسسة على تفاهم بيننا وسط الحشد الذي يحيط بنا. سأنتظر ردك!

نابليون

استولى الغضب على ماريا، وتبخرت من رأسها جميع الأفكار الوطنية. إذ كان واضحاً أن الألماس لم يكن سوى دفعة لقاء جسدها. فأعادته مع الأزهار. وبعد أن خلت بنفسها فكرت بالانتحار ثم بالهروب. كتبت على عجل حاشية لزوجها، أخبرته فيها بأنها رأت نابليون، وأضافت «خرجت دون أذى ووعدته بالعودة هذه الليلة، لا أستطيع الإيفاء بوعدي لأني أعلم ماذا سيحدث».

لم تسلِّم الحاشية ولم تفر. وفي تلك الليلة جلست للعشاء بجانب نابليون، وطوال الوجبة تجنبت نظراته ولم تبادله الحديث. وعندما انتهى العشاء ورحل الضيوف طُلب منها البقاء. ثم أُخذت إلى غرفة خاصة. وعلى الفور ظهر نابليون. كان متجهم الوجه، وكان سلوكه فظاً «انتظرتك على أحر من الجمر، لمَ رفضت الألماس والورود ؟ لم تجنبت نظراتي طوال العشاء؟ برودك إهانة لا أطيق تحملها، لقد عملت على إحياء اسم بلدك. إن الجنس البولوني ما زال حياً بسببي، سوف أحطم بولونيا إن دفعتني إلى اليأس بسبب رفضك قلبي». ثم أخرج من جيبه ساعة ورماها بعنف على الأرض لتتحول إلى شظايا. صرخت ماريا وأصيبت بإغماء.

وعندما استعادت وعيها، ووجدت ملابسها في حالة فوضى أدركت أنها اغتصبت. كان نابليون خجلاً ومرتبكاً، وكانت ماريا مصعوقة. بعد ذلك أستدعى دوروس ليحملها إلى جناح في القصر. نامت ماريا لفترة وجيزة، وعندما استيقظت كان نابليون بالانتظار. وقد بدا رقيقاً حسن الانتباه. ثم تحدث عن آماله وعن أحلامه وعن بولونيا.

في الأيام التي تلت نمت عاطفتها نحوه بصورة لا تصدق. لم تعد تفكر بزوجها ولا بعارها. وراحت تترقب الفرصة لزيارته. حين كانت في الثامنة عشرة عرفت حب رجل في السبعين، وكان نابليون في السابعة والثلاثين، مكتمل الرجولة، على الرغم من افتقاره للتكوين الجسدي المتناسق. كتب الدكتور ماكلورين «كانت يداه وقدماه صغيرة جداً، وجلده أبيض ناعماً؛ وكان جسده أنثوي التكوين؛ ردفان عريضان وكتفان ضيقان، وكانت أعضاءه التناسلية صغيرة... كان شعره خفيفاً على جسده، وشعر رأسه ناعماً حريرياً وخفيفاً».

في باريس علمت الإمبراطورة جوزفين، تلك الخائنة البالغة من العمر ٤٣ عاماً والتي لم تنجب لـ نابليون وريثاً، بالعلاقة. فكتبت إليه أنها ترغب في اللحاق به. فأجابها بأنه لم يفكر في الأمر. كان المناخ غير مناسب لها وأخبرها «أنا أكثر منك إحباطاً، وأتمنى لو أقضي ليالي هذا الفصل الطويلة معك». لكنه كتب لأصدقائه بنغمة مختلفة.

عندما حلت القوات الروسية في بروسيا، عاد نابليون بسرعة إلى ميدان القتال، وفي الوقت الذي كان يقاتل فيه عدوه، وجد متسعاً من الوقت ليبعث برسائل يومية إلى ماريا، التي سافرت مع أمها إلى فيينا للراحة. وأقبل شتاء آخر. وكان نابليون قد اتخذ مراكز حصينة في قلعة

فينكنشتاين البروسية. كان قلقاً ووحيداً. فطلب من ماريا المجيء، فأتت إليه برفقة شقيقها الكابتن في فرقة الرماحين البولونية.

خُصصت لها حجرة نوم، بموقد كبير وسرير ذي قوائم عالية، مجاورة لـ حجرة نابليون. وعندما كان نابليون يعمل كانت ماريا تقرأ أو تطرز. وعندما ينتهي من عمله كانا يتناولان العشاء معاً ويتحدثان ويمارسان الجنس. قال لها مرة «إنها لميزة عظيمة أن أكون قائد الأمة. كنت ذات مرة جوزة بلوط وأنا الآن شجرة بلوط. ومع ذلك أكون سعيداً حين أغدو جوزة بلوط من أجلك». إن الادعاء بأن علاقتهما بنيت على قاعدة سياسية تم تجاهله. ومع أن نابليون ساعد في تشكيل وزارة جديدة وفي إعادة تأسيس الجيش البولوني، إلا أنه اعترف بأنه لم يستطع تحرير بولونيا. لكن عاطفة ماريا تجاهه لم تتقلص. قال لها «أنا أحب بلدك، لكن شاغلي الأول هو فرنسا، لا أستطيع إراقة الدم الفرنسي في سبيل قضية خارجية». وعندما غادرها في الربيع، بعد شهرين ونصف قضاها معها، أعطاها خاتماً نقش عليه من الداخل هذه الكلمات: «عندما تكفين عن حبي تذكري أنني ما زلت أحبك».

لم يبقيا منفصلين مدة طويلة، فعلى الرغم من أنه أقام عدة علاقات غرامية عابرة، إلا أنه كان يفتقدها. وعندما علم بأنها حبلى استدعاها إلى باريس. وقد وصلت إلى باريس في كانون الثاني من عام ١٨٠٨ يرافقها شقيقها وخادمتها. أسكنها نابليون في منزل في شارع النصر ٤٨، وطلب من طبيبه الخاص العناية بها يومياً. وقد عاشت بهدوء ولم ترتدْ دار الأوبرا التي خصص لها فيها مقصورة، وعندما كانت تخرج من منزلها تخرج ليلاً لتزوره في التويلري. وقد انتهى حملها باجهاض، عندما كان نابليون في الخارج.

بعد انتصاره على النمسا في فاغرام، اتخذ نابليون مقراً له في قصر شونبرون في فيينا، ثم أرسل يطلب ماريا ,وجد لها بيتاً صغيراً مجاوراً لمقره، وخلال ثلاثة أشهر كان يراها في معظم الليالي. كانت فترتهما الأخيرة كعاشقين، وعند انتهاء تلك الفترة كانت ماريا حبلى مرة ثانية.

بعد عودته إلى باريس استبدت به فكرة أن يكون له وريث شرعي. وفي عام ١٨٠٧، وليثبت أن إخفاقه في ذلك كان بسبب جوزفين وليس بسببه، أنجب ابناً غير شرعي من إحدى الأوانس (دونويل دو لا بلين)، وهي المرأة التي تقرأ لشقيقته كارولين. وقد تربى الولد وأصبح بعد ذلك كونت ليون ومات فقيراً عام ١٨٨١. والآن ها هي ذي ماريا فاليفسكا حبلى بالوعد ـ ومع ذلك عليه أن ينجب وريثاً شرعياً. وبنفاد صبر أبعد جوزفين، وتزوج في نيسان عام ١٨١٠ ماري لويز، المرأة الطويلة ذات الشعر الكستنائي، أخت إمبراطور النمسا.

وفي أيار من عام ١٨١٠ ولدت له ماريا ابناً (ألكسندر فاليفسكي). وقد طلب نابليون، بعد سماعه الخبر، من ماريا أن تحضر مع الصبي لزيارته. وقد استقبلها في التويلري، وبعاطفة جياشة حمل الطفل وقال بأنه سيجعله يوماً ما ملك بولونيا، وأجرى لأمه معاشاً شهرياً مقداره عشرة آلاف فرنك. ثم قُدمت ماريا وابنها إلى ماري لويز التي تجهل أن ماريا خليلة نابليون وابنها هو ابنه غير الشرعي، وقد حيتهما ماري بـ لامبالاة.

عادت ماريا إلى بولونيا وإلى الكونت فاليفسكي، واستأنفت حياتها القديمة في فاليفيك. وفي موطنها كانت أسطورة (زوجة نابليون البولونية). وفي ربيع عام ١٨١١ علمت بأن ماري لويز أنجبت لـ نابليون

وريثاً شرعياً ـ جوزيف شارل، بعد ذلك دوق رايخشتاد ـ الذي سوف يدعى إيغلون، والذي مات بالسل وهو في الحادية والعشرين من عمره. وفي عام ١٨١٢ هُزم نابليون في روسيا شر هزيمة. وفر عبر بولونيا، وفي وارسو رغب في زيارة ماريا. لكن غريزة حفظ الذات تغلبت على هذه النزوة الرومانتيكية. وفي عام ١٨١٤ تنازل عن العرش وذهب، منفياً نفياً مؤقتاً، إلى جزيرة إلبا.

لم يكن قد مضى سوى خمسة أشهر على وجوده في الجزيرة، حين نزلت ماريا من مركب إنكليزي لزيارته، يرافقها ابنهما ألكسندر، البالغ من العمر أربع سنوات ونصف، وشقيقها وشقيقتها. قبل نابليون يدها بحرارة، وأجلس ابنه على ركبته، ثم قادهم إلى غرف في بيته الصغير، في حين نام هو في خيمة مجاورة. وقد بقيت معه ماريا مدة يومين فقط. كان سعيداً وهو يراقب ابنه يلعب. وقد سأله مرة عما يريد أن يصبح حين يكبر، أجابه الصبي بأنه يود أن يصبح محارباً مثل نابليون، ثم أضاف بأنه يحب نابليون. سأله نابليون «لماذا تحبه؟» فأجاب لأنه بابا وقد طلبت مني ماما أن أحبه. وقد عرضت ماريا على نابليون جميع مجوهراتها فرفض أن يأخذها. وفي ليلتهما الأخيرة عانق ألكسندر وهمس في أذنه «وداعاً يا طفلي».

تلا ذلك عودته إلى باريس واستعادة سلطته التي دامت مئة يوم. وبعد أن هُزم في واترلو تخلى عن العرش ووضع نفسه تحت رحمة آسريه الإنكليز. وقد تقرر نفيه إلى جزيرة سانت هيلانه في جنوب الانتلانتيك. وفي تشرين الأول من عام ١٨١٥ بدأت فترة النفي التي انتهت بموته بعد ست سنوات.

كانت الإمبراطورة ماري لويز قد رفضت الانضمام إلى نابليون في جزيرة إلبا. وبدلاً من ذلك عادت مع ابنهما إلى موطنها النمسا. وعندما هدد نابليون بخطفها وجلبها له قررت ألا تراه أبداً. وخلال فترة نفيه الثاني أقامت ماري لويز علاقة غرامية مع آدم ألبرشت كونت فون نايبرغ. هذا النمسوي الذي منحه نابليون مرة وساماً. وقد عاشت معه وأنجبت له ثلاثة أطفال. في حين غفر لها نابليون المنفي في جزيرة سانت هيلانه زناها، وأوصى أن يحفظ قلبه بعد مماته في الكحول ويرسل إلى «عزيزته ماري لويز».

كان من الأجدر أن يبعث بقلبه إلى ماريا فاليفسكا التي أحبته حتى آخر ساعة. وكان قد مضى على وجود نابليون في سانت هيلانه سنة حين علم بأن ماريا الأرملة تزوجت في بروكسل. وكان زوجها هو الضابط الفرنسي الكورسيكي الذي يمت إلى نابليون بقرابة بعيدة، والذي كان قد قدم خدمات لـ ماريا وابنها. وكان نابليون سيسعد لو عرف بأن ابنه سيعينه نابليون الثالث يوماً ما وزيراً لخارجية فرنسا.

وعلى الرغم من أن حب ماريا فاليفسكا لنابليون بقي راسخاً، إلا أنها كانت تكن عاطفة عميقة تجاه زوجها الضابط دورنانو. وقد أنجبت له طفلاً، لكنها عرفت السعادة الزوجية مدة سنة واحدة. فقد توفيت في عام ١٨١٧ وهي في الثامنة والعشرين من عمرها، في المنزل الذي منحها إياه نابليون في باريس. وكانت آخر كلمة تمتمت بها شفتاها «نابليون».

موديل كانوفا

من بين شقيقات نابليون الثلاث ـ عُرفن بـ الحظايا المتوجات ـ ثمة واحدة منهن وقفت إلى جانبه أثناء نفيه الأول في إلبا. وناشدت الحكومة البريطانية السماح لها بالعيش معه أثناء نفيه الأخير في جزيرة سانت هيلانه. إنها بولين بونابرت.

إن إخلاصها لشقيقها وإصرارها على مشاركته عذابه، أدهشا أولئك الذين يعرفونها معرفة جيدة. ذلك أن حياتها كانت، حتى ذلك الحين، مثالاً للطيش والانغماس في الأهواء والشهوات. وكانت فريدة بين زانيات تلك الفترة، فقد كان لديها موقف تجاه رباط الزوجية والخيانة. هذا الموقف جعلها تسلك سلوكاً شائناً دون أي إحساس بالذنب. كانت لا أخلاقية كقطة.

إن جمالها الجسدي وأسلوب حياتها حفظهما للأجيال اللاحقة أنتونيو كانوفا، وهو نحات إيطالي نشأ في عائلة فقيرة من المعماريين وأصبح مركيز إيتشيا. وكان كانوفا، الذي رعاه البابا كليمنت الرابع عشر، قد نفذ بعض المهمات من أجل نابليون في باريس. وكان من الطبيعي أن يخلد كانوفا بولين شقيقة نابليون في المرمر. ولإنجاز ذلك العمل لم يجند كانوفا يديه فقط بل قلبه أيضاً. ومن بين قطع كانوفا

النحتية الشهيرة، كان تمثال بولين العارية هو الذي جلب له معظم شهرته. ويبدو تمثال بولين، الذي يمثل تهكم فينوس وحسيتها، وكأنه ينتمي إلى أيام القياصرة. ربما بسبب أنفها المستقيم البارز، وذقنها الحادة، لكن مجمل الجسد الأنثوي ـ من العنق الجميل إلى الكتفين والثديين والردفين ـ كان رائعاً.

إن جسدها العاري أثار كانوفا لدرجة أنه وجد صعوبة في سيرورة إنجاز العمل. وإن تصميمها على الجلوس عارية أمام الفنان صدم العديد من معاصريها. وقد سألت إحدى السيدات: كيف احتملت فعل ذلك؟ أجابت بولين «ولم لا؟ فالجو لم يكن بارداً وثمة موقد في الاستديو».. إن جميع من عرفها أكد أن جسدها الصغير لا عيب فيه. وإذا كان ثمة عيب فيمكن إيجاده في شخصيتها. وقد قال فيها الشاعر أرنول «كانت مركباً استثنائياً من الجمال الجسدي والانحلال الأخلاقي.

لقد نُبه نابليون من لطف شقيقته وطبعها الكريم. إذ ما إن بلغت سن النضج حتى وقعت في حب رجل أكبر منها سناً، وعبثت مع معظم كبار ضباط نابليون. وقد كانت في السادسة عشرة عندما قرر نابليون إبعادها عن الإغواءات التي يمكن أن تسبب لها فضيحة. وأخذ يبحث لها عن زوج مناسب. وقد وجده في شخص الجنرال فيكتور إيمانويل لوكلير، وهو شاب أشقر، حسن الشكل، متزن، ثري. وكان لوكلير سعيداً لأنه سيصبح زوج أخت نابليون، ومسحوراً بـ بولين. وقد تزوجا في حزيران من عام ١٧٩٧. وبعد عام أنجبت بولين طفلاً سماه نابليون ديرميد، وهو اسم شخصية في قصائد أوسيان. وسوف يموت الطفل وهو في سن الرابعة. بعد ولادة طفلهما أرسلهما نابليون إلى غرب الإنديز،

إلى مستعمرة سانت ـ دومينغ ـ عُرفت بعد ذلك بـ هايتي ـ التي كانت في حالة اضطراب. وكانت المستعمرة الاستوائية الغنية، التي تنتج السكر والبن والقطن، مأهولة بالمزارعين الفرنسيين والزنوج والعبيد والمولاتو إلى جانب أقلية من الهنود سكان المستعمرة الأصليين. وعندما منحت الحكومة الفرنسية المولاتو بعض الامتيازات السياسية إضافة إلى حق امتلاك الأرض، قاوم ذلك المزارعون الفرنسيون في هايتي. واستدعوا القوات الإنكليزية والإسبانية لمساندتهم. وعلى الفور قرر الرقيق الأسود السابق دومينيك توسان، الذي كان طبيباً وتحول عندئذٍ إلى جندي ورجل دولة، تحرير أتباعه السود من العبودية عن طريق الإطاحة بالمزارعين الفرنسيين وطرد الجنود الإنكليز والإسبان. وقد ساند نابليون دومينيك دوسان ونجحت الثورة. وبقيت مشكلة واحدة: لقد شعر نابليون بأن شريكه الأسود حفظ الجزيرة لفرنسا؛ واعتقد توسان بأنه أنقذ هايتي من سيطرة الأجانب البيض.

وعندما جعل توسان من نفسه حاكماً لـ هايتي، معلناً أنه كان «بونابرت سانتو دومينغو»، تملقه بونابرت الفرنسي الحقيقي. وخوفاً من أن يفقد المستعمرة أوعز إلى صهره لوكلير أن يعبر الأتلانتيك مع ٢٥ ألف جندي ليعيد السيطرة الفرنسية ويحيي من جديد مؤسسة العبودية. وحين تهيأ لوكلير للسير إلى هايتي أمر نابليون أخته بولين بمرافقته. أما بالنسبة لـ بولين، التي كان إخلاصها للزوج أو لأي رجل آخر يحتل المرتبة الثانية في حياتها، فقد كانت فكرة مغادرة باريس خارجة عن نطاق تفكيرها. ورفضت المضي مع زوجها. امتعض نابليون وأمر بوضعها في محفة يحرسها ستة جنود، ونقلها إلى السفينة بالقوة.

ومما بعث على الدهشة هو أنها حين وصلت إلى الجزيرة استمتعت بها. فقد وجدت أن باستطاعتها إقامة استقبالات وحفلات راقصة، ومتابعة السلوك الذي كانت تسلكه في فرنسا. أما لوكلير فقد انخرط، مع جنوده الفرنسيين، في صراع مرير مع توسان وأتباعه دون تحقيق أي تقدم. وأخيراً اقترح لوكلير هدنة مؤقتة، وأقنع توسان وأتباعه أن يلقوا بسلاحهم لإجراء حوار بين الطرفين المتنازعين. وفي اللحظة التي ألقى فيها توسان سلاحه، وضعه لوكلير تحت الحراسة ونُقل إلى فرنسا حيث حكم عليه بالسجن مدى الحياة. ومات في زنزانة سجنه عام ١٨٠٣ جائعاً ومغرراً به.

وفي هاييتي حكم لوكلير بوصفه حاكم جزء من الجزيرة واستعد لاستعمار إقليم لويزيانا في أمريكا. لكن ما لبث أن واجه عدواً أشرس من توسان، فقد تفشت الحمى الصفراء في المستعمرة الفرنسية. حتى بولين تخلت عن طيشها لتعمل ممرضة. وأخيراً أصيب لوكلير بالحمى. كان مرضه مميتاً. وقد مكثت بولين إلى جانبه طوال الأسبوع الذي سبق موته. وبعدما فارق الحياة قصت بولين شعرها وغطت به جسد لوكلير. ورافقت جثمانه إلى باريس حيث أقيم له قداس مهيب.

في باريس أنهت بولين بصورة مفاجئة حدادها. كان ثمة رجال وسيمون في كل مكان، وأرادت بولين الاستمتاع بهم كافة. لقد استأنفت سلوكها العبثي الذي كان سبق زواجها. وكان عشاقها من الأسرة الملكية ومن الأشخاص المشهورين، من ضمنهم الكاتب التراجيدي فرانسوا تالما.

مرة أخرى، وللحفاظ على سمعتها، بحث لها نابليون عن زوج. وكان المرشح المحتمل هو الأمير كاميلو بورغيزي. كان الأمير في الثامنة

والعشرين، فاتناً، متبلد الذهن، ورث ثروة طائلة إضافة إلى مجموعة من الماسات الرائعة وفيلا فخمة في روما. أُسرت بولين به ووافق نابليون. أما المراقبون الذين كانوا يعرفون بأن الأمير شخص أحمق ولا شيء غير ذلك، فلم يستوعبوا الأمر. وقد تغاضت بولين عن ضحالته وركزت على ثروته. وجرت مراسم الزواج في تشرين الثاني من عام ١٨٠٣. وشهد الحفل والدة بولين وجوزفين وبعض أفراد العائلة. وقد جلب ذلك الزواج لـ بولين ليس فقط زوجاً بل دخلاً سنوياً مقداره ٧٠ ألف فرنك وحصة من الفيلا وعربتين وميزات أخرى مادية.

لم يمض وقت طويل على زواجها حتى انغمست في حياة متهورة فاسقة. لقد وثبت من سرير إلى سرير. وقرن المراقبون اسمها باسم ميسالينا. ترى لمَ ارتكبت الزنى بهذه السرعة؟ رأى البعض أن الأمير بورغيزي كان عنّيناً ـ أو غير كفؤ. لكن الجنرال بول تيبو أصر على أنه كان عنّيناً. أما دافيد ستاكتون كاتب سيرة البونابرتيين فقد اعتقد أنه لم يكن لا هذا ولا ذاك. وكتب يقول: «المشكلة هي أن الأمير كان لديه قضيب صغير إلى حد ما، وبولين المصابة بالشبق المرضي ازدرت كل القضبان عدا الكبير جداً منها». ومع ذلك يشعر المرء بأنه حتى لو كان بورغيزي كازانوفا فإنه لم يكن كافياً بالنسبة لـ بولين. كان لدى بولين نهمٌ جنسي لا يمكن إشباعه، وتحتاج إلى عدة رجال، كما تحتاج باستمرار إلى الاطمئنان بأنهم يرونها ساحرة. وبعد أقل من سنة على زواجهما، وبعد أن أقامت علاقات جنسية مفتوحة مع كونت فرنسي، انفصلا. ولم يؤيد نابليون الطلاق.

قليلات من النساء، سواء قبلها أو بعدها، عشن هكذا حياة مترفة

وحسية. كان لديها ستمئة ثوب وملايين الدولارات وثروة من الجواهر، وقد تنقلت من منتجع إلى آخر في عربة يجرها ستة أحصنة. وحين استقرت في نويلي، خصص لها نابليون ١٣٠ ألف فرنك شهرياً لتضيفها إلى الثروة الإيطالية التي ورثتها.

بخلاف معظم النساء الفرنسيات كان لدى بولين ولعٌ شديد بالاستحمام. وكانت أثوابها شفافة، وجسدها مكشوفاً دائماً، تشعر بأن التشدد في النظافة ضروري. كانت تستحم يومياً في حوض مملوء بمزيج من المياه الحارة والحليب. وفي كل يوم يحملها خادمها الزنجي عارية ليضعها في حوض الماء والحليب. وفي حين عد أصدقاؤها التعري أمام الزنجي غير لائق، كانت بولين تقول «ولم لا ؟ الزنجي ليس رجلاً». ولكي تحد من القيل والقال زوجت الزنجي من إحدى خادماتها البيض، لكنه تابع حملها إلى حوض الاستحمام، وحملها منه. كانت تستقبل، أثناء استرخائها في الحوض، المعجبين الذكور، وتتمتع بهم وهم يحدقون بصدرها العاري.

في عام ١٨٠٦ أقامت علاقة جنسية مع رسام المجتمع الراقي نيكولاس فيليب أوغست دو فوربين البالغ من العمر ٣٠ عاماً، والذي كان تلميذاً لـ دافيد. كان قوي البنية، لكن دخله المادي محدود. عالجت بولين وضعه المالي بتعيينه حاجباً لها. وبالمقارنة مع قضيب الأمير بورغيزي «الصغير جداً» كان قضيب فوربين ضخماً جداً. وطوال عام تعلقت بولين بعشيقها، وكان حبهما جارفاً. وقد تدهورت صحة بولين، وبدت مرهقة بسبب معاناتها آلاماً مهبلية موجعة، ومن حكة لم تستطع التخلص منها. وحين اشتد مرضها، خاطب أحد أطبائها مستشاراً واصفاً

له حالتها: «مظهرها العام يشير إلى كآبة حادة وإرهاق. وما زال هناك حساسية في رحمها، لكن نوعاً ما أقل من السابق. إن وضع رحمها الحالي كان نتيجة الاهتياج المستمر لذلك العضو؛ وإذا لم يتوقف ذلك فسوف تكون النتيجة خطرة... إلى آخر هذه الرسالة الطبية. وبعد تحسن صحتها التدريجي، ذهبت بولين إلى نيس دون دو فوربين. لكن الامتناع عن ممارسة الجنس كان بالنسبة إليها مستحيلاً. وعلى الفور استأجرت عازف كمان شاب يدعى بلانجيني ليقود فرقتها الموسيقية. وبالطبع لم يكن لديها فرقة موسيقية بل كان لديها سرير وفيه تمتع الطرفان بالعزف الثنائي.

بعد ذلك وقعت أنظارها على أرماند جول دو كانوفيل، وهو واحد من أربعة مساعدين للماريشال برتييه. كان سجل كانوفيل العسكري لامعاً، وأصبح، وهو في الخامسة والعشرين من عمره كولونيلاً. كان شديد التأنق، ويتباهى بانتزاعه إعجاب النساء. وكان أحمق عابثاً، يشبه في ذلك بولين التي هامت بحبه. وغدت علاقتهما الجنسية على لسان الجميع.

ثمة حادثة أضحكت باريس كلها، وهي أن بولين حين أصابها وجع بأسنانها استدعت طبيب الأسنان بوسكييه إلى مكان إقامتها في نويلي. وعند وصوله وجد عندها شاباً أشعث في عباءة حريرية يواسي بولين. كان الشاب يرجو بولين أن تتخلص من سنها قائلاً «لأنك كنت تصرخين طوال ثلاث ليالٍ، ولم يستطع كلانا النوم ولو للحظة». وبعد جدل قصير خضعت بولين وسمحت للطبيب أن يقلع سنها. بعد ذلك بوقت قصير، وعندما كان الحديث يجري عن آثام الأسرة الملكية بحضور الطبيب

بوسكيبه، استثنى الطبيب بولين وأشاد بها قائلاً «كنت في نويلي مؤخراً وشاهدتها مع زوجها. إنهما بالنسبة لي نموذج يحتذى، وياله من زواج سعيد». وقد ذُعر الطبيب لما عرف أن الشاب كان كانوفيل، وأن الأمير بورغيزي كان ممنوعاً من دخول نويلي. استاء نابليون من حادثة نويلي وأمر بإرسال كانوفيل إلى روسيا مع حشد من المحاربين. وقد قتل كانوفيل في موسكو. انتحبت بولين بجانب هداياه ورسائله، وضفرت سواراً من شعره.

بعد إلبا ـ شاركت بولين نابليون وهو في منفاه مدة أربعة أشهر ـ تشجع الأمير بورغيزي، الذي وجد لنفسه خليلة في فلورنسا، وقاضى بولين طالباً الطلاق. قاومت بولين الدعوى، ونجحت في كسب انفصال قانوني ـ إضافة إلى ٢٠ ألف فرنك سنوياً، وتملك بالازو بورغيزي، وحقها في فصل حصتها من فيلا بورغيزي. وكانت في الأربعين من عمرها عندما حُلّت مشاكلها الزوجية. ولم تكن سعيدة في عمرها هذا. وكانت تطوق عنقها بعشرة حبال من اللآلئ لتغطي التجاعيد، وطلبت أن يوضع تمثالها العاري الذي أبدعه كانوفا في المستودع لكي «لا يرى العيابون فعل السم في جسدي». وكان ثمة عشيق أخير لها هو المؤلف الموسيقي الشاب جيوفاني باتشيني الذي عرض أوبراه «رقيق بغداد» في بالازو.

بعد ذلك عاشت وحيدة، وتفاقم مرضها، وماتت مصابة بالسرطان. لم يستطع الأطباء الستة الذين سهروا على صحتها أن يفعلوا شيئاً للتخفيف من آلامها. وقد رغبت في استعادة زوجها. ويقال إن البابا ليو الثاني عشر توسط ليصلح بينها وبين الأمير بورغيزي. وفي التاسع من

حزيران من عام ١٨٢٥ أنجزت بولين بونابرت البالغة من العمر ٤٥ عاماً، وبجانبها زوجها وشقيقها الأصغر جيروم، وصيتها الأخيرة، ثم لفظت أنفاسها الأخيرة والمرآة في يدها.

لقد أوصت وهي على فراش الموت ألا يفتح تابوتها أثناء الجنازة، وأن أولئك الذين يرغبون في رؤيتها عليهم أن يروا تمثال كانوفا. وقد احتُرمت رغبتها. فقد بقي التابوت مقفلاً. وأخرج تمثال كانوفا العاري وعُرض أمام المشاهدين. وعادت بولين بونابرت شابة من جديد.

عشيقة بايرون

النموذج الإنكليزي

إن كان ثمة إنسان أمقته بشدة واشمئز منه فهو هي...

لورد بايرون

في عام ١٨١٦، وبعد توقيعه صك الانفصال عن زوجته، غادر جورج غوردن بايرون البالغ ٢٨ عاماً لندن وإنكلترا إلى المنفى الذي فرضه على نفسه، متوجهاً إلى سويسرا ثم إيطاليا واليونان. رحل اللورد بايرون عن موطنه إنكلترا، التي لن يراها ثانية، لعدة أسباب: فظاعة الانفصال، الفضيحة التي أثارتها علاقته الجنسية المشكوك فيها مع أخته غير الشقيقة، موقفه المتهور إزاء دائنيه، معتقداته السياسية التي لا تروق العامة. وربما كان هنالك سبب آخر مثير دفعه إلى الفرار. وكانت الليدي كارولين، زوجة رئيس وزراء المستقبل، هي ذلك السبب المثير. إذ كانت منذ عهد قريب خليلة بايرون الأولى الشهيرة.

في صالة الزانيات تعد الليدي كارولين الأكثر صعوبة. عندما رغب بايرون في إنهاء علاقتهما العاصفة، أخبرها بأنه ينبغي عليه فعل ذلك لكي يوقف «أقوال الحمقى، وحزن الأصدقاء، والأسف العاقل». وفي

حزيران عام ١٨١٤ كتب إلى حماتها يقول «إنه يتمنى في القريب العاجل أن يكون في عداد الأموات في المطهر، وليس مع كارولين على الأرض... تقريباً أنا سجين، إنها تفتقر إلى الحياء والعاطفة، لا يوجد أحد عندها جدير بالاحترام... إن كان ثمة إنسان أمقته بشده وأشمئز منه فهو هي».

وكان قبل ذلك قد كتب لـ كارولين «لم أعرف مطلقاً امرأة أعظم أو أكثر مواهب... أنت تعرفين بأني اعتقدت دائماً بأنك الأذكى والأكثر تناغماً وسخفاً ووداً وتعقيداً وخطراً، كائنة صغيرة ساحرة تعيش الآن أو يحتمل أنها عاشت قبل ألفي سنة. لا أريد التحدث إليك عن الجمال فلست حكماً. لكن أشياءنا الجميلة يذهب جمالها بجانبك. والآن كارو، هذا الهراء هو الإطراء الأول والأخير الذي أخصه بك».

ولدت المرأة، التي أثارت في نفس بايرون تلك المشاعر العنيفة والمتناقضة، في تشرين الثاني عام ١٧٨٥. كان والدها ثالث إيرل(*) لـ بيسبورو. وكانت والدتها قد انشغلت في سنوات نضجها بإخضاع رجل الدولة البريطاني لورد غرانفيل، غرامياً، في حين درأت عن نفسها عروض أمير ويلز البدين. ولما بلغت كارولين الثالثة عانت أمها جلطة دماغية طفيفة. فأرسلت كارولين إلى إيطاليا مع مربية حيث قضت ست سنوات. بعد ذلك نقلت إلى عمتها، دوقة ديفونشاير لتنشأ مع أبناء عمتها في بيت لندني ضم أيضاً دوق ديفونشاير وخليلته ليدي إليزابيث فوستر.

كانت سنوات كارولين المبكرة، المملوءة بالتهور، محيرة. إذ لم تتلق تعليماً مدرسياً رسمياً. وكانت جامحة وصخابة. وحين بلوغها الخامسة

---

* إيرل Earl ـ لقب إنكليزي أدنى من مركيز وأرفع من فيكونت (المورد).

عشرة، اكتشفت فجأة أنها تستطيع أن تبرع بالفرنسية والإيطالية واليونانية واللاتينية، وأدركت أنها موهوبة في الموسيقا والفن والتمثيل المسرحي وفن الحديث. في ذلك الوقت كان صديق العائلة وليام لامب، خريج كامبريدج وعلى وشك أن يصبح محامياً، هو أول من وقعت أنظاره عليها. إذ لم يسبق له أن رأى مخلوقاً أكثر منها أصالة.

غازلها لامب طوال ثلاث سنوات. وعلى الرغم من أنه كان مراوغاً، إلا أنها تمتعت بذلك. كانا رفيقين متغايرين. كانت كارولين لامعة وحيوية ومروعة. كان لديها وجه ملاك وقح، بشعر أجعد قصير، وعينين واسعتين. وكان جسدها صغيراً ونحيلاً وصبيانياً. وقد دعاها أصدقاؤها بـ «السنجاب» وبـ «الجني الصغير»، ودعاها البعض بـ «المتوحشة الصغيرة»، وكان وليام لامب، بابتسامته الساحرة، ومظهره المصقول اللامبالي، شديد التأنق ومتقد الذهن وهادئاً. وقد تزوجا في حزيران من عام ١٨٠٥. وطوال الحفل كانت كارولين مضطربة، وفي نهايته مزقت فجأة صدر ثوب زفافها وسقطت مغمى عليها. حُملت العروس الجديدة ووضعت في عربة شهر عسلها.

أمضيا السنوات الأربع الأولى في سعادة. وقد احتلا طابقاً في منزل ملبورن الرائع؛ واحتلت الليدي ملبورن حماة كارولين طابقاً آخر. كانا يستقبلان الضيوف صباحاً ومساءً وبعد الظهر، وفي مناسبات نادرة حين يكونان وحدهما كانا يناقشان السياسة والأدب الكلاسيكي. وقد وجدا الوقت لإنجاب ثلاثة أطفال.الأول أوغستوس بلغ سن الرجولة وبقي معتوهاً، وتوفي في التاسعة والعشرين من عمره، وتوفي الطفلان الآخران وهما في سن الطفولة. وعندما ذهبت جِدة الزواج غدت كارولين ضجرة

ومتململة. أضجرتها الحياة الزوجية الرتيبة والسطحية. لقد أحبت زوجها لكنها أحبت نفسها أكثر. كانت بحاجة إلى توجيه وكبح، لكن زوجها لم يستطع فعل ذلك؛ وقررت الطلاق، فحلمها بالعوالم الجديدة سيحقق لها استمرار الإثارة والمشاعر القوية.

بدأت بـ صالون دعي إليه فقط الشخصيات المتميزة على الصعيد الإبداعي. وكان بين المدعوين الذين استقبلتهم صامويل روجرز المصرفي الشاعر الذي طبع عمله «متع الذاكرة» خمس عشرة مرة! ومن المدعوات الليدي أوكسفورد التي اشتهرت بانغماسها في المتع الحسية. وعندما غدا الحديث مضجراً كالزواج قررت كارولين أن تختبر الزنى. وكان الـ سير غودمزي ويبستر العشيق الأول الذي اختارته، وهو رجل مرح وأحمق وفاسق. ولم تحافظ كارولين على سرية علاقتها به، إذ كانت تظهر معه دائماً وسط الناس، مما أرعب عائلتها وأصدقاءها. زوجها كان متسامحاً. وقد انتظر لامب بصبر انتهاء مغامرتها الرخيصة. وقد انتهت العلاقة سريعاً ـ لكن تبعتها ورطة فضائحية، ستسبب لها جرحاً عاطفياً لن يندمل طوال حياتها.

كان ذلك في آذار من عام ١٨١٢. فقد استيقظ لورد بايرون، البالغ من العمر أربعة وعشرين عاماً، في صباح أحد الأيام ليجد نفسه وقد أصبح شهيراً. /حتى ذلك الحين كان بايرون شاعراً صغيراً مغموراً. ولم يكن سلوكه مقبولاً، فخلفيته العائلية ـ أم سكيرة وعنيفة، طفولة بائسة ومتعسفة؛ مربية حمقاء ـ جعلته حساساً ومزاجياً ودفاعياً معادياً للمجتمع. ومع ذلك كان جذاباً، يتسم وجهه بجمال كلاسيكي. كان موقفه رومانتيكياً. وفي عام ١٨٠٩، بعد أن احتل مكاناً في مجلس

اللوردات طبق عملياً موقفه الرومانتيكي حين رحل إلى ألبانيا واليونان وتركيا. وفي هذه الرحلة ألف الجزء الأول من «أسفار شيلد هارولد» ونشر في آذار من عام ١٨١٢ ـ بعد بضعة أيام من إلقائه الخطبة النارية في مجلس اللوردات أدان فيها عقوبة الإعدام بحق العمال الذين خربوا آلات العمل ـ وفي الصباح التالي غدا شهيراً.

استعارت كارولين من صامويل روجرز كتاب بايرون وقرأته بحماسة شديدة. وفي الحال بحثت عن روجرز لتهتف قائلة «ينبغي أن أراه ـ أنا متلهفة لرؤيته!». فقال روجرز ضاحكاً «له قدم مشوهة ويقضم أظافره». فردت كارولين: «ينبغي أن أراه ولو كان بشعاً بشاعة إيسوب».

بعد بضعة أيام، وفي حفلة ليدي ويستمورلاند الراقصة قُدم إليها. وبعد أن تعارفا أبدى بايرون رغبته في لقائها ثانية. حدقت كارولين إلى وجهه ثم، بحركة مسرحية ودون كلمة، أدارت ظهرها وابتعدت عنه، وفي تلك الليلة كتبت في دفتر يومياتها: «مجنون وسيء وخطر». وبعد قليل سوف تضيف سطراً آخر: «إن ذلك الوجه الشاحب الجميل هو قدري».

وعندما التقيا ثانية في منزل هولاند علق بايرون بسرعة، متذكراً تمثيلها السابق، قائلاً: «هل يمكنني أن أسألك لم رفضت العرض الذي تقدمت به إليك؟». بقيت إجابتها غير معروفة، لكن من المعروف أنها دعته إلى منزلها، وأنه قبل دعوتها.

في صباح اليوم التالي قدم بايرون لزيارتها في منزل ملبورن. تذكر كارولين: «كان روجرز ومور يقفان إلى جانبي بينما كنت جالسة على الأريكة. وكنت قد عدت تواً من رياضة ركوب الخيل، وكنت قذرة

ومنفعلة. وعندما أعلن لورد بايرون وصوله قفزت من الغرفة لأغتسل. وعندما عدت قال روجرز «لورد بايرون أنت رجل محظوظ، فالليدي كارولين كانت جالسة معنا بوحلها، لكن عندما قدمت هرعت لتجمل نفسها».

وفي الواقع فإن علاقتهما قد بدأت. وبدا ذلك غريباً لأنها لم تكن النموذج الذي يرغب فيه. وبعد أشهر سيكتب إلى الليدي ملبورن: «كارولين (كما اخبرتها بذلك مراراً) لم تكن تناسب ذوقي، ولا أنا أناسبها». وخلال رحلته إلى الشرق الأدنى اكتشف بايرون أنه يحب النساء الشهوانيات والبسيطات. وتذكره النساء النحيلات بـ «الفراشات الجافة». وكانت كارولين نحيلة ومعقدة. وقد قال عنها «يلازمني هيكل عظمي»، لكنه لم يستطع المقاومة. فقد أسره ذكاؤها ومنزلتها ونشاطها الجنسي، وفوق كل ذلك وجودها المتاح. وقد استبعد بايرون مؤقتاً إحساسه وذوقه. وأطلق العنان لعواطفه.

بدأت كارولين باستقباله في غرف منزلها. كان يصل صباحاً ويبقى طوال اليوم، كان يتحدث ويصغي. وكان كلاهما غارقاً في الحب، لكنهما لم يعملا على تتويج هذا الحب. ومضى بايرون باحتراس في المراحل الأولى من علاقتهما. وعندما قدمت له جواهرها ليسدد بثمنها ديونه رفض.

ولكن ماذا عن وليام لامب طوال هذه الفترة؟ لم ينتبه بايرون إلى الجرح الذي أصاب الزوج. وكان ينظر إلى لامب نظرة احترام، ويعده كائناً أعلى منه. ولم يبادله لامب هذه النظرة. وفي حين سلم بجاذبية بايرون وذكائه، فقد عده مدّعياً. وفي حضور كارولين الساخطة، كان يسخر من

مظاهر بايرون الرومانتيكية. لكنه لم يفعل شيئاً لكبح زوجته الخائنة، بل كان يعيد التأكيد أن علاقتهما الضالة سوف لن تستمر، كان يقول «إنهما لا يرغبان في الاستمرار ولا ينويانه، لكنهما يحبان الخطر ويتمتعان بما يبتدعان».

أما كارولين التي اكتوت بنار الهوى، فلم تعد تتمالك نفسها. فإن وجدت نفسها في ذات الحفلة مع بايرون كانت ترتمي عليه على المكشوف. وإذا وجد في حفلة لم تدع إليها كانت تنتظره في الخارج حتى يخرج لتركب معه في عربته. لقد امتثلت لكل رغبة من رغباته. وقد طلب منها أن تتخلى عن الصالون ففعلت. وأخبرها بأنه يمقت الفالس الذي اشتهر في تلك الفترة فتخلت عن الرقص. وعندما حاولت أمها وحموها إنهاء علاقتها ببايرون بإرسالها إلى الخارج هددتهما بالفرار معه. وقد صرخ حموها في وجهها قائلاً «اذهبي إلى جهنم ـ ولكن لا أعتقد بأنه سيأخذك معه». بكت كارولين بكاءً هستيرياً وفرت من المنزل. وبعد أن اختبأت في دكان صيدلي استأجرت عربة إلى كينزينغنون، وهناك رهنت خاتمها مقابل ٢٠ جنيهاً، واستأجرت غرفة في منزل طبيب جراح، ووضعت خططاً لمواصلة فرارها إلى بورتثماوس، ومنها ستحجز مكاناً في أول سفينة متجهة إلى أية جهة. إثر ذلك استدعت أسرة كارولين بايرون الذي اقتفى أثرها بمساعدة الحوذي وأجبرها على ترك منزل الجراح. وعادت كارولين إلى منزلها بعد وعد لامب بالصفح عنها.

سئم بايرون من تصرفات كارولين الغريبة الهيستيرية ومن غيرتها الشديدة. فقرر أن يضع حداً لذلك، وأن يفعل ذلك بقسوة ودراماتيكية.

فخاض في علاقة مع صديقة كارولين آنئذٍ الليدي أوكسفورد البالغة من العمر ٤٠ عاماً، وقد أراحت تلك المرأة، بمعرفتها الواسعة وعفويتها، بايرون بعد شهور من التشنج مع كارولين. وسيتذكر بايرون دائماً تلك المرأة بعاطفة جياشة. وقد أمطرت كارولين المصعوقة الليدي أوكسفورد وبايرون بوابل من رسائلها الغاضبة اللاذعة.

وأخيراً عزم بايرون المرهق إنهاء علاقته بـ كارولين. فكتب لها، ربما بمشاركة الليدي أوكسفورد، رسالة وداع قاسية:

ليدي كارولين ـ أنا لم أعد عشيقك منذ أن أكرهتني على الاعتراف بذلك نتيجة هذا الاضطهاد اللا أنثوي... اعلمي أنني ارتبطت بأخرى... سأظل أذكر بامتنان العديد من حالات الولع التي وفرتها لي. سأحافظ على صداقتك إن سمحت سيادتك بذلك، وأول برهان على احترامي لك أن أسدي إليك هذه النصيحة؛ قاومي غرورك السخيف؛ مارسي نزواتك السخيفة على الآخرين، ودعيني في سلام.

خادمك المطيع بايرون

بالنسبة لـ بايرون فقد انتهى الأمر. أما بالنسبة لـ كارولين فلن ينتهي. وقد تأرجحت عواطفها بين الكراهية والحب. فعلى بزة خادمها الجديد خاطت أزراراً نقش عليها «لا تصدقوا بايرون». ولفقت رسالة مقلدة خط بايرون وأرسلتها لناشره في محاولة للحصول على صورة كان حرمها منها. وعرضت خدماتها على فُسّاق لندن إن هم تحدوا بايرون في مبارزات انتصاراً لها. وفي احتفال جرى في بروكيت هول، وأمام فتيات ريفيات لبسن أثواباً بيضاً، حرقت صورة بايرون، ثم رمت في النار الكتب التي كان أهداها إياها، وخصلاً من شعره، ونسخاً من رسائله

(احتفظت بالأصلية). وفي لندن ضربت حصاراً على غرفه. وقد اشتكى بايرون قائلاً «إنها تأتي في أي وقت وفي كل الأوقات».

وصلت هيستيريا كارولين إلى ذروتها في مساء الخامس من تموز عام ١٨١٣، أثناء حفلة راقصة أقيمت على شرف الليدي كاثرين هيثكوت. في هذا الحدث الاجتماعي تقابلا وجهاً لوجه، وكانت الأوركسترا تعزف فالساً، فقالت كارولين لـ بايرون، وقد تذكرت كيف حرمها من الرقص، «أظن أنه مسموح لي أن أرقص الآن». أجابها بايرون على نحو قاطع «تباعاً مع كل شخص». وبعدما انتهت رقصتها تقدمت نحوه. كان يتحدث مع إحدى السيدات، لكنه استدار نحو كارولين وهمس في أذنها ساخراً «كنت أطري براعتك». وعندما سار مبتعداً صرخت «بايرون»، ثم دخلت مسرعة غرفة الطعام ثم بدأت تشطب ذراعيها بأداة حادة ـ سكين الفواكه.

هرع الضيوف المذعورون لإيقافها. وحين كادت أن تسقط مغمى عليها، ناولها أحدهم كأساً من الماء. وبسرعة أخذت الكأس وحطمتها، وحاولت أن تجرح معصميها بشظاياها. وأخيراً حُملت إلى منزلها.

كانت مشاعرها ما زالت تحت السيطرة لتتنبأ ـ حين تزوج بايرون ابنة خالته أنابيلا ميلباك عام ١٨١٥ ـ بأن بايرون سوف لن يتوافق مع امرأة تذهب إلى الكنيسة بانتظام وملمة بعلم الإحصاء وذات شخصية سيئة. كان تنبؤها صحيحاً. ففي عام ١٨١٦ انفصل بايرون عن زوجته رسمياً، وغادر إنكلترا إلى غير رجعة. وكان في جنيف حين انتقمت منه كارولين، التي ما زالت متألمة لرفضه إياها، انتقاما أدبياً. فقد نشرت رواية ميلودرامية «غلينارفون» ضمنتها شخصية بايرون والليدي

أوكسفورد ووليام لامب وشخصيتها هي، وتعاملت معها كشخصيات قصصية خيالية. وفي هذه الرواية رسمت بايرون كوحش صغير، وتمنت أن يقرأها بايرون. وقد فعل «أعارتني إياها مدام دو ستايل في الخريف الماضي». وقد كتب لـ توماس مور «يبدو لي أن الكاتبة إن كانت قد كتبت الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة، فإن القصة لم تكن رومانتيكية فقط بل ممتعة. وفيما يتعلق بالشبه، فالصورة لا يمكن أن تكون جيدة ـ فأنا لم أجلس أمامها وقتاً كافياً».

بعد ذلك بدأ تحطمها الكامل. فقد تخلى عنها لامب الذي اشمأز من الرواية. وحاولت، وحيدة في بروكيت هول، أن تعيد خلق اللحظات الرومانسية التي قضتها مع بايرون بإقامتها سلسلة من العلاقات غير المشروعة، كل واحدة منها أكثر انحلالاً من السابقة. كان موكب عشاقها مقدراً عليه تحمل الإصغاء إلى حفلات آلة الأورغن المنفردة، وعواطفها المتقلبة. وبعد زيارة قامت بها إلى بروكسيل لترعى أخاها الذي أصيب بجراح في واترلو، ذهبت إلى باريس للقاء بطل الساعة دوق ويلنغتون، وحاولت إغواءه لكنها فشلت في ذلك.

وذات مرة، بعدما عاد إليها لامب مؤقتاً، التقت أثناء ممارستها رياضة ركوب الخيل اليومية، جنازة ماضية في طريقها إلى نيوستيد. في تلك الليلة علمت من زوجها أنها كانت جنازة بايرون. كان تحطمها كاملاً. ومنذ ذلك الحين بدأت تتعاطى المخدرات والبراندي، وأصبحت على شفا الجنون. سببت أذى للزوار وحطمت الأطباق وبقيت مستيقظة طوال عدة ليالٍ. تخلت عن الوجبات المعتادة، وعن جميع مظاهر النظام المنزلي.ودائماً ما كانت تعزل نفسها ثملة في غرفتها لتنشج تحت صورة بايرون التي علقتها على الحائط بجانب المصلوب.

في عـام ١٨٢٥ انفـصـل عنهـا لامب نهـائيـاً. وبعـد سنتين أصـيبت كارولين بمرض الاستسقاء. فنقلت إلى ميلبورن هاوس، وناشدت عائلتها ليأتوا لها بزوجها «إنه الشخص الوحيد الذي لم يخذلني». وصل لامب وجلس بجانبها وتحدث معها بلطف. لم تكن لتعرف أن عزيزها وليام، الذي ورث مؤخراً لقب لورد ملبورن، سيتولى بعد ست سنوات منصب رئيس وزراء إنكلترا، وسيصبح بعد ذلك مرشد الملكة فيكتوريا والمؤتمن على أسرارها. أدركت فقط أنه لم يكن ثمة أكثر منه تهذيباً وصبراً وفهماً لشريكه. وقد كان تصرفه الأخير الحنون هو كل ما كانت تصبو إليه. بقيت حية يوماً آخر، ثم أغلقت عينيها وتحررت للأبد من عقلها المعذب.

عشيقة بايرون

النموذج الإيطالي

كان قد مضى على موت كارولين خمس سنوات عندما زارت الكونتيسة تيريزا غويتشيولي إنكلترا للمرة الأولى. وإذا كانت كارولين خليلة بايرون الأولى، فالكونتيسة تيريزا غويتشيولي كانت الأخيرة. من دون ريب، كان ثمة علاقات بينهما، كلير كليرمونت أخت ماري شيلي غير الشقيقة التي أنجبت من بايرون ابنة غير شرعية؛ ماريانا زيغاتي زوجة صاحب فندقه في فينيسيا؛ مارغريتا كوني الإيطالية الشرسة السليطة اللسان؛ إضافة إلى العديدات الأقل أهمية. ولكن بقدوم تيريزا إلى إنكلترا للحج إلى مثوى بايرون الأخير وإلى دير نيوستيد لزيارة أصدقاء عشيقها الذين ما زالوا على قيد الحياة لبيع مخطوطاته، تكون حلقة حياة بايرون الرومانتيكية قد اكتملت.

رافق تيريزا غويتشولي شقيقها الأكبر فيتشينزو. ومع شيء من المعرفة بالمحادثة باللغة الإنكليزية نجحت زيارتها إلى موطن بايرون. كانت مركز صالون الليدي بليسينغتون، وكان جون موري ناشر الشاعر بايرون يطعمها ويسقيها. وكانت تتناول الشاي مع مدرس بايرون في هارو. وفوق كل ذلك حققت رغبة قديمة عندما التقت أخت بايرون غير

الشقيقة أوغوستا ليي التي أقام معها بايرون علاقة جنسية محرمة. استمر هذا اللقاء ثلاث ساعات. ودار الحديث كله حول بايرون. وقد أحبت أوغوستا تيريزا، وقالت تيريزا تمتدح أوغوستا «إنها الأكثر طيبة والأكثر وداً في العالم».

وكانت ذروة جولة تيريزا زيارتها لقبر عشيقها. بعد موت بايرون رُفض أن يدفن في دير وستمنستر. فأُنزل تابوته في سرداب العائلة في كنيسة صغيرة في هاكنيل توركارد قرب قرية نيوستيد، ووضع بجانب تابوت أمه. الآن وبعد ثماني سنوات من دفنه وصلت آخر خليلة له إلى هاكنيل توركارد. وقد كتب أحدهم مايلي: «دخلت الليدي إلى الكنيسة وحدها، وسجدت على السوسن الذي يغطي القبر، وظلت هكذا وحيدة في الكنيسة قرابة ساعة أو أكثر، في حين انتظر المشرف والخادم في الخارج».

خلفت تيريزا أثراً إيجابياً على العديد من الذين قابلتهم في لندن. ومع ذلك فإن أولئك الذين عرفوا كارولين لامب وشاهدوا تيريزا غويتشيولي لاحظوا أوجه شبه بين الاثنتين. على صعيد السلوك والشخصية كانتا متباعدتين. فخلافاً لـ كارولين كان لدى تيريزا القدرة على ضبط النفس والقوة والإدارة. ومع ذلك فثمة تشابه بينهما، وقد لاحظه بايرون فوراً «إنها نوع إيطالي من كارولين لامب باستثناء أنها أجمل وليست فظة. لكن لديها نفس حدة الطبع والأنفة».

ولدت تيريزا في رافينا عام ١٨٠٠. وتلقت تعليمها في دير حديث في سانتا كيارا في فينرا. في الثامنة عشرة من عمرها أُجبرت على الزواج من الكونت أليساندرو غويتشيولي الثري ذي اللحية الحمراء القصير البصر والبالغ من العمر ٥٧ سنة.

لم يكن العريس غريباً عن مؤسسة الزواج. كان تزوج أول مرة الكونتيسة بلاتشيدا زيناني التي عوضت فرق السن بينها وبينه بحصولها على بائنة ضخمة. وقد اعتاد أن يحتفظ في بيته بسلسة من الخادمات اللواتي كان يغويهن ثم يسرحهن. ومع واحدة من تلك الخادمات التي تدعى أنجيليكا غالياني، السمراء ذات العينين المفعمتين بالعاطفة، أقام علاقة دامت طويلاً، أثمرت ستة أطفال غير شرعيين. وبعد موت زوجته ـ أو قتْلها بالسم ـ تزوج خليلته. وفي عام ١٨١٧ ماتت خليلته أيضاً. وفي العام التالي تزوج الكونت للمرة الثالثة تيريزا. بعد ذلك علم بايرون أن الكونت هو مؤلف «اغتيالان» ـ جريمة اغتيال دومينيكو مانزوني الملاك الثري، وممثله الذي تصادم معه.

بعد ثلاثة أيام من زواج تيريزا في رافينا قابلت بايرون في منزل الكونتيسة ألبريزي في فينيسيا. كانت مضطربة ومنهكة. ولكن وبعد أقل من سنة شاهدته مرة ثانية في حفلة أقامتها الكونتيسة بنزوني في فينيسيا، وفي ذلك الوقت كانت تيريزا جاهزة. كان زواجها من غويتشيولي فاشلاً إلى أبعد حد. كانت تنام وحدها في غرفة نوم منفصلة، وتخاطب زوجها بـ «سنيور»، وقد أدركت أن ليس ثمة عهود حب تردم الهوة «فارق السن» بينهما. إن طبيعتها الرقيقة والرومانتيكية انتهكت بسبب سلوك زوجها المستبد ونزوعه نحو العنف. كانت جاهزة من أجل «الفارس الخادم» الذي يقبله العرف الاجتماعي، العاشق المحتشم الذي يسهر على خدمتها.

استجاب بايرون لحاجتها. وبالطبع كان مأخوذاً بـ تيريزا: شعرها الأصحر المعقوص، وجهها الجميل، صدرها المثير للشهوة. وكما اعترفت

تيريزا بعد ذلك لزوجها «عندما شعرتُ بأنه منجذب إليَّ بقوة لا تقاوم، وطلب رؤيتي في اليوم التالي على انفراد، وكنت حمقاء بقبولي، لكني قبلت شرط أن يحترم شرفي؛ وقد وعد بذلك، واخترنا ساعة بعد العشاء. في ذلك الوقت ظهر سائق غندول عجوز وقادني إلى غندول كان بايرون ينتظرني فيه، وذهبنا معاً إلى منزل صغير. كنت قوية بما يكفي لأقاوم تلك المواجهة الأولى، لكن قوتي اضمحلت في اليوم التالي ـ ذلك أن بايرون لم يكن ذلك الرجل الذي يقيد عاطفته. ثم بدأت الخطوة الأولى، ولم يكن ثمة عقبة في الأيام التي تلت». وقد احتاج الأمر عشرة أيام قبل أن يكتشف الكونت زنى زوجته.

من فينيسيا كان يمطرها بالرسائل الغرامية. ولم تكن الرسائل وحدها كافية بالنسبة لها. فعلى الرغم من تحذير أخيها من ذلك «الرجل الغريب، المشكوك في سمعته، القرصان» لم تستطع تيريزا تحمُّل فراقه. سقطت مريضة وتوسلت إلى بايرون أن يأتي من رافينا ويلازمها في بيت زوجها. وقد صُدم بايرون بجرأتها. «نسيت المرأة الساحرة أنه كان ينبغي أن تكون أقل ليبرالية في فينيسيا وأقل إلحاحاً في رافينا». ومع ذلك فإن شهوانيتها المحمومة دفعتها إلى الاستغاثة بـ بايرون. فهرع إليها.

انتقل بايرون إلى بالازو غويتشيولي الفسيحة، حيث استلقت تيريزا ضعيفة ينتابها السعال. كتب بايرون «كانت معتلة الصحة، ولكن ليس بصورة كافية لحثها على ضرورة التقشف الغرامي». وقد أكد بايرون ممارستهما الجِماع في رسالة إلى ألكسندر سكوت «أن تيريزا أفضل صحياً ـ وستصبح جيدة مع التعقل ـ علاقتنا الغرامية تمضي بشكل جيد ويومياً».

في رافينا كان دور تيريزا كـ خليلة آمن. وسيدوم خمس سنوات، إلى حين ينهي بايرون رحلته الأخيرة. وبعد أن استعادت تيريزا صحتها راح الاثنان يقومان بنزهات وهما ممتطيان فرسيهما خلال غابة الصنوبر. كان يستمتع بتلك العلاقة ويكرهها. وبعد أسابيع سيكتب بايرون: «من الأفضل أن تكون فلاحاً غبياً، ومستوطناً أخرق، من أن تكون متملقاً عابثاً، وحامل مروحة امرأة. أنا أحب النساء، ولكن طريقتهن هنا تتجلى لي أسوأ مما تبدو... لقد كنت غداراً، زوجاً، واعداً، والآن أنا فارس محتشم، إنه شعور غريب».

في ١٥ أيلول من عام ١٨١٩، وبمباركة المتساهل غويتشيولي، ذهبت تيريزا بصحبة بايرون إلى فينيسيا. زارا أطلال منزل بترارك وتليا سونيتاته ووقعا اسميهما على دفتر الزوار.وزارا أقرباء تيريزا في فيليتو، وراقبا كسوف الشمس من خلال عدسات دخانية، وتدحرجا على العشب، واصطادا السمك بالشباك. كانت إقامتهما في فينيسيا وخارجها هادئة. عندئذٍ حدث تغير في موقف غويتشيولي سببه دون شك رفض بايرون إقراضه ألف جنيه، وإخفاق بايرون في مسعاه لتعيين غويتشيولي في منصب قنصل. كان ثمة مشهد ثلاثي عاطفي. وقد فضلت تيريزا عشيقها على زوجها . وأخيراً طُلب من البابا أن يتدخل. شجع قداسته الحب الحقيقي، ومنح تيريزا انفصالاً قانونياً ونفقة شرعية مقدارها مئتا جنيه سنوياً، ونصحها أن تلزم بيت والدها.

منذ تلك اللحظة لم يفترق العاشقان وعاشا حياة استقرار روتيني مريح، حياة تشبه الحياة الزوجية. ومع أن العلاقة كانت من بعض الوجوه أكثر صعوبة من الزواج. وخلال أيامهما الطويلة معاً أحبت تيريزا مراقبة

بايرون وهو يعمل. وكانت إليجانبه عندما أبدع جزءاً من «دون جوان». وفيما بعد روت ما دار بينهما: «ذات يوم كان قلمه يتحرك بسرعة فائقة على صفحة الورق، قلت له: يعتقد المرء بأن أحداً كان يملي عليك، أجاب بايرون: نعم، إنها روح الشر التي تدفعني أحياناً إلى كتابة ما لم أفكر به، الآن، على سبيل المثال، كنت أكتب لتوي شيئاً ضد الحب! فقلت: لماذا لم تمحه عندئذٍ؟ أجاب بايرون مبتسماً: سوف يفسد المقطع الشعري! وبقي المقطع الشعري على ما كان».

استمتعت تيريزا بصحبة أصدقاء بايرون، خصوصاً شيلي، الذي رأت فيه روحاً أكثر منه رجلاً. وقد سمعت بأنه كان جميلاً في مراهقته، لكنها اعتقدت أن هيئته الآن لا توحي بذلك، فأسنانه السيئة والنمش الغزير على وجهه وشعره الأشعث قد شوّهت خلقته. وكان أيضاً استثنائياً في ملبسه، فقد كان يرتدي عموماً معطف ولد مدرسة دون قفازات، وحذاءً وسخاً. ومع ذلك يبدو وسط آلاف الرجال أنه الأكثر كياسة وصقلاً. كانت تيريزا بنظر شيلي جميلة وعاطفية وبريئة وسطحية. ولكنه سيأسف يوماً على تهورها لأنها استأمنت بايرون على حياتها. عاشت تيريزا بين دراما حلقة بيزا، لكن ظهور تريلوني الذي حذرها بايرون منه، وموت أليغرا ابنة بايرون غير الشرعية، وغرق شيلي الرهيب، دفعت بايرون إلى الإبحار دون رجعة.

عندما أخبرها بايرون برحيله الوشيك إلى اليونان، لم توافق على رحيله وحده، وأصرت على الرحيل معه، أو على الأقل ستذهب إلى جنوا وتنتظره هناك حتى يعود، وإلا فستفقد عقلها. لكن دون جدوى. وعندما أزفت ساعة الرحيل أمضت تيريزا ساعتين وهي تراقبه وهو يرحل في

سفينته الشراعية، وقفت حزينة وبجانبها ماري شيلي، بينما أبحر بايرون إلى اليونان آملاً أن يساعد اليونانيين في معركة الاستقلال عن تركيا. في شهر تشرين من عام ١٨٢٣ كتب لها «كنت أحمق بقدومي إلى هنا، لكن ما دمت هنا ينبغي أن أرى ما الذي يمكن تحقيقه». وفي رسالته الأخيرة لها، المؤرخة في ١٧ آذار عام ١٨٢٤، كتب «أقبل الربيع - رأيت اليوم سنونواً. نحن جميعاً بخير. تمسكي بالأمل وبروحك العالية». وبعد شهر توفي بايرون. جلب لها خبر وفاته ابن حفيد غويتشيولي. كان ذلك في الصباح، وكانت ما تزال في السرير. أشاحت بوجهها لحظة، تلا ذلك صمت، ولا شيء غير الصمت.

عادت تيريزا إلى زوجها وبقيت عنده مدة خمسة أشهر. ولم يقلع العجوز القصير النظر والقاسي عن معاشرة عاهرة فينيسية. وحصلت تيريزا على حكم بابوي يجدد النفقة الشرعية، ثم تخلت عنه نهائياً. وعاشت طوال عام في غمرة علاقة غرامية تعسة مع شاب إنكليزي كان مثل بايرون وسيماً وأعرج. وفي السنوات التي تلت كرست نفسها لتخليد ذكرى بايرون. زارت إنكلترا عدة مرات. وتعاونت مع العديد من كُتاب سيرته، منهم لامارتين، الليدي بليسينغتون، ميدوين، مور. وقفت في مواجهة أولئك الذين انتقصوا من قيمته، أبرزهم ليي هانت الحقود. وعندما ظهر كتاب هانت «لورد بايرون وبعض معاصريه» عام ١٨٢٨ قالت تيريزا «كل شيء في هذا الكتاب ينفث عداءً وافتراءً وأكاذيب». وألفت كتاباً «حياة لورد بايرون» حولت فيه بايرون إلى بيوريتاني، وحولت حبهما إلى مناغاة عاقلة.

في عام ١٨٤٧، وكانت في السابعة والأربعين من عمرها، تزوجت

في باريس مركيز دو بواسي، وهو نبيل ثري كان يفخر بتقديمها بهذا الشكل «زوجتي، مدام لا مركيز دو بواسي ـ سابقاً خليلة لورد بايرون». وقد علقت صورة كبيرة لـ بايرون في غرفة الاستقبال فوق الموقد، وتُريها للزوار هاتفة «ما أشد وسامته! يا للسموات، ما أشد وسامته!».

في عام ١٨٦٦ توفي المركيز. وبعد أن حضرت تيريزا جلسة استحضار الأرواح أعلنت أنها تحدثت مع زوجها ومع بايرون، وكانت سعيدة «لأنهما الآن معاً، يتمتعان بصداقتهما». وقد عاشت تيريزا، التي غدت بدينة شمطاء، طوال السنوات السبع الأخيرة من حياتها في فيلا زوجها قرب فلورنسا. وكان الصندوق الذي يحتوي تذكارات غرامها الملتهب إلى جانبها عندما توفيت. وقد عُثر في الصندوق على خصلة من شعر بايرون، ومنديل كان يحمله، ونسخة من رواية «كورين» التي كتب بايرون على هامشها: إلى «حبي Amor mio».

امرأة شديدة الغلمة

حتى الآن مضى شهر وعشرون يوماً
منذ أن نام معي مَجْول آخر مرة!
ترى ما السبب في ذلك؟
***الليدي إيلينبورو** (وهي في الثالثة والسبعين)*

بدأت الأوديسة الجنسية الخاصة بواحدة من الشبقات الأكثر جاذبية وفتنة في العصر الحديث في ذلك اليوم، من خريف عام ١٨٢٩، عندما فرّت الليدي إيلينبورو، الجميلة البالغة اثنين وعشرين عاماً وزوجة سيد خاتم ملك بريطانيا العظمى، من زوجها الساخط وعائلتها القلقة ومن شائعات الأصدقاء في لندن، ووصلت إلى باريس لتلقى عشيقها النمسوي.

في حين بقيت الليدي إيلينبورو في باريس في عزلة تامة تنتظر ولادة طفل عشيقها، بدأ مجلس اللوردات الإنكليزي مناقشة علنية لا ترحم لفضيحة غدت تدغدغ المجتمع اللندني. ذلك لأن اللورد إيلينبورو قدّم في ٩ آذار من عام ١٨٣٠ لزملائه النبلاء في المجلس مشروع قانون يتضمن «إصدار قانون يفسخ زواج عضو مجلس الملك إدوارد بارون

إيلينبورو من جين إليزابيث إيلينبورو، زوجته الآن، ليتمكن من الزواج ثانية». وقد حظي مشروع القانون بموافقة مجلس النواب ومجلس الملك ومنح اللورد حق الطلاق. وقد أُذيع خبر الحماقة التي ارتكبتها الليدي إيلينبورو علانية، ليس فقط في إنكلترا بل في أنحاء القارة الأوربية.

استمر زواج اللورد إيلينبورو بـ جين إليزابيث ديغبي أربع سنوات. وطوال ذلك الوقت كرس اللورد إيلينبورو، المتغطرس والطموح والذي لا يتمتع بشعبية، معظم طاقاته لسياسات المحافظين. وبتشجيع منه ومن مساعده الشاب شغلت زوجته نفسها بأعمال الطيش. وطبقاً لشهادة إحداهن، لم يكن الزوج والزوجة ينامان معاً فترة طويلة. وعندما ظهر الأمير فيليكس شفارزنبيرغ، الملحق الثقافي في سفارة النمسا، لم يُفاجأ أحد من تورط الليدي إيلينبورو في علاقة حب محرمة معه. الذي فاجأ الجميع هو طيش الليدي إيلينبورو وحماقتها. وطبقاً للشهود الذين ظهروا في مجلس اللوردات وبعد ذلك في مجلس العموم البريطاني فإن الليدي إيلينبورو لم تبذل أي جهد ولو كان يسيراً لإخفاء خيانتها.

في ٦ نيسان من عام ١٨٣٠ طلّق اللورد إيلينبورو زوجته. ولم يبدُ للعيان أنه أصيب بأذى. لكن الليدي إيلينبورو هي التي عانت ذلك مدة طويلة. فقد وسمتها الفضيحةُ، الصليبُ الذي حملته طوال حياتها، بالغنيمة السهلة في السنوات التي تلت. هذا، إضافة إلى جمالها الاستثنائي وطبيعتها المندفعة وتعطشها الدائم للجنس والأمان العاطفي، دفعها إلى سلوك مسلك رومانتيكي نادراً ما كان له نظير في تاريخ النساء المنحرفات. ففي عقودها السبعة حصلت، على الأقل، على أربعة أزواج، وربما تسعة، كل واحد تزوجته في عاصمة من عواصم أوربا أو

الشرق الأوسط. وبالنسبة لعشاقها ثمة دليل وثائقي يشير إلى وجود ١٢ عشيقاً في حياتها على الأقل ـ فرنسي، ألماني، إيطالي، يوناني، عربي ـ والأرجح أنها استمتعت بعدد أكثر من هذا الرقم. ولما كان العديد من عشاقها رجالاً مشهورين وأثرياء وذوي ألقاب، فربما كان بلزاك الروائي الكبير هو الأهم بينهم.

في الوقت الذي طُلّقت فيه الليدي إيلينبورو كانت تعيش مع الأمير شفارزنبيرغ في باريس، مترقبة مولد طفلهما. وقد أملت أن تتزوج الأمير، لكن كان ثمة صعوبات. فأخته المستبدة في فيينا وعائلته الكاثوليكية المتشددة رفضوا زواجه بـ مطلّقة، وأشار مستشاره السياسي إلى أن ذلك الزواج سيؤثر على مستقبله السياسي. وفي حين واصل الأمير نشاطه الديبلوماسي والاجتماعي، كانت الليدي إيلينبورو حبيسة حبلها وفضيحتها. ومن بين الأصدقاء المقربين إليها كان الكونت والكونتيسة دو تورين. ومن خلال الكونتيسة دو تورين تعرفت جين إيلينبورو إلى بلزاك.

بدأت العلاقة بين الأمير والليدي، التي دامت سنة ونصف في لندن، واستمرت سنة ونصف سنة أخرى في باريس، بدأت بالتفكك قبل أن تلد الليدي ابنتهما. كتبت الليدي غرينفيل، زوجة السفير الإنكليزي في باريس، إلى أصدقائها: «مسكينة الليدي إيلينبورو إنها في حالة مخاض، وشفارزنبيرغ يعبث مع المدام أودينارد».

في بداية عام ١٨٣١ ضمن الأمير، ربما بسبب تلميحات الليدي إيلينبورو حول عبثه مع المدام أودينارد، نقله إلى فيينا، ومن ثم إلى برلين. وما لبث أن هجرها كلياً. وقد أشاعت السفارة النمسوية في

باريس، في سعي منها لتحسين سمعته، أن الأمير هجر الليدي بعد أن استُفزّ بما يكفي. وطبقاً لعضو السفارة الكونت رودولف أبوني، فإن شفارزنبيرغ وعمه استمرا في حراسة الليدي إيلينبورو. لكن عمه اكتشف مرة أن الليدي كانت تستقبل في منزلها حارس الملك الخاص السابق. وقد كلمها العم حول ذلك، وأخبرها أنه إذا لم تتوقف حالاً فسيعلم شفارزنبيرغ، فوعدت الليدي بذلك، لكنها لم تف بوعدها. أُخبر شفارزنبيرغ، فقرر مغادرة باريس خلال ٤٨ ساعة. بكت الليدي إيلينبورو، لكنها احتفظت بالحارس. وبما أن السعادة مع هذا النمط لا تدوم طويلاً، فقد جرى استبدال آخر بالحارس، لم يُعرف من هو، لكن من المرجح أن الليدي إيلينبورو أقامت علاقة مع جندي فرنسي.

كانت جين إيلينبورو وحيدة في باريس ومضطربة بسبب الثورة. سواد الناس يسيرون في الشوارع، يقتحمون قصر الأسقف كردة فعل ضد الملك شارل العاشر الذي لا يتمتع بشعبية. إن وضعها وسط الجيشان الوطني، وعزلتها الشخصية، دفعاها للالتفاف نحو أونوريه دو بلزاك.

لم تدم علاقتهما طويلاً ـ ليس أكثر من شهرين ـ لكنها أثمرت واحدة من بنات أفكاره. ففي عام ١٨٣٥ ونتيجة لعلاقته بها خلق شخصية رائعة ـ الليدي أرابيلا دودلي، وهي امرأة إنكليزية جميلة وفضائحية وشديدة الغلمة، في روايته «الزنبقة في الوادي».

من النظرة الأولى، شكل بلزاك والليدي إيلينبورو ثنائياً بعيداً عن التصديق. فقد كانت الليدي طويلة ومهيبة، ذات ثديين مُقْعَدَين(*) وساقين طويلتين نحيلتين. كان شعرها ذهبياً ناعماً، وعيناها زرقاوين

* الثدي المقعد : الناهد لاينكسر .

واسعتين، وبشرتها ناعمة لا تشوبها شائبة. قال عنها الكونت أبوني حين رآها أول مرة «إنها من أكثر النساء اللواتي شاهدتهن جمالاً». وقال الكونت ألكسندر فاليفسكي «إن جمالها سماوي».

من جانب آخر كان بلزاك منفراً من الناحية الجسدية. قصير القامة بديناً لدرجة لا تصدق ـ ولا عجب، فقد التهم مرة خلال وجبة واحدة ١٢ شريحة من لحم الأضلاع وبطة وحجلتين وسمكة ومئة محارة و ١٢ إجاصة إضافة إلى الحلوى. ولم يكن طعامه اليومي أخف من ذلك بكثير. كان شعره أسود وأنفه عريضاً وشفتاه غليظتين. كان مولعاً بالستر الزرقاء ذات الأزرار الذهبية، والسراويل ذات الثنيات والأحذية اللماعة، ويحمل عصا مرصعة بمسامير فيروزية.

ولكن كان لديهما الكثير من الأمور المشتركة. فكلاهما كان عاطفياً وانفعالياً ومتهوراً. حين كانت جين إيلينبورو طفلة تنقلت مع فرقة موسيقية من الغجر، وبعد ذلك حاولت الفرار مع سائس خيل والدها. وحين كانت زوجة شابة أقامت علاقة غرامية مع قَيِّم مكتبة جدها ومع ابن عمها ومع الأمير شفارزنبيرغ، كل ذلك قبل أن تبلغ الحادية والعشرين من عمرها. وكانت علاقات بلزاك الرومانتيكية، على قلّتها، متهورة أيضاً. فقد اتخذ عدة خليلات بينهنَّ المدام دو بيرني التي كانت تكبره بـ عشرين عاماً وأماً لـ تسعة أطفال. والكونتيسة إيفلين هانسكا التي كانت تقطن في ضيعة بأوكرانيا، مساحتها ٥٠ ألف آكر، مع عائلتها الكبيرة، والتي أنجبت من بلزاك طفلاً ميتاً.

في حين عاشت الليدي إيلينبورو مغامراتها في الواقع، صَعَد بلزاك رغبته بالمغامرة في عمله الإبداعي. فقد توقف عن ممارسة القانون ليتفرغ

لكتابة الأعمال التاريخية التي كان ينجزها بسرعة خارقة في علية في باريس، وقد نشر العديد منها تحت اسم مستعار. وفي السنة التي قابل فيها الليدي إيلينبورو طرح روايته الأولى من سلسلة الروايات التي أطلق عليها عنوان «الكوميديا الإنسانية».

كان بلزاك يعيش حياة تقشف أثناء عمله. كان يكتب يومياً، دون توقف، من ١٢ ساعة إلى عشرين ساعة، ويعيش في روايته حياة مختلفة تماماً عن حياته في الواقع. كانت شخصياته الأدبية بالنسبة إليه حقيقية كأصدقائه ـ جورج صاند، فيكتور هوغو، ألكسندر دوماس ـ أو خليلاته. ويقال إنه حين كان على فراش الموت صرخ قائلاً «أرسلوا من يجلب الدكتور بيانشون ـ فهو يستطيع إنقاذي»، وبيانشون شخصية ابتكرها بلزاك في «الكوميديا الإنسانية».

إن هذا الانغماس الكلي في عمله يفسر غرامه الذي لم يدم طويلاً بـ الليدي إيلينبورو. ولا شك أنها أمتعته خلال الأشهر القليلة، فقد كانت ذكية وجذابة وسريعة البديهة. ومن الواضح أنها كانت شغوفة به لدرجة شجعته على إبداع البطلة الأكثر شهوانية في «الكوميديا الإنسانية».

ومع ذلك فإنه من المرجح أن بلزاك لم يسعدها تماماً. فقد انشغلت خلال سنواتها الخمسين الأولى بالبحث عن هدوء العقل والجسد. كانت تتطلب رجلاً يستطيع أن يمدها طوال الوقت بالطمأنينة العاطفية، وهذا ما لم يكن بلزاك قادراً عليه إذ لم يكن لديه سوى اليسير من الوقت ينفقه خارج دائرة الكتابة. كانت الليدي إيلينبورو بحاجة إلى أيام من العاطفة. وكان لدى بلزاك ساعات فقط ليعطيها. علاوة على ذلك أرادت أن تهرب من ذكريات باريس الأليمة وأن تنسى قُرب لندن. كانت قلقة تتوق إلى حياة أكثر نضارة وحيوية.

في ربيع عـام ١٨٣١ انتقلت إلى ميـونيخ لتغـدو هناك خليـلة ملك بافاريا لودفيغ الأول، ولتمـوّه عـلاقتـها الملكيـة هذه بزواجها من مـوظف القصر الثري البارون كارل فيننغن. وفي السنة الثالثة من زواجها الثاني استقر وضعها بوصفها البارونة فيننغن، التي قرر بلزاك في النهاية أن يضعها في المجلد الثاني من «كوميدياه الإنسانية».

كُرست المجلدات الـ ١٢ من سلسلة الروايات لـ «الحيـاة الريفيـة»، وكانت الثالثة في هذه المجموعـة هي «الزنبـقة في الوادي» أو «زنبـقة الوادي». تخـيل بلزاك الرواية وبدأ الكتـابة في بداية عـام ١٨٣٥ حين كـان في فندق في فيـينا. وعلى الرغم من أنه كـان يزور خليلتـه الثـرية وزوجة المستـقبل إيفيلين هانسكا وزوجها، فـإنه واظب على العـمل في الرواية.

كـتب بلزاك الفـصل الأول في فـيينا حيث قـصَّر انشـغـاله بـ المدام هانسكا برنامج عـمله إلى ١٢ سـاعـة يومـيـاً. وأرسل الفـصل إلى ف. بولوز لنشره على حلقات في ريفيو دو باريس، وكرس وقتاً أطول لـ المدام هانسـكا، وأخيـراً عـاد مـسـرعـاً إلى فـرنسـا وإلى الكتـاب. وقـد قـال لـ المدموزيل زولما كـورول «عـملت ليل نـهار في باريس، وكنت أنام ساعـتين في الـ ٢٤ سـاعـة». كـان بلزاك يبـدأ كـدحـه بدءاً من الثـانيـة صبـاحـاً، ويكتب على طاولة تضيئها شموع خضراء، مستـهلكاً كميـات كبيرة من القهوة ـ يقال إنه مات بتأثير خمسين ألف فنجان قهوة.

في تموز من عام ١٨٣٥ أنهى بلزاك رواية «زنبـقة الوادي». ونشرت معظم حلقاتها في مـجلة (ريفيـو دو باريس)، ولكن عندما نشب خلاف بينه وبين أصـحـاب المجلة رفض إعطاءهم الفـصـل الأخـيـر من الرواية.

فأقيمت دعوى قضائية بين الطرفين ربحها بلزاك، ونشر ما تبقى من الرواية في مجلة دورية أخرى.

شكلت «زنبقة الوادي» بالنسبة لبلزاك تحولاً في كتابته السابقة. ففي حين كان متنها حافلاً بالملاحظات اللاذعة وبالتفاصيل الموسوعية والأسلوب الجاف لكن الشعري، تجنبت العبارات السوقية والواقعية الساخرة وحسية أعماله الأخرى. واختلف النقاد حولها وما زالوا مختلفين إلى هذا اليوم. إذا قال الناقد جورج سانتبوري عنها بأنها «عذوبة مريضة». في حين وجدها بيتر كوينيل «استثنائية في طزاجتها ووضوحها ولمعانها»، وأثنى على صنعتها الأنيقة.

كان بلزاك سيئ السمعة طوال حياته بسبب استعارته من الحياة الواقعية شخصيات يستخدمها في رواياته. وقد اعترف صراحة لـ المدام هانسكا بعدما كتب «بياتريكس» بأنه استخدم ماري داغو(*) وجورج صاند(**) نماذج أدبية. ومع ذلك أكد في الوقت نفسه لـ جورج صاند أن الشخصيات كانت خيالية تماماً.

ومع ذلك كانت رواية «زنبقة الوادي» مليئة بالتصوير الواقعي. ومن بين أكثر الشخصيات واقعية في الرواية كانت بطلتها الخليلة الأنيقة الليدي أرابيلا دودلي، التي هي في الواقع جين إيلينبورو. وإن معظم معاصري بلزاك فهموا أن الليدي دودلي تمثل الليدي إيلينبورو. ومن الواضح أن بلزاك استمد الكثير من شخصية جين وخلفيتها. ففي الرواية تهجر الليدي دودلي طفليها للسعي وراء متع الحياة في باريس؛

---

* ماري دو فلافيني وكونتيسة داغو (١٨٠٥ـ ١٨٧٦) ألمانية الأصل. نشرت باسم مستعار، هو دانيل شترن، أعمالاً تاريخية وفلسفية. المترجم.

**جورج صاند، الاسم المستعار للروائية الفرنسية اورور دو ديفان. المترجم.

تترك الليدي إيلينبورو وراءها طفلاً مدة عام ونصف حين تذهب إلى باريس. وفي الرواية، تمتطي الليدي دودلي حصاناً عربياً للقاءات عشيقها الفرنسي المسائية؛ تمتطي الليدي إيلينبورو جواداً عربياً للقاءاتها السرية مع عشيقها اليوناني.

وفي الرواية كان زوج الليدي دودلي واحداً من أبرز رجالات الدولة الإنكليزية، صلباً ومغروراً وبارداً وساخراً؛ كان زوج الليدي إيلينبورو مزهواً بنفسه ومحباً للتسود ومسرف الثقة بنفسه. في الرواية يشتق بلزاك اسم الليدي دودلي من اسم ابن الليدي إيلينبورو آرثر دودلي. وراوي القصة فيليكس اشتُقَّ من اسم الأمير فيليكس شفارزنبيرغ وهو واحد من عشاق الليدي إيلينبورو المبكرين.

ولدت الليدي أرابيلا دودلي الحقيقية في إنكلترا في الثالث من نيسان عام ١٨٠٧، وعُمِّدت باسم جين إيليزابيث. كان والدها السير هنري ديغبي أدميرالاً حقق ثروة طائلة من الاستيلاء على السفن الإسبانية. وشهرة عريضة بسبب قتاله تحت إمرة نيلسون في الطرف الأغر. وكانت والدتها جين كوك الجذابة ابنة كوك هوكهام الشهير. وقد تزوجت أولاً الـ فيسكونت أندوفر، لكنه توفي مبكراً دون وريث شرعي، وبعد ست سنوات من الترمل تزوجت الأدميرال ديغبي، ومع ذلك أصرت حتى أيامها الأخيرة على استخدام لقب ليدي أندوفر.

كانت جين الطفل الأول لـ الليدي أندوفر من زوجها الثاني. وكان ثمة شقيقان لها حين كانت في الرابعة، لكن ظهورها اللافت جعلها المفضلة في العائلة. وعند بلوغها الثالثة عشرة كان جمالها محط الأنظار. هذا الجمال شجع والدتها لدفعها إلى الظهور المبكر في المجتمع

الراقي في لندن. وكانت العائلة أقامت في شارع هارلي ٧٨. وحين ظهرت أول مرة في حفلة، وكانت في السادسة عشرة، التقت إدوارد لو لورد إيلينبورو. وكان اللورد إيلينبورو ابن رئيس القضاة مكروهاً في إنكلترا. درس في إيتون وكامبريدج، وأصبح عضواً في البرلمان يمثل حزب المحافظين عن سانت مايكل. وقد لمع نجمه حين تزوج الليدي كاثرين أوكتافيا ستيوارت، شقيقة اللورد كاسيلري القوي والمكروه. ولما مات اللورد كاسيلري، مضطهد الجماهير الإنكليزية، منتحراً بمطواة، رشقت الحشود اللندنية نعشه بالحجارة عند مروره باتجاه ويستمينسترآبي. كذلك فإن شخصية اللورد إيلينبورو خلقت له أعداء لا يحصى عددهم. كان أنانياً ومغروراً وطموحاً، وفي الوقت نفسه رجل سياسة محنكاً لا ينكر.

عندما التقى جين ديغبي كان أرمل، فقد توفيت زوجته كاثرين أوكتافيا إيلينبورو عام ١٨١٩ وهي في السادسة والعشرين. وعلى الرغم من مظهره المنفر ـ كان ثقيل الظل ومترهلاً يبدو أكبر من عمره الحقيقي ـ ما زال لديه سمعة الرجل المتهتك الفاسق. كان ثرياً، يملك أراضيَ وأطياناً في هيرتفوردشير، ودخلاً سنوياً يبلغ عشرة آلاف جنيه. وكان لديه إحساس بأنه سيحرز مكانة عالية في الحكومة.

وقع في غرام جين من أول نظرة. كانت في عينيه جذابة من شتى الوجوه. انحدرت من عائلة جيدة، وهي في ريعان الصبا، والأجمل ظهوراً. وفوق ذلك قد تنجب له وريثاً. وبعد عدة شهور من المعرفة الشخصية اقترح عليها الزواج. بالنسبة إلى جين كان إلى حد ما يفتقر إلى الجاذبية. كانت تريد رجلاً كـ بايرون، وجاءها في الواقع رجل أعمال.

وكانت تريد عاشقاً شاباً مستهتراً، وجاءها رجل سياسة متجهم يكبرها بـ ١٧ سنة. لكن والدي جين نظرا إليه كصيد مثالي. إذ سيوفر لها مركزه الرفاهية والمنزلة الاجتماعية، وسيكبح نضجه اندفاعاتها الرومانتيكية الطفولية. رُتب الزواج بسرعة. وشك أصدقاء العائلة. فقد شعروا أن جين ما زالت صغيرة تفتقر إلى التجربة، و إيلينبورو كان كبير السن. وقد جرت مراسم الزواج في أيلول عام ١٨٢٤ في منزل الأدميرال ديغبي في لندن. ثم رحل الزوجان إلى برايتون لقضاء شهر عسلهما. كان شهر العسل، كما ظهر فيما بعد، فاشلاً إلى أبعد الحدود. ولا نعرف ما إذا كان سبب ذلك يعود إلى نفاد صبر إيلينبورو إزاء زوجته الشابة القليلة التجربة. ولكن من المعروف أنه في الأيام الأولى لزواجه، فضل ابنة صانعة الفطائر في برايتون على عروسه. ولدى عودة الاثنين إلى لندن غرق إيلينبورو في أمور السياسة، وكان لديه وقت ضئيل يقضيه مع شريكته. ويبدو أنه كان يرغب في تركها وشأنها.

سرعان ما دخلت جين إيلينبورو، وقد أربكها وأفزعها موقف زوجها إزاء زواجهما، في دوامة جمعية لندن العالمية التي كانت تحت هيمنة الأميرة استرهازي زوجة السفير النمسوي. وفي حفلات الرقص الأسبوعية لفت جمال جين الأخاذ أنظار مجموعة من الديبلوماسيين البولنديين الشباب. وطوال سنتين لم تضعف جين إزاء الإغواء وعندما ضعفت أخيراً، لم يكن ذلك أمام ديبلوماسي أجنبي، بل مع قيم مكتبة إنكليزي واسع المعرفة.

في آذار عام ١٨٢٧ استدعي موظف المتحف البريطاني السير فريدريك مادن، البالغ من العمر ٢٧ عاماً، لتصنيف المكتبة اليونانية

الواسعة التابعة للمصلح الزراعي الإنكليزي كوك هولكهام Coke of Holkham. وبعد وصوله بمدة قصيرة دوّن في مفكرته قدوم حفيدة كوك: «وصلت الليدي إيلينبورو، ابنة الليدي أندوفر، للعشاء وستبقى مدة أسبوعين. إنها لم تبلغ بعد العشرين. وهي واحدة من أجمل النساء اللواتي شاهدتهن، شقراء ذات عينين زرقاوين وشفتين تدفعان المرء إلى نبذ السماء لقاء لمسهما». بعد عشرة أيام نبذ مادن السماء. كان ثمة لعبة ورق، بعدها كتب مادن: «تخلفت الليدي إيلينبورو عن المجموعة، وفي منتصف الليل رافقتها إلى غرفتها... كنت أحمق إلى حد بعيد لن أضيف ما حدث... يا ألله، هل كان ثمة مثل هذا الحظ!».

إن كانت جين قد تحسرت على فترة الاستراحة، فقد كان ذلك مدة قصيرة فقط، إذ سرعان ما انشغلت مع ابن خالها الشاب الكولونيل جورج أنسون، وغدت علاقتهما حديث مايفير. أثناء ذلك بات اللورد إيلينبورو يتشوق لرؤية وريث. وفي شباط عام ١٨٢٨ ولدت له جين صبياً، آرثر دودلي، لكنه مات بعد سنتين عندما كانت في باريس. وقد كف لورد إيلينبورو عن مشاركة زوجته الفراش بعد ولادة الطفل. وكان ذلك عديم الأهمية بالنسبة لـ جين، فقد سبق أن قابلت الأمير فيليكس شفارزنبيرغ.

كان الأمير شفارزنبيرغ في الثامنة والعشرين من عمره عندما ترك مهمته الديبلوماسية في البرازيل وأبحر إلى فيلماوث، إنكلترا، ليعمل ملحقاً ثقافياً لدى الأمير إسترهازي سفير النمسا في بريطانيا العظمى. كان شفارزنبيرغ وسيماً، طويلاً ونحيلاً وقوياً ذا وجه خشِب وعينين ذكيتين وأنف طويل مستقيم وشاربين كثين. وأكد كاتب سيرته أنه

امتلك قـدرات روحيـة كـبيـرة: «إن قـوتـه المفـرطة يوضـحـهـا تأثيـره المغناطيـسي عـلى النسـاء - ليس بالمعنى الرومـانتيـكي والمجـازي، بل بالمعنى الواقـعي والـطبي. ويُعـتـقـد أن أختـه كـانت تزوره وتلمس يده لتكسب مزيداً من القوة».

بعد وصوله إلى إنكلترا بوقت قصير رأى الليدي إيلينبورو. تقابلا ورقصـا، وكـان شغـفـهـمـا فـورياً ومـتبـادلاً. وخلال عـدة أسابيع أصبـحـا عـاشقين. في البـدء كـانت جين حـذرة، لكن سـرعـان مـا تلاشى حذرها. وحسب ما نقله إدموند أبوت: «صعدت في صباح أحد الأيام إلى السطح وصرخت بوضوح (أنا خليلة الأمير شفارزنبيرغ)».

سكن الأمـيـر مع كـونـت من السـفـارة في شـارع هارلي بالقـرب من منزل ديغبي. وقـد اعـتـادت جين زيارة شارع هارلي أصيل كـل يوم تقريباً، عندمـا يكون الكونت خـارج المنزل والأمـيـر داخله. وغـالبـاً مـا كـانت تركن عربتها الخضراء مع سائسها في زاوية وتسير باتجاه مسكن الأمير، الذي كان ينتظرها دائماً بفارغ الصبر.

وسرعـان مـا أصـبـحت الأصـائل غـيـر كـافـيـة، فبدأ الاثنان يلتقيـان مسـاءً. وطوال عـام ١٨٢٨ تابعت جين حـضـور الحـفـلات الراقـصـة دون مرافقة ليرافقها بعد ذلك الأمير شفارزنبيرغ.

في شـبـاط من عـام ١٨٢٩ طلبت جين من زوجـهـا السـمـاح لهـا بالذهاب مع ابنها إلى برايتون طلباً لهواء البحر، فوافق. حينها كان أكثر انشغـالاً من قبل، فقد عـيَّنه رئيس الوزراء الجديد الدوق ويلينغتـون حامل ختم الملك. وعـندمـا سـافـرت زوجـتـه وابنهـا إلى برايتـون كـان مشـغـولاً بمناقشة جرت في مجلس العموم وباجتماع مع رئيس الوزراء. في برايتون

اتخذت جين جناحاً في فندق نورفولك حيث سبق أن قضت شهر العسل مع اللورد إيلينبورو. وبعد وقت قصير وصل الأمير شفارزنبيرغ إلى الفندق في عربة صفراء. استدعى الخادم وليام والتون وسأله عما إذا حضر نزلاء آخرون، أجابه الخادم بأن ثمة نزيلاً واحداً فقد، الليدي إيلينبورو. عندها طلب من الخادم تسليمها بطاقته. ولما حاول الخادم قراءتها وجدها مكتوبة بلغة أجنبية.

في منتصف الليل خرج الأمير من جناحه وتحرك باتجاه جناح الليدي إيلينبورو ودخله. ولسوء الحظ شاهده البواب الليلي الذي ظل مستيقظاً ليدخل عائلة ذهبت إلى المسرح. وفي الساعة الثالثة صباحاً غادر الأمير جناح جين متجهاً إلى جناحه.

بعد ثلاثة أشهر أصبح من الواضح أن الليدي إيلينبورو في طور متقدم من أطوار الحمل. ونظراً لأن زوجها لم ينم معها منذ أكثر من عام، فقد أصبح وضعها محرجاً. كانت بحاجة إلى من تتحدث معه حول ورطتها، فلم تجد سوى مرافقتها مارغريت ستيل لتقول لها «الله وحده يعلم ماذا سيحل بي، فالطفل الذي سألده قريباً هو طفل الأمير شفارزنبيرغ».

كانت الفضيحة قد انتشرت بعيداً جداً إلى حد وصلت إلى أذني عم اللورد إيلينبورو أسقف باث ويلز الذي حاول من قبل تحذير اللورد إيلينبورو. ولا يُعرف ما إذا كان هذا التحذير قد أثر أم لا. وفي الوقت نفسه حاولت جين أن تكشف لزوجها الحقيقة. ففي مساء ٢٢ أيار عام ١٨٢٩ كشفت لزوجها عواقب حبها للأمير. ومع ذلك لم تكن الصدمة كافية لتمنع اللورد إيلينبورو عن أداء واجباته في تلك الليلة.

وطوال الأسابيع التي تلت حاول البعض حث الخصمين على اختيار أحد أمرين: اللجوء إلى مبارزة أو إلى دعوى قضائية. أما جين التي ارتدت إلى أمها فقد شغلت نفسها بحزم أمتعتها وبتجهيز رسالة وداع إلى زوجها.

«وبالكاد أعرف ماذا أكتب أو كيف أكتب لك. لا أجرؤ على استخدام لغة العاطفة، لأنك ستظن أن ذلك رياء. ولكن على الرغم من أن عائلتي ترغب في عودة الأمور بيننا إلى ما كانت عليه في السابق، فإن مشاعر الاحترام التي مازلت أكنها لك تجعلني أذعن لقرارك. ليباركك الله عزيزي إدوارد».

جين

بالطبع كان قرار إدوارد هو الطلاق.

في حين ذهبت جين إلى باريس للقاء شفارزنبيرغ، بقي اللورد إيلينبورو في لندن لمواجهة سوء السمعة التي رافقت المناقشة التي جرت في البرلمان حول حياته الخاصة. وقد افتتح مستشار إيلينبورو القانوني المناقشة بدعوى قضائية عارضاً بإيجاز آثام جين. بعد ذلك عُرض أمام مجلس اللوردات ومجلس العموم ملف الشهود الضخم ـ سُواس، خدم، خادمات ـ ليصف بدقة مدى العار الذي لحق بالسيدة الإنكليزية الكريمة المحتد. وقد ذكر حفنة من أصدقاء إيلينبورو عن مزاياه الصالحة. وذكر السير هنري هاردينغ أن إيلينبورو كان زوجاً ملتزماً كثير الاهتمام بزوجته، ثم قرأ بصوت عالٍ محتويات رسالة من والدة جين تؤكد فيها امتنانها لـ صهرها لحسن معاملته لابنتها.

لكن اللورد إيلينبورو لم ينجُ من اللوم، فقد أُنب في المجلسين بسبب

إهماله لزوجته الشابة واستخفافه بها. وأشار اللورد راندور إلى أن إيلينبورو كان يدع زوجته تنام وحدها في السرير كل ليلة. وبعد أن مُنح إيلينبورو حق الطلاق، لم يعد يذكر اسم جين أبداً. ولم يتزوج امرأة أخرى. وبدلاً من ذلك بنى نصباً تذكارياً لزوجته الأولى، وعاش وحيداً حتى وفاته عام ١٨٧١.

وبالنسبة لـ جين فقد كانت عودتها للأمير شفارزنبيرغ في باريس غير سعيدة. وبعد أن أنجبت ابنتهما، غدت طفلة الحب هذه رمزاً لحماقتهما. وعندما تركها الأمير سمحت له بالاحتفاظ بالطفلة ليربيها حسبما يشاء. ولم تر جين ابنتها وشفارزنبيرغ مرة ثانية إلا بعد أكثر من عشرين عاماً. في ذلك الوقت كانت جين زوجة رجل يوناني وأماً لولد كانت تعبده. أما شفارزنبيرغ، الذي ظل أعزب، فقد أصبح لواءً في الجيش النمسوي، وانتدب للعمل في بلاط ملك نابولي. وقد أتى من تورين إلى نابولي ومعه ابنة جين وشقيقته. ووصلت جين إلى نابولي مع ابنها، والتقت شفارزنبيرغ. ولم يُعرف ما جرى بينهما. وقد أكدت إيزابيل بورتون، زوجة مترجم ألف ليلة وليلة، أن جين ظلت تحب شفارزنبيرغ إلى يوم وفاتها.

بعد خصامه مع جين في باريس، ذهب شفارزنبيرغ إلى ألمانيا حيث قضى ست سنوات، ثم إلى إيطاليا حيث قضى عشرة أعوام قبل أن يصبح رئيس وزراء النمسا. أما جين فعلى الرغم من أنها تُركت وحيدة في باريس بعد انفصالهما، كان وضعها المالي مريحاً. فقد خصص لها اللورد إيلينبورو مبلغ ثلاثة آلاف جنيهاً سنوياً، إضافة إلى دخل آخر. وقد خلدتها العلاقة التي أقامتها مع بلزاك على صفحات «الكوميديا

الإنسـانيـة». وإلى جانب كـتـاب بلزاك، ثمـة ثلاث كـاتبـات إنكليـزيات استخدمن شخصيـة جين في رواياتهن. ففي عـام ١٨٢٦ نشرت ماريان ستـانهوب ثلاثيـة روائيـة حول مـجتـمع لندن (Almack's) كـانت بطلتـهـا مسـتوحاة من شخصيـة جين. وفي عـام ١٨٣٠ أصدرت الليدي شـارلوت بوري، التي ترملت مـرتين، وعـملت مـدة تسع سنوات وصـيـفـة للملكة كارولين، (The Exclusives)، صـورت فيـهـا علاقـة جين بالكولونيـل جورج أنسـون. لكنهـا دافـعت عن جين ـ أو الليـدي غلينمـور كـمـا دُعـيت في الرواية ـ لأنها قُذفت وحيدة وسط الطبقة الأكثر خطورة في المجتمع. وفي عـام ١٨٣٥، قبل ظهور رواية بلزاك «زنبقة الوادي»، صلبت مـارغـريت بليـسنغـتون جين في الـصديقـان (Two Friends) التي كـانت الأكثـر مبيعـاً في تلك الفـتـرة. في هذا الكتـاب صُورت جين ـ أو الليـدي والمر كـمـا دُعـيت في الرواية ـ امرأةً فـاسـدة ولا أخلاقـيـة خـانت زوجهـا مع شـاب إنكليـزي ثم مع نبـيل إيطالي. وقـد كـتب إدوارد بولوار ـ لايتـون الذي سـاعـد في نشر الكتـاب: «كـان تصـوير الليـدي والمر قـاسـيـاً جـداً، لكنه تصوير حقيقي جداً».

بالطبع، كـانت الليـدي بليـسـينغـتـون آخـر شـخص على وجـه الأرض يحق لـه النظر بازدراء إلى أي كـان. فـبـعـد زواجهـا البـائس من إيرلندي سادي، أقامت عـلاقة جنسية مع ملازم في الجيش الإنكليـزي. وبعد موت زوجها الثاني إيرل بليسينغتون أقامت علاقة غراميـة مع زوج ابنة زوجها الكونت الفرنسي الضعيف والفاتن دورسيه.

في بداية صيف عام ١٨٣١ قررت جين مغادرة باريس والذهاب إلى مـيـونيـخ التي كـان يحـكمـهـا آنذاك ملك بـافـاريا لودفـيغ الأول الغـريب الأطوار المحب للشعر والجمال.

كان الملك لودفيغ رجلاً غير عادي. ففي سن مبكرة أُغرم بآثار اليونان وإيطاليا القديمة، وقرر تركيبها في ميونيخ. كان شديد البخل في شؤونه الخاصة ـ كان يرتدي الألبسة المهترئة، ويطعم أطفاله الخبز الأسود ليدخر المال، ويمنع خدمه من أكل البصل لأنه غالي الثمن، ولا يمنح خليلاته سوى القصائد الشعرية ـ ومع ذلك أنفق ثروة طائلة على القصور والكنائس والمتاحف والمعابد الهيلينية وعلى أعمال التنقيب عن الآثار في اليونان وروما. كان مهووساً بالجمال ـ في العمارة والنساء. ومع أنه تزوج تيريزا ساكس ـ هيلبورغهاوسن، وهي سيدة جذابة ولدت له سبعة أطفال ولم تسبب له أية لحظة هم، كان يغير خليلاته أكثر مما كان يغير ملابسه الداخلية. وكان عدلاً أن تتسبب امرأة جميلة في سقوطه.

حين كان لودفيغ في الستين من عمره، تلقى التماساً من راقصة وصلت ميونيخ حديثاً تطلب فيه السماح لها بالرقص في المسرح الملكي، وعندما رفض التماسها، شقت طريقها إلى مكتبه، ثم كشفت عن صدرها عارضة ثدييها لناظريه. وفي الحال، لم يجز لها الملك الظهور في المسرح الملكي فقط بل اتخذها خليلة. كانت هذه الراقصة، لولا مونتيز، قد ولدت في إيرلندا وتعمدت باسم ماري جيلبيرت، وقد اكتسبت بعض المهارة في الرقص الإسباني. لكن آراءها الإلحادية وتدخلها في سياسات بافاريا، أثارا اهتياج الجزويتيين المحليين الذين أثاروا شغباً ضد الملك ولولا مونتيز. وذات مرة تجمع رعاع الطلبة خارج منزلها لمضايقتها، فوقفت لولا على الشرفة وسكبت الشمبانيا على رؤوسهم. وفي النهاية أجبرت لولا على الفرار من ميونيخ واتجهت إلى سويسرا، وأُجبر الملك على التخلي عن العرش، وتوفي في نيس، وتوفيت لولا مونتيز في بروكلين.

ولكن قبل لولا بـ ١٥ سنة كانت جين إيلينبورو التي شاطرت الملك السرير. فعندما سمع لودفيغ عن جمال الليدي إيلينبورو خطط لمقابلتها. وفي لحظة حضورها أوعز إلى رسام القصر كارل شتايلر ليحفظ ملامحها الكلاسيكية في «صالة الجمال». في هذه الصالة علقت لوحات لجميع النساء الجميلات اللواتي أحبهن الملك أو اللواتي اشتهاهن. كان ثمة ٣٦ رسماً لنساء شابات نضرات، بينهن ابنة الجزار الملكي، والأرشديوقة صوفي وجين إيلينبورو. وكان الملك يتجول في الصالة عدة مرات في الأسبوع متأملاً الجمال وباحثاً عن الإلهام.

تطورت العلاقة بين جين والملك لودفيغ على نحو مرضٍ. كان ذكياً ومتعلماً وودوداً وساذجاً. كان يدعوها إيانت وكانت تدعوه بازيلي، وكلا الاسمين يونانيان. وبفضل لودفيغ استعادت ثقتها بنفسها وشعوراً بالسلام، وولُد لديها اهتمام بالرسم وبالتاريخ القديم. وأخيراً غدت علاقتهما معروفة من الجميع ومقبولة.

وبعد أكثر من عام بقليل تزوجت ليدي إيلينبورو فجأة البارون كارل فيننغين الموظف في البلاط. وبعد زواجها هذا بستة أسابيع ولدت طفلاً يُعتقد بأنه ابن الملك الذي أجبرها على الزواج تجنباً للفضيحة. ومع أن عائلة البارون الكاثوليكية حاولت منع زواجه من جين إلا أنه تزوجها في إيطاليا في شهر تشرين الثاني عام ١٨٣٢, ومن المرجح أن جين استمرت في علاقتها بالملك الذي كان في إيطاليا في ذلك الوقت. لكن سرعان ما عاد الملك إلى صالة الجمال للتأمل.

ظلت جين مخلصة للبارون فيننغين طوال ثلاث سنوات. وقد قضيا وقتهما بين ميونيخ وبادن، وقاما برحلات إلى صقلية. وكان ثمة سبب

واحد لخلافهما الدائم. كان فيننغين يود أن تصبح زوجته سيدة منزل ألمانية نموذجية. لقد أنجبت له طفلين، لكنه أراد المزيد. وهذا ما أرعب جين التي لم تكن على استعداد لتحمل الحبل الدائم. كانت تحلم بوجوه جديدة وبمغامرات جديدة وبأمكنة جديدة. وكانت جين حتى ذلك الوقت تكن لزوجها العاطفة والود، وكان يمكن لزواجهما أن يستمر أكثر لولا ظهور الكونت سبيريدون ثيوتوكي في المشهد.

اعتقدت بعض العائلات اليونانية القديمة أن من الحكمة إرسال أولادها إلى ميونيخ ليتلقوا التعليم فيها. وكان الكونت سبيريدون ثيوتوكي من بين اليونانيين الأوائل الذين قدموا إلى ميونيخ. كان طويلاً ونحيلاً ذا شعر أسود وشاربين معقوفين وملامح جميلة. لم يكن يمتلك الكثير من المال، لكنة كان فاتناً ومبهجاً.

التقت جين بـ ثيوتوكي في حفلة رقص ملكية أقامها الملك لودفيغ على شرف عاهل بروسيا. وقبل أن تنتهي الحفلة كانت جين تنادي صديقها الجديد بـ سبيرو، وعندما انتهت الحفلة غادرا معاً. كان حب أحدهما للآخر تلقائياً وفورياً. لقد أُخذت جين ليس فقط بجماله الجسدي بل برومانتيكيته التي تعود إلى موطنه كورفو. وقد توسل إليها أن تفر معه، إذ بإمكانها الحصول على الطلاق بسهولة في اليونان، بعد ذلك يتزوجها.

وأثناء مرافقتها زوجها في رحلة إلى بادن كان التردد يمزقها. وقد لحق بها الكونت ثيوتوكي بتهور وعلى نحو أعمى، واستأجر شقة في هايدلبرغ. وفي بادن عرضت جين نفسها للمخاطر. فعندما ينام زوجها كانت تنسل خارجة من المنزل في وقت متأخر من الليل، وتمتطي حصانها

العربي لملاقاة الكونت. وفي إحدى الليالي، حين كان زوجها في رحلة عمل قصيرة، ذهبت جين إلى حفلة رقص يحضرها ثيوتوكي. وغادرا معاً في عربة. وحين عاد البارون فيننغين من رحلته في وقت أبكر مما كان يُتوقع لمح عربتهما. كان قد سمع بعض الشائعات حول علاقة زوجته باليوناني، لكنه حاول التشكيك فيها. والآن وقد شاهدهما معاً ثبتت ظنونه. أمر حوذيه بمطاردتهما. أدركت جين وثيوتوكي أن أمرهما قد اكتشف، ففرا إلى الحدود الفرنسية، لكن حرس الحدود أعاقهما، وتمكن فيننغين من إدراكهما.

كان من الطبيعي تماماً أن يشعر فيننغين وخز الإهانة. نُظمت مبارزة مرتجلة بالمسدسات في منطقة مشجرة جانب الطريق العام، ولعب الحوذيان دور شاهدي المبارزة. ذرع المتخاصمان المسافة المتفق عليها، ثم واجه أحدهما الآخر، وبدأ البارون الأكثر خبرة في إطلاق النار. أصابت الرصاصة مكاناً فوق قلب ثوتوكي وخر على العشب. ألقت جين نفسها بهيستيرية فوق جسده. استدعي طبيب الحدود الذي ضمد الجرح المميت. وطبقاً لـ الكونت أبوني «أوضح ثيوتوكي للزوج أنه بريء وأنه ضحية افتراءات كاذبة، وأصر على أن ما بينه وبين الكونتيسة لا يتعدى الصداقة المخلصة. ثم صافح يد رفيقه وأغلق عينيه. لكن لحسن الحظ لم يغلقهما إلى الأبد».

نقل ثيوتوكي إلى بيرغ وهو في حالة ضعف شديد. وخلال أسابيع تعافى. وانتشرت قصة الثلاثي ـ الزوج والزوجة والعشيق ـ في بافاريا كلها. وطلبت جين من فيننغين أن يمنحها حريتها، فمنحها إياها بتهذيب. وشهد جين وثيوتوكي يغادران إلى باريس. وقد ظل البارون فيننغين،

حتى موته إثر نوبة قلبية في ميونيخ، يراسل جين على نحو مستمر. كان يكتب إليها في الأغلب حول ابنهما هربرت، الذي أصبح شاباً وتزوج من فتاة نصف إنكليزية (أنجبت لـ جين ثلاثة أحفاد)، وحول ابنتهما بيرتا التي جُنت وتوفيت في مشفى للأمراض العقلية.

مرت خمس سنوات قبل أن ترى جين يونان ثيوتوكي أو خاتم الزواج. وقد عاشا طوال هذه المدة في فرنسا وإيطاليا عشيقين. ولم يتم زواجهما إلا بعد أن حصلت جين على الطلاق من فيننغين، وقُبلت في الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية. وفي عام ١٨٤١، حين كانت جين في الرابعة والثلاثين، أصبحت الكونتيسة ثيوتوكي. وبعد الاحتفال الذي جرى في باريس، رحلت جين مباشرة للقاء حميها الكونت جوانيس ثيوتوكي الذي كان حاكم جزيرة تينوس.

انتظر الكونت الهرم وصول جين إلى تينوس بفارغ الصبر. لقد سبق أن عرف شيئاً عن ماضيها، لكنه لم يعرف شيئاً حول شفارزنبيرغ وبلزاك والملك لودفيغ أو حول زواجها من البارون فيننغين. وقد اعتقد بأنها هجرت اللورد إيلينبورو مؤخراً من أجل ابنه. لكن حتى هذا كان كافياً ليشعر بالقلق. كذلك انتاب القلق أحد ضيوفه حول مجيء جين، لكن لسبب آخر مختلف. كان هذا الضيف هو عالم الآثار ألكسندر بوشون البالغ من العمر خمسين عاماً. كان بوشون على علم أكثر بحقيقة تاريخ جين. ولم يستطع تصور منزلها في هذه الجزيرة القاحلة، فالجزيرة يقطنها ٢١ ألفاً من الفلاحين في بيوت من الحجر الخام. ومع ذلك هناك أشياء ثمينة وراء ذلك، حُلي الفلاحين العتيقة، والكنيسة التي بنيت في البقعة التي رأى فيها قسيس محلي مريم العذراء. أما منزل مضيفه الذي

يُتوقع أن تحل فيه جين، فكان صغيراً وغير ملائم تموضع في زقاق ضيق لا يطل على الجبال ولا على البحر. وقد لاحظ بوشون أثناء إقامته في منزل مضيفه أن أكثر مقتنيات جين التي شُحنت من باريس ما زالت في صناديقها، وكتب بوشون في مجلته الخاصة: «لا أستطيع أن أتصور القصص التي رواها ثيوتوكي لـ الليدي إيلينبورو ليقنعها بالإقامة في بلد يخلو تماماً من وسائل الراحة والرفاهية، كما يخلو من مشهد جميل ومحادثة مهذبة». لكن الغريب في الأمر هو أن جين لم تكن تشعر بالخيبة ولا بالفزع لوجودها في الجزيرة.

وأخيراً انتقلت إلى دوكاديس، إلى ملكية ثيوتوكي في كورفو. وهنا انشغلت جين بجعل المنزل أكثر جاذبية. خصصت لزوجها غرفة المكتبة الإنكليزية، وخصت نفسها بغرفة الاستقبال الفرنسية، وأنشأت حديقة زرعت فيها أشجار الصنوبر، التي ربما ما زالت حتى اليوم. كان ثمة حفلات ليلية دائمة يتخللها الطعام والشراب والغناء، وكانت جين سعيدة.

وفجأة رُقي الكونت سبيريدون ثيوتوكي إلى رتبة كولونيل في الجيش اليوناني وعُين مرافقاً عسكرياً للملك أوتو، وأمر بالتوجه إلى أثينا، وانهار الزواج. وفي أثينا التي جعلها الملك الشاب أوتو عاصمة لليونان بدل ناوبليا، بنت جين منزلاً وإسطبلات وسلت نفسها بالإنفاق. وأنجبت ابناً سمته ليونيداس. ومن بين الأطفال الستة الذين أنجبتهم في حياتها من زوجيها وعشيقيها كان ليونيداس هو المفضل لديها. لقد أحبته بكل كيانها، وأخذته في إجازة إلى إيطاليا. وفي أحد الأيام بينما كانت تثرثر مع أصدقائها الإيطاليين في فيلتها، حاول ليونيداس

الصغير ركوب الدرابزين والانزلاق من الطابق الثاني إلى الأول، انزلق الصغير لكنه هوى إلى الطابق الأسفل واصطدم بالرخام ومات على الفور.

بعد ذلك بمدة قصيرة طلقت جين ثيوتوكي، فقد كان الصبي آخر رباط يجمعهما. عاشا معاً مدة ١٥ عاماً، كانا في خمسة أعوام منها عشيقين، وعشرة أعوام زوجاً وزوجة. لكنهما ذهبا تدريجياً كل في طريقه. أصبح ثيوتوكي غير مبالٍ تجاه جين ودخلها، كما بدأ يلاطف نساءً أخريات. وقبل وفاته في روسيا كان قد تزوج ثلاث مرات. أما جين فقد التفتت إلى عشيق جديد. قبل سنوات كانت خليلة الملك لودفيغ، والآن في أثينا، أصبحت خليلة ابنه الملك اوتو.

كان الملك أوتو ابن أبيه من ناحية واحدة: كان كلاسيكياً. ولكن في حين وافقت إنكلترا وفرنسا وروسيا على التسوية التي اقترحها الملك لودفيغ القاضية بتولي أوتو عرش اليونان، تحولت إلى تسوية مشؤومة. فالاضطراب كان مسيطراً. كان الملك أوتو مهتماً بماضي اليونان، وكان اليونانيون مهتمين بحاضرهم. كانت أثينا الجافة التي يقطنها نحو عشرين ألف نسمة مفقرة. وكانت العائلات الأيسر حالاً تعيش على الخضراوات، بينما تعيش العائلات الأفقر على السمك المملح.

وفي حين أهمل الملك أوتو الاهتمام بالاقتصاد الوطني الذي ألحق الأذى باليونانيين، نُوصب العداء لأسباب أخرى. كان كاثوليكياً، وهذا ما أغاظ اليونانيين الأرثوذكس. وكان بافارياً يزوِّد بلاطه وجيشه بالألمان القادمين من ميونيخ، وهذا ما أغاظ اليونانيين أكثر. وفوق كل ذلك كان ضعيفاً. وعلاوة على أنه لم يكن فاتناً، كان تصرفه بائساً. وقد اعترف

الديبلوماسي الفرنسي إدوارد توفينال قائلاً «من المستحيل عملياً ألا تضحك في حضرة جلالته، فبدلاً من التحدث كان يبتلع لعابه مدة خمس دقائق قبل أن ينطق جملة». وفي الواقع كانت زوجته تتحدث وتكتب وتفكر نيابة عنه. كانت فيما مضى أميرة أولدنبرغ. وكان زواجهما قاحلاً دون أطفال ودون حب. وكان ثمة نكتة في أثينا تقول إن الملك يقرأ كل شيء دون أن يوقع على شيء، وأن الملكة توقع على كل شيء دون أن تقرأ شيئاً.

كرهت الملكة أمالي، زوجة الملك أوتو، جين لجمالها وبراعتها في الحديث ومهارتها في الرقص وبراعتها في ركوب الخيل. كذلك احتقرت جين لأنها سلبتها زوجها. وقد بادلتها جين مشاعر الكراهية. وفي عام ١٨٥٤، عندما كانت الثورة تتخمر في كل مكان في اليونان وبدا أن فرار الثنائي الملكي بات محتماً، تلقّت جين الأخبار وهي في سورية وصاحت في حبور: «هكذا إذن، رغبتي تتحقق ومنافستي الملكة تتدمر». لكن رغبة جين لم تتحقق كلياً إلا بعد ثماني سنوات عندما أُجبر الثنائي الملكي على الهرب من أثينا في سفينة بحرية بريطانية، وذلك بعد عام من قيام طالب بمحاولة اغتيال الملكة.

كانت جين أكبر من الملك أوتو بـ ثماني سنوات، لكنها محتفظة بجمالها. وقد قابلها أدموند أبوت في أثينا في عام ١٨٥٢، عندما كانت العلاقة في طريقها إلى النمو، وكتب يقول: «إنها مثال رائع على الصحة والجمال الجسدي. طويلة ورشيقة دون أن تكون نحيلة. ولو أن خط خصرها كان أوطأ قليلاً لكان من المستحيل أن تجد امرأة أفضل منها شكلاً...إلخ».

وذات مرة، عندما كانت جين تتناول الشاي مع الشاب أبوت، أشارت على نحو غير مباشر إلى علاقتها مع الملك لودفيغ والملك أوتو. ثم سألت أبوت! «هل تؤمن بقراءة البخت بوساطة ورق الشدة؟ منذ زمن بعيد استشرتُ المدموزيل لونورمان، فقالت لي بأنني سوف أدوِّخ رؤوس العديد من الرجال ...» قاطعها أبوت بكياسة: لم يكن ذلك يتطلب ساحرة للتنبؤ بذلك». - «رؤوس ثلاثة من الرجال المتوِّجين تحديداً» - «هل وجدتهم؟» - «أتطلع إلى ذلك بإمعان، لكني وجدت حتى هذا التاريخ اثنين فقط». فأكد لها أبوت: «ذلك بسبب أن الثالث لم يحن وقته بعد».

جرت هذه المحادثة في بنتيليكون، في بيت امرأة فرنسية بارزة، مغتربة وغريبة الأطوار، جمع جين وأبوت. هذه المرأة هي صوفي الغنية دوقة بليسانس. كانت ولدت في فيلادلفيا وتزوجت أحد جنرالات نابليون، وأصبحت وصيفة الإمبراطورة ماري لويس، وأخيراً قصدت اليونان لتأسيس ديانة جديدة. وقد سكنت في منزل غير مكتمل البناء - بسبب خوف خرافي من أن تموت حين تكمل أي شيء - كما اعتقد أبوت. وعاشت الدوقة في عزلة قاسية، تحرسها كلاب ذئبية ضخمة. وكانت جين واحدة من صديقاتها، ربما من أقدم صديقاتها.

احتاجت جين الدوقة بشدة لتخالط الملك أوتو ومن ثم لمخالطة واحد من جنرالاته، كانت منبوذة ليس فقط من البلاط الأثيني بل من المجتمع اليوناني، وذلك بتحريض من الملكة أمالي. فقط دوقة بليسانس دافعت عن علاقات جين، داعية كل واحدة «اتحاد حر». لكن مرافقة الدوقة لم تكن كافية. فبدون حب رجل حقيقي، كانت جين غير سعيدة وسط

مجتمع أثينا المعادي. لذا قررت جين وقد أضجرها الملك أوتو، أن ترحل للبحث عما لم تعرفه بعد. سافرت إلى تركيا وإيطاليا وسويسرا. وشكلت تلك الأشهر الغامضة التي قضتها في تلك البلدان فترة مجهولة في حياتها. وقد خلّفت وراءها أقاويل وشائعات أربكت كتاب السير طوال ١٢ عقداً من الزمن. وقد لجأ العديد من الكتاب، الذين يحركهم الحدث المثير أكثر من الحدث الواقعي،إلى الاعتقاد بأنها قفزت حول روما وكأنها تقمصت روح «إيزابل»(*) وكتب أحد المراسلين الصحفيين: «ذهبتْ إلى إيطاليا حيث تزوجت، كما أخبرتني بنفسها، ست مرات على التوالي». وردد آخرون هذا القول مضيفين «جين مع أزواجها الخمسة الإيطاليين إضافة إلى واحد إسباني. أما الكُتّاب الأكثر محافظة فقد أكدوا أنها اتخذت العديد من العشاق في إيطاليا، لكنها تزوجت اثنين فقط.

ومع ذلك فالأزواج الإيطاليون، سواء كانوا اثنين أم خمسة، ظلوا غير موثقين سواء بكلمات جين أو بسجلات رسمية. أما العشاق فشيء آخر. ومن المحتمل أن جين قد أقامت العديد من العلاقات الجنسية غير المميزة في تلك الفترة. وثمة قصة تصر على صلتها بثلاثة خُطاب في آن واحد. ففي حفلة رقص أقامتها في روما الأميرة كورتشي، قابلت جين ضابط مدفعية، واستسلمت لتملقه وقبلت منه قلادة ماسية، وفكرت جدياً في عرضه الزواج منها. وثمة خاطب آخر، وهو كابتن في الجيش الإيطالي، أخبرها بأن عريسها المحتمل كان وغداً مفلساً احتال على

* إيزابل - زوجة الملك آخاب ملك إسرائيل ، قصدت إحلال عبادة بعل في بلدها والقضاء على الأنبياء اليهود ، وقتلها جيحو . (المغني)

صائغ القلادة. وثبت أن هذه التهمة كانت صحيحة. فقد سيق ضابط المدفعية إلى السجن. أما الكابتن فكان مستعداً ليرشد جين إلى مذبح الكنيسة. لكنها التفتت حينئذٍ إلى شاب ديبلوماسي، وهو ابن السفير الإيطالي. وقد دعاه الكابتن الغاضب إلى مبارزة. وافترض كلا المتنافسين أن جين سوف تتزوج الذي يبقى حياً. تبارز الاثنان بالسيوف. ومع أن الديبلوماسي أصيب في وجهه إلا أنه طعن الكابتن في جسده. وعندما رفضت جين الزواج من الديبلوماسي قتل نفسه، أو هذا ما أخبرتنا القصة.

إن تحركات جين وحياتها المشوشة في روما كانت بعيدة كل البعد عن أن تكون مهدئة للأعصاب,وقد عادت إلى أثينا، وعاشرت ثانية الملك أوتو مدة وجيزة، ثم التقت في أحد الأيام الجنرال كريستودولس حاجي ـ بيتروس ونسيت الملك.

كانت جين قد قامت بجولة شمال اليونان. هناك كان رجال جبال ـ نحيلون، صامتون، عصبيو المزاج ـ يدعون بـ الباليكارز «الشجعان». هؤلاء الباليكارز ـ نصف وطنيين، نصف قطاع طرق ـ قاتلوا ببسالة لمساعدة اليونان لنيل استقلاله. وكان قائد أولئك الرجال هو الجنرال حاجي ـ بيتروس البالغ من العمر سبعين عاماً. كان طويلاً بالنسبة لعِرقه وشاباً بالنسبة لسنوات عمره، وبصفته قاطع طريق فقد حكم كـ ملك. إضافة إلى ذلك عُيِّن حاكماً للمقاطعات التي تحيط بـ لاميا.

رأته جين أول مرة في مدينة لاميا. كان يعتمر قبعة حمراء ويلبس سترة ذهبية ويمتطي حصاناً بسرج فضي. ومع أنه كان أكبر من جين بـ ٢٥ عاماً إلا أنه سلب لبها. رتبت مدخلاً للتعارف ثم رافقته إلى التلال

مع قـواته، وفـوراً أصـبـحت خليلتـه. نـامت مـعـه قـرب نار المخـيم تحت النجوم. أكلت خبزاً وجبناً، وشربت خمراً من زق مصنوع من جلد الماعز.

عـرفت جين أن الجنرال كـان أرمل، وأباً لـصـبي جذاب يدعـى إيريني. وكـانت سعـيدة لأنهـا عـوملت كـ ملكة قاطع طريق. كتب إدمـوند أبوت: «تخيـلت أنهـا ولدت وسط هذا المجـتـمع». «لقـد حكمت لامـيـا. وكـانت المدينة كلها تحت قدمـيـهـا. وعندمـا كـانت تخرج للمـشي تُقرع الطبـول لتحيتها».

دبرت الملكة أمـالي، التي لم تـسـامح جين، خطة للانتـقـام منهـا. فـأصـدرت مـرسـومـاً وبخت فـيـه الجنرال حـاجي ـ بيـتـروس على فجـوره، وعزلته مؤقتاً من منصبه ومن زعامته للـ باليكارز.

حـزن الجنـرال، وأرسـل احـتـجـاجـاً إلى الملكة كـتب فـيـه: «جـردتني جلالتك مـن منصـبي فـقـط لأني أعـيش مع الكونتـيـسـة ثيـوتوكي. ولكن مهمـا أخبرك به أعدائي عني، أستطيع أن أؤكد بكلمة شرف الجندي أنني إن كنت عـشـيق هذه المرأة فذاك ليس بغـرض الحب وإنما بـغـرض المصـلحـة الشـخـصـيـة. إنهـا غنيـة وأنا فـقـير. لدي مـركـز ينبـغـي أن أصـونه، وطفل ينبغي أن أعلمه».

وفي محـاولة لإهانة جين أكثر، عـرضت الملكة الرسالة على الجمـهور. والغريب في الأمر أن جين لم يبدُ عليها أي اهتمام. كانت على قناعة بأن الجنرال كتب الرسالة لاستعادة منصبه ليس غير. واقترحت عليه أن يعودا إلى أثيـنا، فـوافق الجنرال. اسـتـأجـرت جين منزلين في الضـواحي، تصـل بينهـمـا حديقـة. أقـامت في واحد منهـمـا مع خادمـتـهـا الفـرنسـيـة الشـابة يوجيني التي جلبـتـهـا مـعـهـا من باريس بعـد زواجهـا من ثيـوتوكي، وفي

المنزل الثاني أقام الجنرال مع بعض أفراد حاشيته المخلصين. لكن جين شعرت أن منزلها صغير جداً وغير مريح، لذا عقدت اتفاقية لبناء مبنى ضخم في بيرايوس، وهي قرية صغيرة تبعد نحو خمسة أميال عن أثينا. وقد بُنيت غرفة نومها بصورة مشابهة لغرفة عرش. واتخذ الجنرال جناحه الخاص، واتخذ أفراد حاشيته ثكنة وسط أشجار اللوز في الخلف. وبالطبع كان ثمة إسطبلات. إنها فردوس.

لكن سرعان ما حلت مشكلة في هذه الفردوس أيضاً. فالجنرال العجوز غدا كثير النزوات وكتوماً. كل ذلك تحملته جين لشعورها بأنه يحبها. ولكن عندما علمت بأنه ينام مع خادمتها يوجيني، تحررت من وهمها.

وبعد أن طُعنت في القلب، خططت للهرب. وفكرت حينئذٍ في أطلال تدمر القديمة وسط الصحراء السورية. كانت سمعت عن تدمر من الملك لودفيغ، ثم سمعت المزيد عنها من ثيوتوكي ومن الملك أوتو. وفجأة بدت لها الجنة التي كانت تبحث عنها. غادرت أثينا بحراً باتجاه الإسكندرية ثم سورية. وقد قالت بأنها ذاهبة لشراء أفراس عربية فقط. بالطبع شكل ذلك انعطافاً في حياتها. كانت تتحرك دون إدراك أو ربما بالحدس، نحو ما كانت تصبو إليه. قلة من أولئك الذين عرفوا جين أو المقربين إليها أدركوا ما كانت تبحث عنه. والعديد رفضوها بوصفها امرأة شبقة جداً، وواحدة من أولئك النساء المسعورات اللواتي ما يفتأن يطلبن رفقاء سرير جدداً لمواصلة إشباع نهمهن الجنسي. فهل يا ترى كانت جين امرأة شبقة؟

يخبرنا العلماء النفسيون بأن ثمة مفهومين حول الشبقة. وفقاً للتعريف السريري، فإن الشبقة الحقيقية هي التي تفصلها خطوة واحدة

عن جناح الأمراض العقلية، إنها المرأة التي لا تستطيع التحكم برغبتها الجنسية، ولديها دافع جنسي لا يُقاوم، والتي تشعر بالخزي بسبب سلوكها. أما تعريف الشبقة الشائع والمسلم به، فهو أنها امرأة إباحية في الأمور الجنسية تتجاوز معايير مجتمعها. وفي هذا الصدد يقول الدكتور أ. إيليس والدكتور أ. ساغارين: «غالباً ما دُعي الشبق بالفجور المنضبط نسبياً، وعلى الأرجح الاختياري، والذي يتصف بطبيعة يمكن أن تُعد عادية إن وجدت في أي ذكر في مجتمعنا».

ذلك ما كانت عليه جين، إنها، سريرياً شبقة، ويبدو شبقها صعب التصديق. ولكنها تناسب بوجه عام التعريف المسلم به نظراً لأنها كانت فاجرة، على الرغم من أن فجورها منضبط وقائم على الاختيار. إن رغبات جين تجاوزت حد الإشباع الجنسي. لأنها، إضافة إلى مباهج الجنس المؤقتة، نشدت هدوء البال الذي يأتي من أنها مرغوبة، وآمنة، وتخص شخصاً ما. لقد شعرت بأنها سوف تجد هذا الهدوء إن هي عثرت على الرفيق المناسب في المكان المناسب. وقد وجدت المكان في سورية. وهناك وجدت أيضاً الرفيق. وأشرفت رحلتها الطويلة على الانتهاء، لكن ذلك لم يحدث في الحال.

في البداية كان هنالك صالح. وكان هذا اتصالاً جنسياً «انتقائياً» أو «فجوراً»، وشيئاً آخر لا يذكر. قابلته في أيار عام ١٨٥٣ حين كانت في طريقها إلى تدمر برفقة خادمتها النادمة يوجيني وحارس عربي. لقد لاحظت فرساً أصيلاً وسألت عن صاحبه. فأُخبرت بأنه يخص بدوياً يعيش في الجوار. واتضح لها أنه شاب عربي جذاب يدعى صالحاً.

التقت جين بـ صالح وحاولت شراء الفرس فرفض صالح أن يبيعه

قـائلاً: «لسـوء الحظ لا يمكن ترويض هذا الحصـان، ولكن حتى إن استطاعت ترويضه فسوف لن أحدد له سعراً، فهو عندي أغلى من أي شيء، حتى أغلى من زوجاتي الثلاث». وافقت جين قائلة «الفرس الرائع هوكنز، لكن كذلك هن الزوجات الثلاث إن كن جميلات، أعطني الفرس ودعنا نرى إن كان بالإمكان ترويضه». أشار صالح إلى اثنين من القبيلة، فاحضرا الفرس. وبعد عناء أسرج الحصان. امتطت الحصان بهدوء، وتدريجياً استطاعت إخضاعه. لم يكن صالح مهتماً بالفرس بقدر اهتمامه بـ جين وعندما ترجلت جين ذهب إليها صالح وقال: «غالباً ما تنجح الامرأة حيث بفشل الرجل لأنها تعرف متى تستسلم. لا قيمة للفرس الآن فقد استطعت ترويضه. إن كنت ما زلت تريدينه يمكنك شراءه ـ لكن ليس بالمال».

وحسب رواية جين، فقد فكرت قليلاً ثم قالت «سأدفع لك مقابل فرسك الثمن الذي لا تتوقعه، ولن أقدم على عقد صفقة. ولكن ثمة شيء ينبغي أن تعرفه ـ النساء في بلدي يفخرن بمشاركة الرجل قلبه، إنهن يدخلن خيمته شرط أن يسدن فيها وحدهن. سوف أدفع الثمن الذي ترغبه مقابل فرسك، ولكن عليك أن تبعد حريمك». أجاب صالح بسرعة «الرجال في بلدي لديهم من النساء بالقدر الذي يتحملون. ثم إنه ينبغي عليّ إطاعة دیانتي وأتبع التقليد، إن تعدد الزوجات ضروري بالنسبة إلينا».

في أصيل ذلك اليوم أبعد صالح حريمه، وفي المساء دخلت جين خيمته السوداء. استمرت العلاقة بينهما طوال عدة أشهر. كانت جين مقتنعة تماماً برجولة صالح وترغب لو استمرت إلى أجل غير مسمى.

وقبيل نهاية هذه العلاقة، قررت جين العودة إلى أثينا لفترة قصيرة لتسوية شؤونها. لكن كان ينبغي عليها أولاً أن ترى تدمر. وهكذا تركت صالحاً متأسفة واتجهت نحو القدس ثم دمشق.

كانت دمشق، عاصمة سورية، مفاجأة كبيرة لها. فقد حفزها مركز الديانة الإسلامية وآثارها. وحين مشت في الطريق المسمى بالقويم، لم تنزعج من رائحة النفايات النفاذة ومن أعراب البادية ومن هتافات التجار. لقد رأت فقط ما رآه كينغليك(*) من قبل: «هذه دمشق المقدسة، هذه فردوس النبي الأرضي، جميلة لدرجة أنه لم يجرؤ على المكوث تحت ظلالها الوارفة ـ إنها مدينة القصور المحجوبة والغياض والحدائق والينابيع والأنهار». لقد ارتعشت من سحر المآذن القديمة والقباب، ثم شرعت بالتفكير في تدمر.

عندما سمع القنصل الإنكليزي بأنها تنوي زيارة تدمر ارتعد وحذرها من خطورة الزيارة؛ رحلة عشرة أيام على ظهر حصان عبر الرمال ووسط قطاع الطرق. تجاهلت جين تحذيره. فقد قررت على الفور تجهيز قافلة. وأثناء تجهيزها القافلة قابلت مِجْوَل. لم تكن تعرف عندئذٍ بأن ذلك اللقاء معه كان الأكثر أهمية في حياتها كلها. كانت عيناها ما تزال على صالح. وظهور مِجْوَل لم يُنسها عشيقها البدوي. كان مِجْوَل قصيراً متين البنية، شجاعاً ذا بشرة سوداء. كان واسع المعرفة مثقفاً، اكتسب معرفة واسعة بالصحراء، ويتقن عدة لغات عدا الإنكليزية. وقد وصُف بالذكاء والفتنة. كانت خلفيته أريستقراطية مثل جين. وكانت عائلته

---

* ألكسندر ويليام كينغليك . كاتب عاش في العصر الفيكتوري ، قام برحلة إلى الشرق الأوسط وكتب عنها . (المترجم) .

واحدة من أربع عائلات صحراوية نبيلة. كان الثاني بين تسعة أبناء. وكان مرشحاً ليخلف شقيقه الأبتر الشيخ محمد لرئاسة العشيرة. وقد ضمنت له موهبته اللغوية مهمة الاتفاق مع سيدة إنكليزية ثرية حول القافلة.

في الواقع أصاب جمال جين مِجْوَل بالخرس. فقد وافق على أول سعر عرضته عليه ـ ثمانية آلاف فرنك لقاء تجهيز القافلة التي سترافقها إلى تدمر. وهكذا جُهزت القافلة على عجل، وسرعان ما شقت طريقها باتجاه تدمر. ونظراً لأن جين لا تتحدث العربية فقد كان مِجْوَل الذي يعرف الفرنسية هو الشخص الوحيد الذي يمكنها الاتصال معه. سألته عن تدمر. فقص عليها قصص المدينة المسورة حين كانت في أوج عظمتها، نحو عام ٢٥٠ بعد الميلاد، تحت حكم زنوبيا. أخبرها عن زنوبيا، وكيف تحدَّتْ قوة الإمبراطور الرومانية، وعن الحصار الذي أجبرها على الفرار، وأخيراً أسرها وموتها سجينة. افتتنت جين ليس فقط بالتاريخ بل بطريقة سرده لأحداثه. وقد أفضت له بماضيها، وحدثته عن علاقتها الحالية مع صالح. وأخبرها هو عن زوجته وولديه. ولم يخبرها بأنه يحبها (زوجته) حباً عميقاً.

كان مِجْوَل يسير إلى جانبها حين اقتربا من كمين رُتِّب سلفاً (كمين نصبه شقيق مِجْوَل لابتزاز جين). وفجأة علا صراخ مغيري الـ غوموسا «Gomussa»، المسلحين بالرماح، من كل جانب. كانت التعليمات المعطاة لـ مِجْوَل تقتضي بأن يتظاهر بالدفاع عنها ثم يتخلى عنها. لكنه أبى أن يفعل ذلك. وبعد صراع قصير معهم استطاع أن يرغمهم على التراجع باتجاه الكثبان.

تابعت القافلة سيرها باتجاه تدمر، وهناك خيمت وسط ألفين من الأعمدة المرمرية المهمشة. ثم سار مِجْوَل مع جين باتجاه السور البالغ طوله سبعة أميال الذي حمى فيما مضى الواحة. ودلها على مواقع القصور القديمة والمعابد.

في طريق عودتهما إلى دمشق، وفي مكان خارج أسوارها، استجمع مِجْوَل شجاعته وطلب الزواج من جين. أخبرها بأنه يحبها، وسيطلق زوجته من أجلها. رفضت جين ذلك. لقد أحبته، أحبت كرامته وسلوكه الحميد ومرحه. لكنها لم تسمح له بترك زوجته. وبالتالي كانت عينها على صالح. لم يلح مِجْوَل في طلبه. غادرها دون أن يصافحها، ودون محاولة تقبيلها.

عادت جين إلى أثينا في أواخر عام ١٨٥٣. ومكثت فيها فترة قصيرة لإعادة تنظيم شؤونها المالية ولحزم ممتلكاتها الشخصية. كانت متلهفة للعودة إلى صالح. لكنها حين عادت إليه وجدت لديه زوجاته الثلاث. وهكذا خُرقت الاتفاقية.

رحلت جين غاضبة قاصدة بغداد. واستأجرت دليلاً لها هو شيخ البراك الحاد المزاج وذو الطبيعة الوحشية. كان سمع أنها خليلة صالح لذا قبل العمل لإغوائها. وقد بدأ يقدم عروضه منذ اللحظات الأولى للرحلة. كرهت جين البراك «El Barrak» وحاولت نبذه. وأخيراً، وبسبب ضجرها المطلق وإصراره العنيد المتبلد استسلمت ونامت معه. في ذلك الوقت كانا قد وصلا إلى مضارب المصرب. عندها تذكرت جين مِجْوَل، تذكرت لطفه وظُرفه، وبدأت بالاستفسار عنه. وفي أصيل أحد الأَيام ظهر فجأة. كان سمع بوصولها فبحث عنها وجلب معه فرساً عربياً هدية لها. عند ذلك أدركت جين أنه يحبها.

صرفت جين البراك، وعادت مع مِجْوَل إلى دمشق. أخبرها بأنه طلق زوجته، لكنه احتفظ بولديه. ومرة ثانية طلب الزواج بها، فوافقت.

كان ثمة عقبات أمامهما. فقد رفضت عائلة مِجْوَل ذلك الزواج. فدمه لم يكن أزرق كدمها، ومعتقدها ليس محمدياً، وخلفيتها لا تلائم الصحراء. وقابلت جين معارضاً آخر هو القنصل البريطاني في دمشق الذي لم يصدق أذنيه عندما سمع بأنها تود الزواج من بدوي. وذكرها بأنها من الرعايا الإنكليز، وستغدو بعد الزواج من الرعايا الأتراك نظراً لأن مِجْوَل وجميع السوريين هم رعايا الإمبراطورية العثمانية. أخبرها القنصل بأن ذلك ما هو إلا جنون محض. لكنه رضخ في النهاية كما رضخت عائلة مِجْوَل. استأجر مِجْوَل منزلاً صغيراً في حمص، وفي عام ١٨٥٥ غدت الليدي إيلينبورو، جين ديغبي المصرب. كانت في الثامنة والأربعين وزوجها في الخامسة والأربعين. وكان ذلك الزواج هو الأخير والأطول والأفضل. وكان التفاهم الذي توصلا إليه حول أسلوب حياتهما فعالاً. كانا يعيشان طوال ستة أشهر من كل سنة وفق الأسلوب الغربي في فيلتها بدمشق. ويعيشان طوال الستة الأشهر الأخرى وفق الأسلوب البدوي في خيمته في الصحراء وقد استمر هذا الأسلوب طوال ست وعشرين سنة من زواجهما. وكان ذلك مرضياً بالنسبة للطرفين.

بعد عام من زواجهما قررت جين زيارة إنكلترا. إذ لم تكن قد رأت موطنها طوال ربع قرن حين فرت من اللورد ومن عائلتها لتلحق شفارزنبيرغ في باريس.

إن قرار وصل ما انقطع على مر السنين، وتجاهل فضيحة ماضيها كان صعباً، لكن والدها كان قد توفي، وكان ثمة قضايا عائلية ينبغي

تسويتها. كانت والدة جين ليدي أندوفر، البدينة الآن والبالغة ثمانين عاماً، تنتظرها بحرارة، وقدم شقيقها إدوارد لرؤيتها. ولكن عندما حاولت جين أن تطلعه على رسومها المائية عن تدمر ساد الجوُّ برود مفاجئ. لم ترغب العائلة أن تسمع شيئاً عن زواجها بعربي، وأصرت والدتها على الإشارة إليها بصفتها مدام ثيوتوكي. وقد شعرت جين بالغم. لكن شقيقها الأصغر ر. ك. ديغبي قدِم وفي جعبته الكثير من الأسئلة. سألها عن مِجْوَل، وعن الصحراء، وفجأة شعرت جين بالسعادة. كان الشرق موطنها، ومِجْوَل كان زوجها.

كان ثمة زيارة سرية إلى لندن لرؤية أصدقائها القدامى. وقد حرصت جين على أن تكون الزيارة هادئة خوفاً من إحراج عائلتها. لقد تغيرت إنكلترا، ولم يعد الزنى دارجاً.

بعد الحفل الذي أُقيم بمناسبة بلوغها الخمسين، وقضاء أربعة أشهر مع أفراد عائلتها المتبقين، غادرت إنكلترا إلى غير رجعة. في باريس اشترت بيانو ولوازم الرسم. وبعد شهر كانت في دمشق. وقد قالت «وصلت وقلبي يدق، ثم وصل مِجْوَل المحبوب الغالي، وفي لحظة السعادة تلك نسيت كل شيء آخر».

كانت حياتها في سورية وادعة. وكانت فيلتها الواسعة خارج دمشق مؤثثة على الطريقة العربية المريحة، عدا غرفها الخاصة. فقد كانت ممتلئة بالأثاث الفرنسي وبالكتب الإنكليزية التي تأتيها من لندن بصورة منتظمة، وبلوحات تصور تدمر واليونان رسمتها بالألوان المائية. كانت الأرض المحيطة بالفيلا واسعة فيها بركة زنبق وحديقةأنبتت فيها بذوراً مجلوبة من إنكلترا وإسطبل لأفراسها العربية. وكانت حيواناتها الأليفة

تجول في كل مكان، بينها غزال وديك رومي وبجع ونحو مئة من القطط الفارسية. هنا، حسب إيزابيل بورتون «تحيا حياة نصف أوربية، فهي تكحل عينيها وتعيش بطريقة غريبة. ولكن من نواح أخرى ليست استثنائية فوق العادة».

كانت إيزابيل بورتون على خطأ. فقد كانت جين استثنائية فوق العادة حين ترافق مِجْوَل في الصحراء، كما اعترفت بذلك السيدة بورتون فيما بعد، إذ كتبت تقول: «اعتادت جين في الصحراء أن تحلب الناقة وتخدم زوجها وتعد له الطعام وتغسل يديه ووجهه وقدميه وتقف إلى جانبه حين يأكل مَثَلُها مثل أية امرأة عربية، وكانت تبتهج بذلك». كانت تعشق الصحراء، وتلعب دور البدوية تماماً. وبسبب لون شعرها الفاتح اللون الذي يعده رجال القبيلة سيء الطالع، كانت تصبغه باللون الأسود وتضفره في جدائل. كانت ترتدي عباءة قطنية زرقاء، وغالباً ما تسير وهي حافية القدمين. كان أفراد القبيلة يعشقونها ويدعونها «أم اللبن» بسبب بشرتها القشدية اللون، و «الشيطان الأبيض» بسبب شجاعتها. وحين كان أفراد القبيلة يرتحلون جنوباً لرعي إبلهم، كانت هذه الشجاعة ضرورية. إذ غالباً ما كان يجري اقتتال بسبب مناطق الرعي. وحين انقضّت مجموعة من قبيلة شمر على خيام قبيلة المصرب هرب العديد من الرجال، لكن جين اختطفت بندقية وقتلت المغير المتقدم، فتراجع المهاجمون.

أحياناً كانت سعادة جين تتلاشى ليحل محلها ألم موجع. ففي البداية كانت الديانة مسألة غير خاضعة للنقاش، ففي حين يصلي مِجْوَل خمس مرات في اليوم، كانت جين غير مكترثة بأي معتقد ديني. لكن

موقفها تغير بعد مذابح تموز الشائنة عام ١٨٦٠. فقد ثار السوريون المتعصبون الذين أغاظتهم البعثات التبشيرية لتحويل المسلمين عن ديانتهم، وهيجهم حادث قتل درزي على يد أحد «الكفرة». لقد سال الدم في كل مكان في سورية، ومات ثلاثة آلاف من المسيحيين، واقتحم الرعاع المركز الأوربي وقتلوا القنصل الألماني وجرحوا القنصل الأمريكي. أُحرقت البيوت، وتبعثرت جثث المسيحيين في الشوارع. وقد استقبلت جين اللاجئين، ووقف مِجْوَل يحرسها ببندقيته. لكن العرب لم يدخلوا فيلتها. فالكل نظر إليها على أنها واحدة منهم. وعندما انتهت المذابح لم تنس جين ذلك الرعب. وبجرأة عادت إلى معتقدها البروتستانتي، وصارت تتردد على الكنيسة كل أحد.

لم تكن المشكلة الكبيرة في زواجها تتعلق بكونها ملحدة، بل تتعلق بإخلاص زوجها لها. فعندما تزوجت مِجْوَل كانت تعلم بأن الرجال المسلمين يستطيعون الزواج بأكثر من واحدة. وقد سمعت أكثر من مرة شائعات تقول بأنه يزور زوجة أخرى أثناء وجوده في الصحراء. وفي كل مرة كانت الغيرة تمزقها. وقد اتهمت مِجْوَل بالخيانة.لكنه كان يبدد شكوكها.

كانت جين ما تزال جميلة وغنية لتجذب رجالاً آخرين، وشكلت عروض الزواج التي انهالت عليها مصدر إزعاج لـ مِجْوَل. وحين بلغت الحادية والخمسين حاول الشيخ فارس بن مَزْيَد الفوز بها لكنه فشل. وعندما بلغت الحادية والسبعين حاول ترجمانها الشاب أنطون أن ينام معها لكنها رفضته. وخلال حياتها كلها في دمشق، جعل منها ما ضيها الأسطوري هدفاً للمغامرين الرومانتيكيين وللأغراب الذين رغبوا في بناء

سمعة عن طريق ادعائهم بأنهم كانوا عشاق الليدي إيلينبورو. والنموذج المثالي بينهم كارل هاغ البافاري المولد الإنكليزي الجنسية، والذي كان واحداً من رسامي قصر الملكة فيكتوريا المفضلين. لقد استعان بـ جين وزوجها ليرشداه في الصحراء، وعندما عاد إلى لندن ألمح بأنه كان عشيقها ـ كان ذلك محاولة منه لتسويق إنتاجه الفني. وعلى الرغم من كل الشائعات فإن عدم إخلاص جين لـ مِجْوَل كان بعيد الاحتمال. لقد أحبته بشغف، ولم تمل من رعايته. وفي الثالثة والسبعين من عمرها، حين كان زوجها في السبعين، تذمرت قائلة «لقد مر شهر وعشرون يوماً منذ أن نام معي مِجْوَل آخر مرة! ترى ما السبب في ذلك؟».

حين كانت جين في السابعة والستين قابلها الـ سير إدوين بيرز ووجدها راضية بحياتها في الصحراء. كان إدوين قد سمع عنها من الرسام كارل هاغ. وعرف أنها لم تطلع على التقارير الصفحية (كان إدوين مراسلاً صحفياً) لذا لم يحاول إجراء حديث صحفي معها. لكنه قابل ذات يوم المصرفي الذي يعمل لحسابها في بيروت ويدعى هيلد والذي يقصد دمشق مرتين في العام ليسلمها دخلها المالي. وقد طلب إدوين من هيلد أن يأخذه برفقته في زيارته التالية فوافق.

بعد يوم من وصولهما إلى دمشق، ذهب الرجلان إلى جين حيث تقيم في فيلتها. وكتب إيدوين فيما بعد «قادونا إلى صالة واسعة، وبعد دقائق دخلت علينا امرأة طويلة مليحة، لكن وجهها اكفهر حين رأت مرافقي الذي قدم ليدفع لها المال وبصحبته شخصٌ غريب». ارتبك هيلد وقال: كنت مسافراً مع رفيق وشعرت بأنه من غير اللائق تركه في الخارج، سأعود في يوم آخر إن شئت. رفضت جين ذلك واقترحت أن

يجلس إدوين في آخر الصالة بينما هي تقوم بإجراء حساباتها معه. وبسرعة اتجه إدوين إلى آخر الصالة وراح يشغل نفسه بتأمل لوحاتها المائية. وعندما انضمت جين ثانية إلى إدوين سألته عما إذا كان يهتم بالفن، فأشار إلى الرسام كارل هاغ الذي يعرفانه معرفة شخصية. وبينما هو يتحدث دخل مِجْوَل ومال إلى إدوين وأبدى استعداده لمرافقته في جولة إلى المساجد أثناء وجوده في دمشق، ثم دعته جين إلى تناول الشاي. أخيراً تشجع إدوين وسألها بعض الأسئلة الشخصية. كان يود أن يعرف عن علاقتها بقبيلة زوجها، فأخبرته جين بأنها ممتازة وسردت عليه عدة نوادر لتثبت ذلك.

من بين أبرز الزوار الذين استضافتهم جين خلال الستة والعشرين عاماً قضتها مع زوجها مِجْوَل، كان ريتشارد بورتون(*). كان الكابتن بورتون قد قضى أربع سنوات في البرازيل قبل مجيئه إلى دمشق. وهو الآن قنصل إنكليزي جديد فيها. كان طويل القامة قوياً ملتحياً وحيوياً. وكان عالماً ومكتشفاً وكاتباً وعاشقاً. كان متمرداً ومقاوماً للمعتقدات التقليدية البالية وللأوثان. وإن كانت جين تعرف تسع لغات كان بورتون يعرف أكثر، وبضمن ذلك الـ جاتكي والـ سندهي وهما من اللهجات المستخدمة في الهند.

كان القنصل الإنكليزي الجديد، كما علمت جين، قد عاش حياته مغامراً جسوراً. فبعد أن طُرد من جامعة أوكسفورد خدم في الجيش الإنكليزي بالهند. وهناك لقب بـ «الزنجي الأبيض» لأنه كان يقنع نفسه ليبدو مثل السكان المحليين ويجول في الأسواق. وفي عام ١٨٥٣ قرر أن

* ريتشارد بورتون ١٨٢١ ـ ١٨٩٠ : رحالة إنكليزي اكتشف بحيرة تانجانيكا (المنجد).

يزور مكة. فبعد أن صبغ جلده ودرس طقوس الحج المعقدة وختن نفسه، غدا أول إنكليزي يحج إلى مكة. وفي إفريقيا أصيب بجراح خطيرة في الصومال، لكنه استعاد صحته وذهب لاكتشاف بحيرة تانجانيكا. وفي أمريكا سافر عام ١٨٦٠ في عربة من ميسوري إلى أوتاه ليشهد مباشرة تعدد الزوجات.

كان بورتون في صراع دائم مع السلطة. فعندما طلبت منه الاستخبارات الإنكليزية أن يعد تقريراً حول الحياة في كراتشي، زودها بورتون بوصف تفصيلي عن الانحرافات الجنسية الهندية. وعندما طلبت منه الملكة فيكتوريا أن يتحدث مع ملك داهومي الإفريقي لتوضيح مسألة الأُضحية البشرية، أخبرها بورتون أن الملك يعتقد بأن عادات داهومي ليست أكثر اشمئزازاً من تلك التي في إنكلترا. وعندما رجته زوجته أن يكتب كتاباً «لطيفاً» أخبرها بأنه يحضِّر لوضع كتاب «الحديقة العطرة» يعالج فيه موضوع ختان الإناث، و «الفلاحون يتسافدون مع التماسيح».

كانت جين مأخوذة بـ بورتون، فليلة بعد ليلة تستضيفه هي وزوجها في الفيلا، وكان بورتون يعتقد تماماً بأنها الامرأة الأذكى بين اللواتي قابلهن. ونظراً لأنه مأخوذ بموضوع الجنس، فقد كانت معظم أسئلته تدور حول حياة الحب عند النسوة العربيات. وكان في ذلك الوقت يتهيأ لترجمة كتاب «ألف ليلة وليلة». وفي مقالته الختامية للكتاب ـ حُذفت فيما بعد نظراً لأنها تتحدث صراحة عن العادات الجنسية لجميع الأمم - اعتمد اعتماداً كبيراً على المادة التي زودته بها جين.

بعد ثلاثة أشهر من وصول بورتون إلى دمشق، ظهرت زوجته

المتلئة الجسم مع خادمتها الإنكليزية ومع كاثوليكيتها العدوانية. كانت إيزابيل بورتون متعجرفة. وكانت تتأثر بالألقاب، وجين كانت تحمل لقباً. وهكذا ذهبت إيزابيل لتقابلها على الفور.

أما فيما يتعلق بـ مِجْوَل فكانت المسألة مختلفة. ففي حين كان زوجها يقدره على ما هو، كانت إيزابيل تنفر من لونه الأسود، وقد كتبت تقول «كيف استطاعت جين التخلي عن كل شيء في إنكلترا لتعيش مع زوج قذر أسود؟ لقد ذهبتُ إليها في أحد الأيام ففتح لي الباب وقد ظننته من أول وهلة خادماً. أستطيع أن أفهم لماذا تخلت جين عن زوج قاسٍ خشنٍ يكبرها بكثير ولم تحبه أبداً، وأستطيع أن أفهم لماذا هربت مع شفارزنبيرغ؛ لكن الاحتكاك بتلك البشرة السوداء مسألة لا أستطيع فهمها مطلقاً. فشيخها (زوجها) كان أسود ـ أكثر سواداً من فارسي ـ بل أكثر سواداً من عربي بوجه عام. ومع ذلك كان متقد الذكاء، وجذاباً كرجل وليس كزوج. وقد جعلني ذلك أرتعد».

كان تعيين بورتون في دمشق مسيئاً منذ البداية بسبب احتياله حين دخل مكة خارقاً بذلك تحريم الكفرة من دخولها. وقد ضاعفت إيزابيل هذا الاستياء، فقد كانت لديها الرغبة، هي التي رأت دموع المادونا، في تحويل جميع سكان دمشق إلى الكاثوليكية. لقد انقضت على المسلمين الفقراء وحاولت إقناعهم عن طريق رشوتهم بالطعام بالانضمام إلى الكنيسة الرومانية. واحتضنت الأطفال العرب الذين فقدوا آباءهم وعمدتهم على الرغم من احتجاجات أمهاتهم. وذات مرة، بينما كانت تقود زواراً من الإنكليز حملة الألقاب داخل أحد المساجد، أمرت رجلاً أثناء صلاته أن يتنحى جانباً لأنه يحجب رؤية الضريح، وعندما لم يذعن لأمرها ضربته على وجهه بسوط صغير كان في يدها.

بعد سلسلة من المشاكل التي واجهت بورتون، منها محاولته شراء أرض ليؤسس عليها مستعمرة للعرب الذين حولتهم زوجته إلى الكاثوليكية، أقيل من منصبه. كتب في مفكرته «غادرت دمشق في الثامن عشر من آب دون رجعة. رحلت عنها في الظلام يرشدني فانوس كبير، كان رجالي يبكون... إقالة مخزية في الخمسين من عمري، دون إنذار ولو شهر ودون رواتب أو صفة». وبعد مدة قصيرة لحقت به إيزابيل. رافقتها جين حتى أسوار المدينة، وقد تأثرت بوداع جين لها.

في السنة التالية عادت جين من حرب قبلية في الصحراء السورية لتجد نبأ وفاتها. وقد قرأت نعيها بانشداه. والشيء الأكثر إثارة الذي يعيد للأذهان فضائح ماضي جين هو أن النبأ ظهر في مجلة «لاريفيو بريتانيك» التي نُشرت في باريس في شهر آذار عام ١٨٧٣، وأعيد نشرها في كل أوربا. جاء عنوان النعي على هذا الشكل «توفيت مؤخراً ليدي بارزة أفادت كثيراً من الزواج». ثم يبدأ النعي هكذا «تركت الليدي إيلينبورو زوجها الأول منذ أكثر من ثلاثين عاماً لتفر مع الكونت فون شفارزنبيرغ، ثم انعزلت في إيطاليا حيث تزوجت ست مرات على التوالي». ويمضي النعي ليذكر أن جين توفيت وهي أرملة فقد سبقها زوجها «سائق جمل يدعى عبدول» إلى القبر. وباستنكار متعاظم انتظرت جين ما قد ينجم عن هذه القصة الخيالية.

نشرت مجلة «لاريفيو بريتانيك» التالية مقالة تضمنت رسالة طويلة أُرسلت إلى الناشر من تريستا (حيث يقيم بورتون وزوجته)، رسالة دفاع وتأبين لم يكن كاتبها سوى إيزابيل بورتون. تقول الرسالة: «كنت طوال سنتين صديقة حميمة لـ الليدي إيلينبورو في دمشق حيث

كان زوجي الكابتن بورتون يعمل قنصلاً. وبما أن جين أدركت أن الصحف ستنشر بعد موتها مجموعة من الأكاذيب المؤلمة بالنسبة لعائلتها، طلبت مني أن أكتب سيرتها، وكانت تملي علي كل يوم طيلة ساعة الجيد والسيء بصراحة تامة. وقد قطعتُ عهداً على نفسي بألا أنشرها إلا بعد وفاتها.

فيما يتعلق بما كتب عن زواجها بـ «سائق جمل» ما هو سوى شائعة ربما أشاعها خادم مطرود، وأستطيع بسهولة أن أقدم موجزاً عن قصة إقامتها في الشرق قبل ستة عشر عاماً. لقد قررت الليدي إيلينبورو التي أضجرتها أوربا تقليد ما قامت به من قبل الليدي وورتلي ـ مونتاغ والليدي هيستر ستانهوب».

ثم تستطرد إيزابيل بورتون، بعد عرضها لبعض المعلومات الخاطئة حول زواج جين من مِجْوَل، فتقول : «كانت امرأة رائعة ليس فقط بسبب حدة ذكائها وتصرفاتها، بل بسبب طيبة قلبها. كانت تتقن الفرنسية والإيطالية والألمانية والإسبانية والروسية واليونانية والتركية والعربية إلى جانب لغتها الأم الإنكليزية. وكانت رسامة ونحاتة وموسيقية. وقد مارست زراعة الأزهار وتربية الخيول والعناية بالطيور. لم أصادف قلباً أنبل من قلبها، ولم أقابل أحداً أكثر إحساناً منها. كانت تؤدي جميع واجبات السيدة المسيحية الجيدة. كل الذين عرفوها في أيامها الأخيرة سيبكونها. لقد ارتكبت خطأً واحداً في اوربا (ومن يدري إن كان ذلك خطأها)، لكنها عوضت عنه في الشرق بالفضيلة والندم طوال خمسة عشر عاماً. لقد رحلت، فكن رحيماً بها أيها العالم».

أعلمت جين الصحافة بأنها حية وبأحسن صحة، وأنكرت بحزم ما

جاء في رسالة إيزابيل بورتون التي ادعت أن جين أملت عليها سيرتها. صحيح أن العديد من الأشخاص طلبوا منها نشر قصتها، وعندما سألها الـ سير فالنتين شيرول لماذا لا تدون مذكراتها أجابت «لم أستطع، لأن أزواجي وعشاقي سيقرؤونها مثل ما يقرؤون نسخة من الـ Almanch de Gotha «البذيئة».

إن ما حدث في حالة إيزابيل بورتون على الأرجح، هو أن إيزابيل أرادت أن تضع كتاباً حول جين. ونظراً لأنها تعرف بأن جين لن تتعاون معها لتنفيذ هذا المشروع، عمدت إيزابيل إلى تسجيل ملاحظات مفصلة حول ما دار بينهما من أحاديث بعد كل أمسية قضتها معها. وفي اللحظة التي اعتقدت فيها أن جين توفيت، حاولت أن تثبِّت حقوقها في وضع كتاب سيكتب له الرواج، بإعلانها أن جين هي التي طلبت منها ذلك. إن بعث جين أكره إيزابيل بورتون على الصمت للأبد.

بعد تلك الحادثة عاشت جين ديغبي المصرب ثماني سنوات. أصبحت أكثر انعزالاً، تمضي وقتها مع زوجها وبعض الأصدقاء المقربين، حتى جاء اليوم الذي حبستها في غرفة نومها بدمشق إصابة بالزنطارية. وقد استسلمت للمرض نهائياً خلال شهر آب عام ١٨٨١ ودُفنت في بقعة أرض خاصة بالبروتستانت في مقبرة يهودية. وحمل صليب قبرها كلمتين فقط «مدام ديغبي». وتحتهما خط زوجها بيده آية من القرآن.

تركت في وصيتها مبلغ ألفي جنيه وبعض القطع الماسية إلى طفلها المفضل بارون هربرت فيننغن، وخاتم تركواز ومحبرة لشقيقها المفضل كينيلم. وتركت جميع ممتلكاتها الأخرى ـ المنزل والإسطبلات والحدائق والمجوهرات والمال ـ إلى زوجها «إلى زوجي رمز الاحترام والتقدير».

استلم مِجْوَل التركة النقدية في صرر مرتبة تحتوي كل صرة على خمسمئة جنيه ذهبي، وبعد موته وُجد العديد من تلك الصرر غير مفتوحة تحت سريره. لم يتزوج ثانية. كانت جين حياته.

في المقبرة اليهودية بدمشق رقدت مرتاحة.

وفي صفحات «ليدي أرابيلا» لـ بلزاك ظلت تواصل وجودها الصاخب. لكن جين إيلينبورو وجدت أخيراً السلام في قبرها حيث ترقد مدام ديغبي للأبد.

الكتاب الثاني

البطلة كـ فضيحة

الحياة ـ الواقعية
إيما بوفاري

لم لا تكتب قصة ديلمار؟

لويس بوليه إلى غوستاف فلوبير

استوحت مدام غوستاف فلوبير، إيما بوفاري ـ «الصورة الأكمل لامرأة تعرفت إليها في كل الأدب وبضمن ذلك أدب شكسبير وبلزاك»، هكذا دعاها الناقد الأدبي إميل فاغيه ـ استوحت من حادثة وقعت حين كان فلوبير في الثلاثين من عمره وغير أكيد من مستقبله الأدبي.

حتى ذلك الوقت كان مجرى حياته مضطرباً وغير واعد. وقد كتب يقول «ذهبت إلى المدرسة حين كان عمري عشر سنوات. وسرعان ما انتقلت إليّ عدوى الكره العميق للجنس البشري». قاسى فلوبير في سنوات تكوينه وقوعه في حب امرأة متزوجة عمرها ضعف عمره، وقاسى دراسة القانون في باريس، وقاسى نوبات الصرع.

بعد أن اشترى والده الطبيب الجراح الناجح قصراً قديماً يطل على نهر السين، اتجه اهتمامه نحو الكتابة. كان يكتب طوال ست ساعات في اليوم، على مدى تسعة أشهر، في مكتبه المطل على السين، ويمضي

الأشهر الثلاثة المتبقية من العام في باريس بحثاً عن التجربة. وقد بدأت واحدة من خبراته تلك حين قابل الشاعرة لويز كوليت. كانت كوليت جذابة إلى درجة كبيرة، ذات شعر أشقر وعينين واسعتين رقيقتين وكانت ذات زوج وعشيق في الوقت الذي قابلها فيه فلوبير. وخلال شهر أصبحت خليلته. بعد ذلك، وطوال سنوات، كانت مراسلته المخلصة، ووجدانه الأدبي، وفي النهاية خراب وجوده.

في عام ١٨٥١، بعد رحلة قام بها إلى مصر وفلسطين واليونان، وضع فلوبير المسودة الأولى لروايته «إغراء سانت أنطوني». وبعيد اتمامها استدعى اثنين من أصدقائه المقربين، مكسيم دو كامب، محرر ريفيو دو باريس، ولويس بوليه، شاعر ريفي خجول. أخبرهما فلوبير بأنه سيقرأ عليهما مخطوط عمله الأجد. وطوال أربعة أيام قرأ عليهما بصوت عالٍ مخطوط روايته. وبعد أن أنهى قراءته في منتصف الليل، انتظر رأيهما. قال واحد منهما بفظاظة «نعتقد بأنه ينبغي عليك أن تحرقه، وألا تتحدث عنه ثانية».

في اصيل اليوم التالي اجتمع فلوبير، وهو محبط تماماً، بصديقيه دو كامب ولويس بوليه في الحديقة. وشكا لهما عقمه الفني. كان في ذهنه العديد من الأفكار التاريخية الجديدة، لكنه لم يكن واثقاً من قيمة أية واحدة منها. ولم تكن لديه الرغبة في العودة إلى طاولة مكتبه. لقد فكر بأن ما يريده كان موضوعاً طازجاً. عندئذٍ قال دو كامب «خذ موضوعاً عادياً، حادثة من الحوادث التي تمتلئ بها الحياة البورجوازية، وأكره نفسك على معالجتها بطريقة طبيعية». أجابه فلوبير بحدة بأنه لا يعرف شيئاً من حوادث الحياة البورجوازية. عندئذٍ قاطعه لويس بوليه فجأة وقال متسائلاً «لم لا تكتب قصة ديلمار؟».

صاح فلوبير «الآن ثمة فكرة!» ثم تابع بوليه حديثه. لقد اعتزم سابقاً اقتراح موضوع ديلمار على فلوبير. فقد أثاره الموضوع أول مرة حين زار والدة فلوبير في وقت كان فيه فلوبير خارج فرنسا. ولدى وصول بوليه إلى كروازيه وجد ضيفاً آخر، امرأة ريفية كهلة وحزينة قُدمت إليه باسم مدام ديلمار. كانت تعيش في فقر مدقع بقرية مجاورة، ترعى حفيدتها الشابة التي تُركت في عهدتها. كان ابنها قد انتحر حديثاً، ونظراً لأن ابنها درس ذات مرة على يدي الدكتور فلوبير، فقد كانت تبحث عن العزاء لدى أرملة الجراح الشهير. ومنذ أن تعارفا احتفظ بوليه بصورة السيدة في مخيلته، لتذكره بمأساة أسرة ديلمار.

تساءل بوليه متعجباً: ترى هل يتذكر فلوبير المأساة؟ أجابه فلوبير بأنه يتذكر. وهكذا بدت قصة ديلمار موضوعاً محتملاً بالنسبة لـ فلوبير. وقبل أن يبدأ بكتابة مدام بوفاري في أيلول عام ١٨٥١ التي استغرقت كتابتها أربع سنوات ونصف بحث فلوبير بتعمق عن خلفية الحياة الحقيقية لنموذجه الأصلي .

ما الذي عرفه فلوبير عندئذٍ؟

كان يوجين ديلمار طالب طب يدرس الجراحة على يدي والد فلوبير. وكان في فترة الدراسة طالباً عادياً، وقد فشل في العديد من الامتحانات الحاسمة، ولم يكن لديه موارد تمكنه من الحصول على تعليم خاص أو تمديد فترة تدريبه في المشفى. ولما لم يستطع نيل الدبلوم أصبح ديلمار مأمور صحة.

بعد ذلك بوقت قصير تزوج أرملة تكبره في العمر، وعمل موظف صحة في منطقة ريفية تدعى ري. وعندما توفيت زوجته وأصبح وحيداً

راح يبحث عن رفيق آخر.. عندئذٍ قابل فتاة جذابة في السابعة عشرة من عمرها تدعى دولفين كوتوريبه.

كانت دولفين ذات شعر أشقر ناعم، وعينين تبدوان وكأنما تتغير ألوانهما حسب الضوء، وجسد متناسق. وقد وصفها فلوبير في روايته بإسهاب. كانت الابنة الأصغر لواحد من مرضى ديلمار، وهو مزارع يعيش في رخاء، وتعلمت في دير في روان، وقد امتلأ رأسها بالأحلام التي تثيرها الروايات الرومانتيكية والمجلات الدورية. وفي السابع من آب عام ١٨٣٩ غدت دولفين كوتوريبه مدام ديلمار الثانية، على الرغم من اعتراضات والدها الذي أراد صهراً لديه ممتلكات أكثر. في البدء كانت دولفين تعتقد بأنها تزوجت رجلاً بارزاً. لكنها سرعان ما اكتشفت أن ديلمار قليل الشأن مضجر وثقيل الظل. وقد عكس فلوبير مشاعر دولفين عندما بدأت تنفر من د. شارل بوفاري. كانت مدام بوفاري تحلم بأن تحظى بعشيق مندفع مثير. وبدلاً من ذلك تزوجت مغفلاً. كان حديثه «مسطحاً مثل رصيف الشارع... إنه لا يستطيع السباحة، لا يستطيع المبارزة والإمساك بسلاح ناري... أصبحت مشاعره عادية، يعانقها في أوقات محددة. وأصبح العشاء وما يعقبه غير محتمل. يتحدث عن جميع الذين قابلهم واحداً بعد الآخر، وعن القرى التي زارها، وعن الوصفات التي كتبها، ويحلو له أكل كل ما تبقى من اللحم، يلتهم الجبن، يمضغ تفاحة بجلبة، يفرغ كأس النبيذ، ثم يذهب إلى الفراش، يستلقي على ظهره ويشخر».

كانت كثيراً «ما تردد، حين تكون وحدها وقت الأصيل: يا إلهي، لم تزوجت؟ وتتساءل عمّا إذا لم يكن ثمة فرص للقاء رجل آخر؛ وتحاول

أن تتخيل تلك الأحداث التي لم تحدث، تلك الحياة المختلفة، ذلك الزوج الذي لم تعرف. لا أحد، في الواقع يحمل أي شبه بذلك الرجل. إذ سيكون وسيماً وفطناً ومتميزاً وجذاباً، مثل أولئك الرجال الذين تزوجوا رفيقاتها السابقات في الدير. ما الذي يفعلونه الآن؟ في المدينة وسط أصوات الشوارع وهمهمات المسارح المشوشة وأضواء الحفلات الراقصة يحيون نوعاً من الوجود فيه يتوسع القلب وتتفتح الأحاسيس. لكن الحياة بالنسبة إليها باردة مثل سقيفة تواجه نافذتها الشمال، ضجرة، عنكبوت صامت يغزل شباكه في ظل كل زاوية من زوايا قلبها».

ما العمل؟ هل سيدوم هذا البؤس للأبد؟ هل كُتب عليها ألا تتخلص منه؟ في فوبيسار رأت دوقات خصورهن أكثر سمنة، وسلوكهن أكثر عامية، ولعنت ظلم الرب؛ سوف تسند رأسها إلى الجدران وتبكي؛ كان بها توق إلى الحياة الصاخبة، إلى حفلات الرقص التنكرية، إلى المباهج المتغطرسة التي لم تختبرها... كانت في أعماقها تنتظر شيئاً قد يحدث، وكانت تبحث مثل سفينة غارقة، عن شراع أبيض في الأفق... لكن لم يحدث لها شيء، هي ذي إرادة الله! كان المستقبل بالنسبة لها دهليزاً مظلماً أحكم إغلاق بابه».

كل ذلك أتى من معرفة فلوبير ومن ملاحظة دولفين ديلمار التي فهمها فلوبير تماماً. ومع ذلك فإن دولفين، في حياتها الحقيقية، رفضت أن يظل الباب في نهاية الدهليز المظلم مغلقاً. لقد قررت أن تفتحه عنوة وتهرب. وفي مقابل احتقارها المتنامي لزوجها البورجوازي وللحياة السخيفة التي وفرها لها، ثمنت دولفين عالياً فطنتها وجمالها وآمنت بإمكان تحول أحلام يقظتها إلى حقيقة. قررت بتهور أن تكتشف عالماً أكثر إثارة، وأن تحقق وجودها.

بدأت تبالغ في إنفاق المال على الألبسة دون أن يعلم ديلمار بذلك، لذا سرعان ما تراكمت عليه الديون. وعندما فقدت طقوس الشراء إثارتها، بدأت بإغراء الرجال. في البداية ارتكبت الزنى مع جار لها يدعى لويس كامبيون، ثم مع عامل المزرعة، ثم مع كاتب العدل ذي المنزلة الرفيعة، ثم مع العديد من الموظفين الشبان ـ ثم مع أي شخص. وقد كتب فلوبير في روايته: «لقد بدأت تعيد إلى ذهنها بطلات الكتب التي قرأتها، وبدأ هذا الفيلق من النساء الزانيات يغرد في ذاكرتها».

وفي الخفاء، في الحقول والفنادق والغرف الخلفية، لبّت دولفين ديلمار رغبات عشيق تلو العشيق. أهملت زوجها وابنتها الصغيرة وأصدقاءها وجيرانها وحضور القداس بسبب انغماسها في الشهوات.

حاولت السيدة العجوز ديلمار تحذير ابنها. لكنه كان يعبد زوجته الشابة ولم يكترث بتلميحات أمه الواضحة. ونظراً لأن شبق دولفين الشديد لم يهدأ، بدأت تعاني مشاكل في الحصول على العشاق، وكان هؤلاء الذين حصلت عليهم مخيبين للآمال. كانت دولفين تسعى لملء ساعات فراغها بعدة طرق. وكما ذكر أحد جيرانها «كانت تختار يوم الجمعة لتمثل دور السيدة الجليلة. تُسدل الستائر وتوقد الشموع وتنتظر زواراً لا يحضرون». فيعود الحزن ليغمرها من جديد.

وأخيراً، وفي فجر السادس من آذار عام ١٨٤٨، في السنة التاسعة لزواجها، عندما أفلس زوجها، وتضاءل الإعجاب بها، تناولت دولفين جرعة مميتة من الزرنيخ. وكما ورد في إحدى القصص، استيقظت ابنتها وسألتها عما فعلت فرفضت إخبارها عن السم الذي تجرعته، وعندما توسلت إليها وهي جاثية على ركبتيها... عندئذٍ أخبرتها الحقيقة. بعد ذلك فارقت الحياة.

لقد ارتابت الدكتورة ستاركي في رواية موت دولفين ديلمار، ملمحة بأنها حالة أخرى من الحالات التي تقلد فيها الحياة الفن. وبكلمات أخرى، ما إن أصبح انتحار إيما بوفاري الخيالي معروفاً على نطاق واسع، اتفق مؤرخو الأدب على أن نموذجها الأصلي (دولفين ديلمار) كان ينبغي أن ينتهي بذات الطريقة. كتبت ستاركي. «ليس ثمة دليل على انتحار دولفين ديلمار. فعلى الرغم من أن جميع التقارير تنص الآن على أنها فعلت ذلك، فإن شهادة الوفاة التي نشرت في (النورماندي ميديكال) لم تتضمن سبب الموت، وهي مؤرخة في ٧ آذار عام ١٨٤٨، وتنص فقط على أنها توفيت في ري في الثالثة صباحاً من اليوم السابق، وهي في السابعة والعشرين من عمرها. لم يكن ثمة تحقيق حول سبب الوفاة، ولم تذكر أية صحيفة احتمال الانتحار».

كان فلوبير مقتنعاً بأن قصة ديلمار هي وسيلة لصقل مواهبه الأدبية. كان يكره الرومانتيكية الهدامة والنوعية المتوسطة لبورجوازيي الأقاليم. وكان يعرف النورماندي، ويعرف أولئك الناس. لكن أمرين أزعجاه. كانت القصة سوقية، والشخصيات عادية مبتذلة. ومع ذلك لم يستطع فلوبير مقاومتها. وقد أمتثل لتوسلات أمه بألا يشير إلى أنه استخدم أسرة ديلمار نماذج له، فشكل شخصيتي إيما وشارل بوفاري مبعداً أسرة ديلمار.

سارت الرواية ببطء، ست صفحات في الأسبوع. كتب فلوبير لـ لويس: «آه من القلم، يا له من مجذاف ثقيل». لقد عمل سبع ساعات في اليوم، كل يوم، طوال ٥٥ شهراً. وقد درس نوع الروايات الرومانتيكية التي ربما قرأتها إيما بوفاري. وحاول معرفة التأثيرات

الفعلية التي تنتج عن التسمم بالزرنيخ. ومن حين إلى آخر كان عمله في الرواية يصيبه بالمرض. وقد قال: «عندما كنت أصف تسمم إيما بوفاري، كنت أحس طعم الزرنيخ في فمي، وقد عرّضني ذلك إلى هجمات سوء الهضم، وحدث أن تقيأت مرتين طعام العشاء كله». وفي أوقات أخرى كان يصاب بالغم ويغلبه التأثر العاطفي أثناء الكتابة: «الأربعاء الأخير اضطررت للتوقف عن الكتابة لأبحث عن منديلي، إذ كانت الدموع تنساب على وجهي». وتشهد مخطوطة الرواية الأصلية، الموجودة حالياً في مكتبة المجلس البلدي في روان، على الجهد المضني الذي بذله في كتابتها، فقد كتب ١٧٨٨ صفحة من القطع الكبير، ومسودة العمل الأخير لا تتجاوز الـ ٤٨٧ صفحة.

سمح فلوبير لـ مكسيم دو كامب أن ينشر الرواية في الـ «ريفيو دو باريس» على ستة أقسام ما بين تشرين الأول وكانون الأول من عام ١٨٥٦. وقد أثار نشر الرواية عاصفة. يقول دو كامب: «ما إن ظهرت الفصول الأولى حتى ثار المشتركون غضباً، وصاحوا قائلين إن الرواية فضائحية ولا أخلاقية. كتبوا لنا رسائل يتهموننا بتشويه سمعة فرنسا، وبأننا ألحقنا بها الخزي أمام أعين العالم. ماذا! هل ثمة أمثال تلك النساء؟ نساء يخدعن أزواجهن، يراكمن الديون، يقابلن عشاقهن في الحدائق والفنادق؟ أأمثال تلك المخلوقات يعشن في بلدنا الحبيب، في الأقاليم حيث الحياة نقية جداً؟ مستحيل!».

كان سبب الضجة العامة التي ثارت هو واقعية الرواية. وقد كتب فلوبير معترضاً: «يعتقد الجميع بأنني مغرم بالواقعية، في حين أني أبغضها، وقد دفعني بغضي لها إلى وضع هذا الكتاب. ولكني في

الوقت ذاته أحتقر ذلك النوع من المثالية الكاذبة التي أعدها زيفاً أجوف في الزمن الحاضر».

طالب المثاليون الحكومة الفرنسية بحظر الكتاب. وهكذا أُحيل فلوبير واثنان ساهما في طبع الكتاب ونشره إلى المحاكمة بسبب كتابة عمل إباحي يسيء إلى الدين ونشره. كان التحقيق الأوَّلي موجزاً، وأقرت المحكمة أن «ليس ثمة إثباتات كافية تدين فلوبير ومن معه بجرم ارتكبوه؛ لذا قررت تبرئتهم من التهم الموجهة إليهم، ورفض الدعوى دون تحميلهم نفقاتها».

أصبحت «مدام بوفاري» حرة، واقترح ميشيل ليفي نشر الرواية في مجلدين. وخلال شهر نيسان عام ١٨٥٧ ظهر الكتاب الأول من الرواية، وبيع منه في غضون ٦٠ يوماً ١٥ ألف نسخة. كان ثمة نُقَّادٌ عابوا الرواية، لكن القسم الأكبر منهم هللوا لها. وقد أعلن سانت ـ بيف أن لدى فلوبير أسلوباً خاصاً به، واعتقد شارل بودلير بأن الرواية معجزة، وأرسل فيكتور هوغو تهانيه الحارة.

ومضت الرواية، طبعة وراء طبعة، وغدت واحدة من الأعمال الكلاسيكية الهامة في الأدب.

واليوم، في قرية ري، تخلد البطاقات البريدية الابنة الآثمة التي تدعى دولفين ديلمار. واليوم، تُعلق في متحف روان صورتان لشابة أخاذة رسمها فنان المحكمة. واحدة منهما تدعى «ريغوليت»، والثانية «فينيسية في حفلة رقص تنكرية»، وكلتاهما تمثلان، طبقاً للتقليد، دولفين ديلمار.

لم يكن بمقدور دولفين ديلمار معرفة ذلك، لكنها أحرزت بموتها معظم أحلامها الرومانتيكية.

سيدة الكاميليا البيضاء

هكذا، أنت واقع في حبي؟ قلها دون
تردد، إنها بسيطة إلى أبعد حد.
ماري دوبليسيس

تقريباً في ذات الوقت الذي كانت فيه الزانية الريفية، التي تسببت في ظهور «مدام بوفاري»، تبذل جهوداً مضنية للهرب من أسر قريتها الوضيعة في النورماندي، كانت المومس الأكثر دنيوية تكافح لتحتفظ بوضعها المتقلقل في باريس. إنها ماري دوبليسيس، النموذج الأصلي لـ مارغريت غوتييه بطلة «سيدة الكاميليا»، التي بدأت من موقع أدنى من موقع دولفين ديلمار، وصعدت إلى موقع أعلى.

ولدت روز ألفونسين بليسيس، النموذج الأصلي لـ «سيدة الكاميليا» في قرية في النورماندي الأسفل في ٥ كانون الثاني عام ١٨٢٤. كانت جدتها، من ناحية الأب، مومساً تجوب الشوارع، وجدها قساً فاسقاً. وكان والدها، مارين بليسيس، بائع الأدوات والتقاويم المتجول الذي فتح فيما بعد محلاً لبيع الملابس، سكيراً شهوانياً. أما والدتها، ماري ـ لويس دوشاييه، فقد انحدرت من وسط اجتماعي أكثر

احتشاماً. في السنة الثانية من زواجها التعس ولدت ماري دو بليسيس. وأخيراً تركت ماري ـ لويس زوجها لتعمل خادمة لدى عائلة إنكليزية في باريس، وتركت ماري وأختها عند خال لها يملك مزرعة. عندما بلغت ماري الثامنة توفيت والدتها. بقيت ماري عند خال أمها الذي سمح لها بالتجوال حول المزرعة وفي المنطقة المجاورة. وعند بلوغها الثانية عشرة افتتنت بعامل مزرعة شاب. وفي غضون وقت قصير قيل إنها «تركت عفتها وتنورتها تحت أجمة من العليق في سياج». وعندما علم راعيها بالحادثة أعادها إلى والدها.

كانت ماري في الثالثة عشرة وتعمل أجيرة غسالة، حين انتبه والدها المدمن إلى أن لديها وجه ملاك وجسد سالومي(*). فقرر أن يتكسب من هذه البضاعة. ومقابل مبلغ من المال سلمها والدها إلى بلانتييه صديقه الثري والأعزب الفاسق الذي استخدمها كما شاء ثم أعادها إلى والدها. بعد ذلك عملت خادمة في حانة، ثم مستخدمة في ورشة لصنع المظلات، ثم أرسلها والدها إلى أقرباء له في باريس يملكون بقالية. وعلى الفور استأجرت غرفتين رخيصتين وسط طلاب منحلين يعيشون في الحي اللاتيني. ولتعيل نفسها عملت عند صانع مشدات، ثم موظفة في مخزن قبعات، ثم بائعة هوى تجوب الشوارع.

في هذه الفترة ثمة صورة لها يتذكرها مدير مسرح، وهو شاب مستهتر يدعى نيستور روكوبلان. ففي إحدى الأمسيات رآها واقفة أمام بائع بطاطا مقلية «فتاة جميلة ذات مظهر ناعم وقذرة جداً. كانت تمضغ

* سالومي : ابنة هيروديا رقصت أمام هيرودوس فأعجبته ونالت الأمر بقطع رأس يوحنا المعمدان . (المنجد)

تفاحة خضراء يبدو أنها لا تستسيغها إذ كانت ترغب البطاطا المقلية، فاشتريت لها كيساً منها». وبعد أقل من سنتين رآها روكوبلان مرة ثانية. كانت قد تحولت إلى سيدة شابة رائعة، وكان يرافقها الدوق دو غويشي ـ غرامون الوسيم الذي سيحرز منصباً وزارياً في فرنسا «كانت معه سيدة فاتنة جداً، أنيقة في ملبسها، إنها لم تكن سوى فتاة البطاطا المقلية الصغيرة. وكانت تدعى أنئذٍ ماري دوبليسيس». وقد عللت لاحقاً لصديق من قريتها تحول اسمها من روز ألفونسين بليسيس إلى ماري دوبليسيس قائلة: «اخترت اسم ماري لأنه اسم العذراء، واخترت دوبليسيس لأنه يبدو أكثر أريستقراطية من بليسيس، ولأني تذكرت عزبة كبيرة تُعرف بـ «عزبة دو بليسيس» وأملت أن أجمع من المال ما يكفي لشرائها يوماً ما».

لكن التغير الحقيقي، التحول من فتاة شارع إلى حظية لامعة، كان أكثر غرابة.

كتبت جين براستو، وهي واحدة من الذين كتبوا سيرتها، تقول: «في السادسة عشرة من عمرها كانت مجرد فلاحة خشنة، وكانت بالكاد تعرف القراءة والكتابة. وفي سن العشرين أصبحت سيدة الدماثة والرقة والتفكير الصائب، قرأت هوغو ويوجين سو، وأمتعت مجتمع باريس الراقي، وأبدعت في تحريك صالونات «سان ـ جيرمان»، ودمرت الرجال الأغنى في فرنسا».

كيف تم ذلك؟ لقد انطلقت بداياتها الحقيقية في يوم أحد حين رافقت صديقتين لها في نزهة إلى سان ـ كلود، حيث توقفن في طريقهن لتناول وجبة سريعة في أحد المطاعم الرخيصة قرب «باليه ـ رويال».

أبهر جمال ماري صاحب المطعم الأرمل البدين نولبيه، فدعاها للعودة في الأسبوع المقبل ـ وحدها. وسرعان ما أصبحت خليلته، ثم أسكنها شقة في «رو دو لاركاد». في البداية حصلت ماري على ضرورات الحياة. وفي الشهور التي تلت حصلت على وسائل الترف أيضاً.

في إحدى الأمسيات شوهدت في المسرح بجانب الكونت فيرديناند دو مونجيون، وفي الصباح هجرت صاحبها صاحب المطعم من أجل النبالة.بعد ذلك شوهدت في حفلة راقصة بجانب الشاب الثري أجينور دو غويش، ثم بجانب الدوق دو غويش ـ غرامون، وأخيراً شوهدت مع وزير خارجية فرنسا في عهد الإمبراطور نابليون الثالث. وقد اقترح عليها غويش اقتراحاً أفضل من الكونت، ومضى بها إلى منتجعات المياه المعدنية في ألمانيا لقضاء الصيف. ويُعتقد أنها أنجبت من غويش طفلاً ولد في فيرساي عام ١٨٤١، وأن غويش وضع الطفل عند عائلة تبنته.

بعد فترة استراحة مع غويش، تقبلت ماري دو بليسيس، لكي تحقق أهدافها بسرعة، عدداً كبيراً من العشاق. ووفقاً لصحيفة «الفيغارو» فقد كانت ماري مدعومة، في وقت واحد، من قبل سبعة من المعجبين المتحمسين الذين وضعوا لأجلها أموالاً في صندوق مشترك للاحتفاظ بها، وخصصت لكل واحد منهم ليلة في الأسبوع ليقضيها معها.

الآن أصبح لدى ماري، التي تخرجت من الحي اللاتيني، جناح فخم من عدة غرف في «١١ بوليفار دو لا مادلين»، وقد فُرش وفق طراز لويس الخامس عشر على نحو جذاب ورومانتيكي. وزين مدخله بالنباتات النادرة. وفي الصالون قطع من الأثاث مصنوعة من خشب

الورد، وبيانو فخم ماركة «بلييل». وثمة مجلدات بأعمال موليير ولورد بايرون والأب بريفوست مجلدة بالجلد الفاخر. والغرفة الأكثر أهمية هي غرفة النوم، مكان عمل ماري ومتعتها، التي توسطها سرير عريض وُضع فوق سجادة نفيسة مزينة برسوم الأزهار، وثمة ساعة ضخمة مزخرفة بطيور من البورسلين، يقال بأنها كانت تخص مدام بومبادور.

نحو عام ١٨٤٤، حين كانت ماري في العشرين، كان لديها عشاق كُثر، لكن رجلاً واحداً كان يدفع الكثير لقاء حياة الرفاهية في «بوليفار دو لا مادلين».كانت ماري قد قابلته في منتجع المياه المعدنية في بانيير. إنه الكونت دو ستاكلبيرغ السفير الروسي في فيينا. كان متزوجاً وثرياً في الثمانين من عمره. وقد مثلته فيما بعد شخصية الدوق دو مورياك العجوز في رواية «سيدة الكاميليا». في الرواية يصادق مارغريت غوتييه ويرعاها لأنها تشبه إلى حد كبير ابنة له كان فقدها. كانت علاقتهما الخيالية أفلاطونية. وقد أوضح دوماس أن ذلك لم يكن في الواقع على تلك الصورة: «إن قصة الابنة الشبيهة بـ ماري دوبليسيس هي مجرد اختراع. فالكونت، على الرغم من كبر سنه، لم يكن أوديبوس الذي يبحث عن أنتيغونا، لكنه الملك داود يبحث عن بتشابع(*) Bathsheba».ومع ذلك فإن العجوز الروسي الذي دفع الفواتير وثمن العربات المستوردة والخيول من إنكلترا من أجل ماري، والذي استأجر مقصورات لها في أفضل المسارح الفرنسية، لم يكن قادراً على أن يعطيها الحب الذي تشتهيه. ولإشباع هذا الجانب من رغباتها ـ

* بتشابع : زوجة أوريا الحثي، رآها داود تستحم فأرسل في طلبها، فجاءت إليه ونام معها. ثم أمر بقتل زوجها ثم ضمها إلى بيته، وولدت له سليمان. (الجنس في العالم، القديم، ترجمة فائق دحدوح).

رومانتيكيتها المتطرفة وشهوانيتها العنيفة ـ بحثت في مكان آخر. ومن بين عشاقها الشبان كان الـ فيسكونت إدوارد دو بيريجو البارع هو الأهم. كان إدوارد عضواً في سلاح الفرسان الفرنسي في إفريقيا، وهو الآن عضو في نادي الجوكي في باريس، وقد اعتنى بـ ماري بانتظام حين كان الروسي مشغولاً بزوجته.

وُصفت ماري دو بليسيس حين كانت في العشرينيات من عمرها بأنها طويلة ونحيلة ذات شعر أسود وبشرة بيضاء مشربة بالأحمر الوردي. كان رأسها صغيراً ولها عينان طويلتان لامعتان مثل عيني يابانية، وشفتان حمراوان وأسنان جميلة، كانت تبدو مثل تمثال من الخزف الصيني. وقد احتفظ وجهها الفاتن بنظرة العذراء المروَّعة. وعندما تساءلت الممثلة جوديت برنات «لم احترفت ماري دو بليسيس الدعارة؟» أخفت ماري وجهها، ثم أعادت السؤال محاولة الإجابة عليه: «لماذا أبيع جسدي؟ لأن كدح الفتاة العاملة لا يحقق لي الرفاهية التي أتوق إليها بشدة. وعلى الرغم من الظواهر أقسم لك بأني لست طامعة بما للغير ولا مفسدة. أود أن أعرف لمسات التذوق الفني ومباهجه، فرح الحياة في المجتمع المثقف والأنيق. غالباً ما اخترت أصدقائي بنفسي. وقد أحببت. آه، نعم أحببت بإخلاص، لكن لا أحد استجاب لحبي. ذلك رعب حياتي الحقيقي. من الخطأ أن تملكي قلباً حين تكونين مومساً. ذلك مميت».

لقد هزت مشاعر الرجال بصراحتها وباندفاعاتها المرحة وبذوقها وضعفها الجميل. وفوق كل ذلك، بسأمها من الدنيا الذي سببه عبث وجودها ونوبات الضعف المتكررة بسبب إصابتها بالسل. ومع ذلك، فقد استمتعت بألبستها وبخدمها وبكلبيها وبنزهاتها في الريف وبحضورها

عروض الأوبرا والمسرح.وقد استمتعت أيضاً بالشراب والمقامرة والقصص غير المحتشمة. وقد أقامت حفلات عشاء حضرها يوجين سو وأونوريه دو بلزاك وتيوفيل غوتييه ـ أحياناً حضرها المشاهير من زوار باريس مثل لولا مونتز. ومع ذلك فقد تاقت إلى العزلة والطمأنينة والحب الحقيقي، لكنها لم تحصل أبداً على ماتاقت إليه.

رآها ألكسندر دوماس الابن أول مرة عام ١٨٤٢ حين كان خائباً في الثامنة عشرة من عمره، وكانت ماري في الثامنة عشرة وسيئة السمعة. كان يتمشى في أصيل أحد الأيام في «بالاس دو لا بورس» حين توقفت عربة يجرها فرسان عند حافة الطريق. نزلت من العربة ودخلت مخزناً. كانت ترتدي قبعة قش إيطالية وشالاً من الكشمير وثوباً من الموسلين الهندي. وكانت تجر كلبيها وتحمل في يدها باقة من أزهار الكاميليا. كانت ابتسامتها رائعة. وقد افتتن بها دوماس فوراً. لكن أمله في التقرب منها كان ضعيفاً. فقد كانت دمية المليونيرات وأميرة المتعة المحبوبة التي تُوِّجت بالقوة. أما هو فكان ابناً غير شرعي لأب عظيم، ولا شيء غير ذلك. كان يكافح ليغدو كاتباً في ظل والده، فقد كان دوماس الأكبر استثنائياً وغير عادي. كان يتبجح بأنه أنجب خمسمئة طفلٍ، وقاتل في عشرين مبارزة، وكتب ما يكفي لملء مئات المجلدات (بضمنها الكونت دي مونت كريستو والفرسان الثلاثة)، وكسب وأنفق ما يعادل خمسة ملايين دولار. كان دوماس الأب قد عرف كيف يتمكن من ماري دو بليسيس، وكان دوماس الابن لا حول له ولا قوة.

ومع ذلك ففي غضون سنتين قابل ماري وجعلها خليلته، ومن خلالها حصل على الشهرة والثروة. «ذات يوم رائع من أيام أيلول عام

١٨٤٤ ذهبت إلى سان ـ جيرمان لرؤية والدي، وفي طريقي إلى هناك قابلت يوجين ديجازيه، وهو ابن ممثلة شهيرة. انطلقنا معاً نحو غابة سان ـ جيرمان الجميلة، وعدنا إلى باريس للغداء، ثم ذهبنا إلى الـ فاريتيه(*) وجلسنا نشاهد العرض. كانت ماري دو بليسيس في مقصورتها إلى الجانب الأيمن. كانت تبدو وحدها، وبالكاد تتابع العرض، تنظر حولها مبادلة الابتسامات والإيماءات مع ثلاثة أو أربعة من جيراننا، وبين وقت وآخر تميل إلى الوراء لتتحدث مع رجل محجوب في مقصورتها، الذي لم يكن سوى الكونت الروسي الهرم.

عندئذٍ تلقّى دوماس ضربة حظ. فقد لوحت ماري بيدها إلى امرأة جالسة في مقصورة تواجه مقصورتها. كانت هذه كليمانس بارت، صانعة قبعات تسكن بالقرب من ماري، وغالباً ما تلعب دور قوادة ماري. كان مرافق دوماس يعرف السيدة بارت فذهب للتحدث معها، ثم عاد يحمل أنباءً مثيرة. بعد المسرح سيأخذ الكونت دو ستاكلبيرغ ماري إلى جناحها، وسيغادرها فوراً. لذا عليهما الانتظار في الشارع ثم الانضمام إلى ماري والسيدة بارت للعشاء في جناحها.

كان الوقت منتصف الليل حين دخل دوماس وصديقه الصالون الفخم. كانت ماري بعباءتها المطرزة بجانب البيانو. قُدِّمت الشمبانيا ثم العشاء. سردت السيدة قصة فظة، فضحكت ماري ثم انتابتها نوبة من السعال وهرعت إلى غرفتها. تبعها دوماس. وحين تحقق من مرضها سألها عما إذا كان باستطاعته متابعة رؤيتها للاهتمام بها. ما حدث بعد ذلك رواه دوماس بأمانة، كلمة كلمة، في روايته. فكرت ماري أو

* Variétés ، منوعات : مشهد مؤلف من تمثيل ورقص وألعاب بهلوانية . (المنهل)

مرغريت ملياً وهي تتأمله ثم قالت «هكذا، أنت واقع في حبي؟ قلها دون تردد، إنها بسيطة إلى أبعد حد».

«من الجائز؛ ولكن إن كان ينبغي عليَّ أن أقولها في يوم ما، فلن يكون هذا اليوم».

«يستحسن، ألا تقلها أبداً؟».

«ولم؟».

«لأنه سيترتب على ذلك أحد أمرين... إن لم أوافق، فسوف تحقد عليَّ؛ وإن وافقت، فسوف تحظى بخليلة خائبة الرجاء، امرأة قلقة ومريضة وحزينة، امرأة تبصق دماً وتنفق مئة ألف فرنك سنوياً. وذلك جيد بالنسبة إلى رجل عجوز ثري مثل الدوق، لكنه سيئ إلى حد بالنسبة لشاب مثلك،والدليل على ذلك، جميع العشاق الشبان الذين اتخذتهم سرعان ما تركوني».

دامت علاقتهما المضطربة سنة واحدة، وانتهت كما تنبّأت. فبعد شهور من مرافقتها للحفلات الراقصة ولكازينوهات المقامرة، وبعد أن قدم لها الهدايا الثمينة، لم يعد دوماس يملك أية مدخرات مالية. حاول أن يجرب حظه في لعبة البكاراه لتعويض ما فقد، فخسر القليل الذي تبقى. استدان وركبه الهم. لقد أصبح غيوراً إلى حد الجنون من الكونت الروسي، وأصر على أن تتخلى عنه، وافقت شرط أن يدفع دوماس جميع الفواتير. بعد ذلك لاذ بالصمت.

في غضون ذلك استفحل مرضها. فلجأت إلى المنومين المغنطيسيين، منهم الدكتور دافيد ـ فيرديناند كورف الشهير، المشعوذ الذي عالج ستاندال وجورج صاند، وقابل هايني ودولاكروا، والذي دعاه تاليران

«بالشيطان». لكن وصفات الدكتور كورف الغريبة، ومعالجاته التي تتضمن المغنطيسية الحيوانية، والتنويم المنغنطيسي، لم تُجْدِ نفعاً. عندئذٍ، وبإلحاح من دوماس، هجرت ماري حياة الليل والشمبانيا. وذهبت معه في نزهات صيفية، وشربت حليب الماعز. وفي إحدى المرات رافقته إلى الريف، لكنها، في غضون أسبوع، ضجرت من الهدوء والهواء النقي والقرب من الطبيعة. فغادرت إلى باريس، إلى فجورها القديم. وفي إحدى الأمسيات، بعد أن اشتكت الإجهاد الشديد، انتبه دوماس إلى عشيق جديد يدخل غرفتها.

وفي غضب بارد خط لها دوماس رسالة قصيرة:

عزيزتي ماري

أنا لست غنياً بالقدر الذي يكفي لأحبك كما أرغب، ولست فقيراً بالقدر الكافي لأكون محبوباً مثلما ترغبين. ومع ذلك دعينا ننسَ أنك اسم لا بد أنه غير هام تقريباً بالنسبة إليك، وأنا السعادة التي أصبحت مستحيلة بالنسبة لي. لا داعي أن أخبرك كم أنا آسف، لأنك تعرفين مدى حبي لك. وداعاً إذن. لديك قلب رقيق جداً لا ليعرف لماذا أكتب هذه الرسالة، وفهم كبير لا ليغفر لي كتابتها.

أ. د.

بعد مدة طويلة من وفاة ماري استرد دوماس هذه الرسالة من مزاد علني، وقدمها لسارة برنار التي مثلت شخصية مارغريت في مسرحيته، كما أعطاها نسخة من الرواية التي بناها على قصة علاقته بـ ماري دو بليسيس.

حين استلمت ماري رسالة دوماس لم تجب بشيء. وسرعان ما

أصبحت منشغلة جداً ومريضة جداً لتعيرها اهتماماً. وقد تبقى لها من الحياة ١٧ شهراً عاشتها تماماً.

كان فرانز ليست(*)، ابن الثلاثين ومعبود أوربا، في باريس لتقديم سلسلة من الحفلات. وفي ردهة أحد المسارح، بين فصول المسرحية، شاهدت ماري موسيقياً وقدمت نفسها إليه. بقيا في الردهة يتحدثان طوال الفصل الثالث. وقد روى صديق ليست، الذي كان شاهداً على اللقاء، أن الموسيقي كان مفتوناً بها. لقد أنصت إليها «بانتباه بالغ» متمتعاً بـ «روعة تدفق الحديث المليء بالأفكار، هذا النمط من الحديث كان بليغاً وحالماً طوال الوقت». بعد ذلك أصرّت ماري على طبيبها الذي يعرف ليست أن يأتي به إلى واحدة من حفلاتها. أطاعها الطبيب، وحضر ليست، وفي نهاية الأمسية. كان ليست آخر فتح لها.

كان ليست يدعوها ماريت، وقد أحبها بعمق، وهي أيضاً أحبّته. وقد اعترف مرة لخليلة أخرى بأن ماري دو بليسيس «كانت المرأة الأولى التي أحبها». وأخبر كاتب سيرة حياته، يانكا فوهل، بأن رفقة ماري كانت أفضل ما وجده في باريس.

حين استعد ليست للسفر في جولة فنية، كتبت له ماري: «أنا أدري بأنني لن أعيش. أنا فتاة من النوع الغريب. لا أستطيع المضي في هذه الحياة التي هي بالنسبة لي النمط الوحيد الذي أعرف كيف أعيشه ولا أستطيع تحمله. خذني بعيداً. خذني إلى أي مكان تريد. سوف لن أزعجك. أنام طوال النهار، وفي المساء أمضي إلى المسرح، وفي الليل يمكنك أن تفعل بي ما تشاء». وعدها أن يأخذها معه في السنة التالية

* فرانز ليست (١٨١١ ـ ١٨٨٦) : مؤلف موسيقي هنغاري وعازف بيانو شهير . (المترجم)

إلى تركيا، لكنها كانت مريضة جداً في ذلك الوقت. وبعد سفره في هذه الجولة، لم يرها مرة ثانية. وحين فات الأوان أسف لأنها ليست بجانبه وقال: «سأبذل قصارى جهدي لكي أنقذها بأي ثمن».

في غضون ذلك توسل إليها مُحْسِنها العجوز فيسكونت دو بيرغو أن تصرف جميع عشاقها. أجابته:«هل تود أن تلحق بيَ الأذى؟ أنت تعلم جيداً أن اقتراحك سيدمر مستقبلي، الذي تعتزم أن تجعله بائساً حزيناً». فأوضح لها دو بيرغو أن اقتراحه يعني الزواج. ولما كانت خائفة من أن يهجرها أصدقاؤها في أسوأ أطوار مرضها، ذهبت مع دو بيرغو إلى لندن، وتزوجا في ٢١ شباط عام ١٨٤٥. لكن محاولتها لكسب الاحترام أحبطها القانون. فبما أن دو بيرغو خشي من أن يعترض أفراد أسرته إن عرفوا بمن تزوج، لم يكن ثمة إعلان بالزواج. ونتيجة لذلك لم يُعترف بشرعية الزواج في فرنسا. إضافة إلى ذلك لم يكن الزواج يعني شيئاً بالنسبة لـ ماري، ولم تستطع تحمل دو بيرغو، لذا فقد تركته، ومع ذلك احتفظت بلقب كونتيسة، وطبعت بأحرف كبيرة شعار نسب دو بيرغو على ورق الكتابة الخاص برسائلها.

حين أرهقتها نوبات السعال، ودب الضعف في جسدها، ذهبت إلى فايسبادن للاستشفاء. وهناك لم تجد أحداً بجانبها، فعادت إلى باريس وسلمت أمرها إلى طبيبين شهيرين، أحدهما أوغست ـ فرانسوا الذي سهر على صحة ملك فرنسا لويس ـ فيليب، والآخر كاسيمير جوزيف دافين الذي كان أول من اكتشف أن البكتريا تسبب الأمراض، والذي كان محط إعجاب باستور. وقد حاول الاثنان مساعدتها. وقد تضمنت إحدى وصفاتهما الإرشادات التالية: على السيدة دو بليسيس تدليك إبطيها

بمرهم يوديد البوتاسيوم، وأن تشرب لبن الحمير المحلى بعصير السرخس، ومزيجاً من لبن اللوز الحلو والمر من أجل أن تنام، وعصير «الكرابي» لتخفيف حدة السعال...إلخ.

ومع ذلك ظلت ضعيفة. ومثل حجر كريم شاحب ومحموم ظهرت في المسرح للمرة الأخيرة حاملة أزهار الكاميليا. فبدت كأنها قادمة من قبرها. لم ينسها دو بيرغو، وحين اقتربت ساعة موتها طلبت منه الصفح.وقد ظل بجانب سريرها وهي مستلقية تحدق في صورة العذراء. وحين أفاقت وميزت فيسكونت همست: أتيت لتراني، الوداع، إني راحلة». جاء القسيس ومنحها الأسرار المقدسة الأخيرة، وغادر. وقد روى تيوفيل غوتييه البقية:«طوال ثلاثة أيام، يخامرها إحساس بأنها تنزلق في حفرة عميقة، تمسكت بشدة بيد ممرضتها وكأنها لا ترغب في الرحيل. لكنها أجبرت في النهاية على الرحيل حينما جاءها ملاك الموت. وفي جهد الشباب الأخير، المرتد خوفاً من الدمار، وقفت على قدميها وكأنها تريد الفرار، ثم أطلقت ثلاث صرخات مدوية وسقطت إلى الأبد».

في الثالثة صباحاً من يوم الثالث من شباط عام ١٨٤٧ توفيت ماري دو بليسيس وهي في الثالثة والعشرين من عمرها. أُقيمت صلوات الجنازة في كنيسة مادلين. مُددت في تابوت تحيط جثمانها أزهار الكاميليا. وبعد أقل من أسبوعين أخرج دو بيرغو التابوت من القبر ووضعه في قبر أفضل كان قد اشتراه. ونقش على رخام قبرها: هنا ترقد ألفونسين بليسيس / المولودة في كانون الأول عام ١٨٢٤ والمتوفاة في الثالث من شباط عام ١٨٤٧.

بيع جميع ما ملكته من متاع، وبضمن ذلك الكتب ورسائل الحب،

في مزاد علني. وبعد خمسة أشهر بدأ ألكسندردوماس الابن بكتابة روايته الشهيرة «سيدة الكاميليا». كانت بطلة الرواية ماري دو بليسيس التي أطلق عليها في الرواية اسم مارغريت غوتييه. وكان البطل ـ الذي دُعي في الرواية أرماند دوفال، هو ألكسندر دوماس نفسه. وقد أنهى دوماس الرواية في غضون أربعة أسابيع. نُشرت الطبعة الأولى عام ١٨٤٨، وبلغ عدد نسخها ١١ ألف نسخة. وقد بيعت فوراً. وقد اقترح أحدهم على دوماس أن يحولها إلى مسرحية. وقد استغرق تحويلها إلى مسرحية ثمانية أيام فقط ثم قرأها على والده الذي تأثر بها حتى البكاء. ثم أخذها إلى المسرح. قبلتها هيئة المسرح الإدارية، ولكن قبل البدء بعملية إنتاجها، أفلس المسرح. وتخلّى دوماس عن المشروع.

وفي ليلة عيد رأس السنة لعام ١٨٥١ كان دوماس يتمشى تحت المطر وحيداً، فقادته قدماه إلى مقبرة مونتمارتر. دخلها وجلس أمام قبر ماري. وذكر بعد ذلك أنه بكى إخفاقاته وكآبته وبكاها. ثم عاد إلى مسكنه، وأعاد قراءة المسرحية وكتابتها من جديد، وحاول ثانية تقديمها.

افتتحت المسرحية في «تياتر دو فودفيل». بكى الجمهور وهلل. وهتف دوماس لأبيه: «نجاح عظيم عظيم. لقد شعرت بأنني كنت أحضر العرض الأول لواحد من أعمالك». وأجابه والده: «إن أفضل أعمالي ياطفلي العزيز هو أنت. من بين الآلاف الذين شاهدوا العمل وتأثروا به، كان المؤلف الإيطالي ج. فيردي الذي ألهمته المسرحية أوبرا «لاترافياتا» التي عُرضت أول مرة في فينيسيا عام ١٨٥٣.

تزوج دوماس مرتين بعد علاقته بـ ماري دو بليسيس. وحين أصبح عجوزاً انشغل بشرور البغاء، واقترح على الدولة أن تقوم بتعليم جميع

النساء غير المتزوجات مهناً في مدارسها، وترحيل جميع نساء الشوارع إلى المستعمرات الفرنسية. وحين توفي عام ١٨٩٥ ودفن في مقبرة مونتمارتر أصرَّ الحاضرون على انتزاع أزهار الكاميليا البيضاء من قبره لكي يضعوها على قبر ماري دو بليسيس. وعلى الرغم من مواعظ الكاتب العجوز حول نساء المتعة، يتذكر الرجال الفرنسيون ما نسيه دوماس الشاب ـ فقد جعلته تلك المرأة شهيراً وجعلت من الزهرة الرومانسية مجرد لحظة أطول في عالم يتجه سريعاً نحو المادة، ويغدو أكثر وحشية.

العاهرة الملعونة

لأفسره بدماثة، أعتقد أن مدام
كلير هي عاهرة ملعونة.
لورد بايرون

بحلول عام ١٨٧٩ يكون قد مضى ٥٧ عاماً على وفاة الشاعر بيرسي بيش شيلي الذي غرق قرب فياريجيو بإيطاليا، و٥٥ عاماً على وفاة لورد بايرون بسبب الحمى في ميسولونيي باليونان. وبموتهما دُفن العصر الرومانتيكي.

وبحلول عام ١٨٧٩ يكون قد مضى زمن طويل على دخول العالم العصر الصناعي والعلمي والواقعي. وكان الرجال الذين ستحرك أسماؤهم القرن العشرين منشغلين في عملهم. كان جون د. روكفلر في الأربعين من عمره، وتوماس أديسون في الثانية والثلاثين، وجورج برنارد شو وزيغموند فرويد في الثالثة والعشرين ، وهنري فورد ووليام راندولف هيرست في السادسة عشرة. وكان هـ. ج. ويلز وأندريه جيد وأرتور توسكانيني أحداثاً نشطاء.

ومع ذلك ففي القسم الأول من تلك السنة، في العصر الجديد النشط

والمربك، مـا زال يعـيش في فلورنسـا بإيطاليـا واحـدة من الماضي الرومانتيكي الأسطوري، منعزلة ونصف منسية. كان اسمها الثانوي كليركليرمون، وتبلغ من العمر الواحدة والثمانين، سيدة إنكليزية ضئيلة ذات شعر أبيض، ترتدي الثياب الحريرية السوداء. كانت صديقة شيلي وملهمته، وأم لطفلة غير شرعية أنجبتها من لورد بايرون.

فقط حفنة من عشاق شيلي - بايرون علموا بأنها ما زالت على قيد الحياة. من هؤلاء كان البحار المتقاعد الكابتن إدوارد أوغستوس سيلسبي. كانت هوايته قراءة شيلي، وكان متعصباً لكل ما كتبه شيلي أو ما ملكه أو لمسه. وكان متعطشاً لحيازة كل قصاصة من مخطوطات شيلي وكل رسالة. وحين علم بأن ثمة أثراً تاريخياً إنسانياً ما زال على قيد الحياة ـ المرأة التي عاشت مع بيرسي وماري شيلي طوال حياتهما الزوجية تقريباً ـ انطلق إلى إيطاليا للقائها.

لم يكن ذلك سهلاً، لأن كلير كليرمون لم تعد اجتماعية، بل عدوانية ومزعجة. هي التي طاردت بايرون حتى سريره. لقد أصبحت امرأة مريضة ومشاكسة ومنعزلة. وقد سكنت في شقة بـ فيارومانا في فلورنسا مع ابنة شقيقها باولا كليرمون.

وعلى الرغم من أن كلير نبذت أخيراً فلسفة شيلي ومثاله فإنها ما زالت تحبه إلى حد بعيد، تحب ذكراه بالقدر الذي تكره ذكرى بايرون. وإلى جانب صورة المصلوب المعلقة في غرفة نومها الغريبة، احتفظت بصورة لـ شيلي. كما احتفظت أيضاً بدفتري ملحوظات كان شيلي خط فيهما قصائده، وبأكثر من دزينتين من الرسائل أرسلها شيلي إليها، وخصلة من شعر شيلي حُفظت في صندوق أحمر صغير.

هذه التـذكـارات التي لا تقـاوم جلبت الكابتن إدوارد أوغـسـتـوس سيلسبي، من موطنه في ماساشوسيتس، إلى إيطاليا. كان مصمماً على استجداء هذه التذكارات أو شرائها أو سرقتها، إضافة إلى رؤية العينين اللتين رأتا شيلي. وقد هيأ نفسه لهذه المهمة الصعبة، ليس مهمة لقاء السيدة العجوز، بل كسب ثقتها الكاملة. وهذا ما أنجزه أخيراً بطريق ملتو. ذهب إلى صاحبة النُزل في فيا رومانا وطلب استئجار غرف فيه. وبعد أن أصبحت الغرف شاغرة انتقل إليها على الفور وأصبح جاراً لـ كلير كليرمون.

لا بد أن الكابتن سيلسبي قد قابل كلير وابنة أخيها وأصبح على صلة وثيقة بهما، وأنه شكل ثلاثياً استثنائياً معهما. كانت كلير، كما وصفها القريبون منها، «ضئيلة ومتميزة وإنكليزية جداً». ويتذكر جون سينغر سارجنت، الرسام الأمريكي المولود في فلورنسا، أنه رآها أول مرة حين كان في الثالثة عشرة من عمره. وطبقاً لكاتب سيرة سارجنت إيفان شارتيري، فإن سارجنت كان يحضر دروساً في الرقص: «أخبرني أنه حدث أن عازف البيانو المعتاد الذي يرافق الراقصين لم يستطع الحضور، وتقرر إلغاء الدرس، لكن المسؤول تذكّر أن ثمة من يعزف البيانو يعيش في الطابق الأعلى. وفي التو دخلت الصالة سيدة مسنة مليحة ترتدي الحرير الأسود. وقد لاحظ أناقتها الذابلة وهي تجلس إلى البيانو. هذه السيدة كانت جين (كلير) كليرمون».

وكانت باولا ابنة شقيق كلير، المولودة في فيينا حيث كان والدها يدّرس اللغة الإنكليزية، في عقدها الخامس حين وصل الكابتن سيلسبي إلى فلورنسا. وقد أرغمتها الظروف التي مرت بها على البقاء، دون زواج، بجانب عمتها.

كان الكابتن سيلسبي بالنسبة للسيدتين المنعزلتين شخصية مروعة. بحار محنك ينظر كقرصان فظ. وكان، كما هو مذكور في القصص الطوال، صاحب مغامرات في البحار الصينية. وبعد أن تقاعد ازداد شغفه الكبير بـ شيلي. وكان حين يُذكر اسم معبوده، في صالة خاصة أو عامة، يرعد بأبيات قصيدة «السحابة». كان ناقداً متحمساً لـ شيلي.

أظهر الكابتن سيلسبي، في مطاردته من أجل تذكارات شيلي، إصراراً وصبراً. لقد اقتفى أثر حفيدة جين ويليامز الجميلة الطائشة التي توفي زوجها مع شيلي، ومنها حصل على الغيتار الحقيقي الذي كان بحوزة شيلي. والآن، في فلورنسا، يمعن في إصراره لاستمالة كلير كليرمون. كان يناشدها لتقص عليه نوادر عن شيلي وبايرون. وكان لديها الكثير لترويه حول شيلي، لكنها رفضت بحث موضوع بايرون.

في غضون ذلك كانت عين الكابتن على كنوز شيلي في غرف كلير. وطبقاً لما قاله سارجنت لـ شارتيري: «قيل بأنه لم يتجرأ على الابتعاد عن المنزل خشية أن تموت مالكة التذكارات أثناء غيابه». ومن جهتها فقد أحبت الكابتن سيلسبي، ربما لأنها رأت فيه الرجل الذي سيعتني بابنة شقيقها بعد موتها. على كل حال، سمحت له برؤية رسائل شيلي وتريلوني وقراءتها، وأعارته واحداً من دفتريّْ ملحوظات شيلي. ولكن لم يكن لديها نية في التخلي عن كنوزها ما دامت حية.

راقب الكابتن سيلسبي وانتظر. وعاشت السيدة العجوز طويلاً. وقد بدا لـ سيلسبي أنها ستعيش إلى الأبد. لذا قرر التخلي عن حراسته للكنوز فترة قصيرة والقيام برحلة قصيرة إلى الولايات المتحدة.

في ١٩ آذار عام ١٨٧٩، حين كان الكابتن سيلسبي غائباً في

أمريكا، توفيت كلير كليرمون. وفي اللحظة التي سمع فيها سيلسبي النبأ ركب سفينة عائداً إلى فلورنسا. كانت كلير قد دُفنت في مقبرة سانتا ماريا دانتيلا الكاثوليكية التي تبعد ثلاثة أميال عن فلورنسا. لكن ابنة شقيقها باولا العانس ظلت في فيا رومانا تحيط بها كنوز شيلي.

توسل الكابتن سيلسبي إلى باولا أن تبيعه تذكارات عمتها. عندئذٍ ثار تعقيد مشؤوم. وافقت باولا على إعطائه التذكارات شرط أن يتزوجها. صُدم الكابتن سيلسبي بالصفقة، ورأى الثمن غالياً جداً. نعم، يمكن أن ينفق مدخراته المحدودة كلها، لكن الزواج من العانس مستحيل.

إثر اقتراح باولا غادر الكابتن سيلسبي فلورنسا بسرعة. ولكن ليس خالي الوفاض، فهو ما زال محتفظاً بـ ١٥٠ صفحة من دفتر المذكرات الذي دوّن فيه بيرسي وماري قصائد شيلي. وقد أهدى سيلسبي هذا الدفتر، بعد ثماني سنوات، إلى جامعة هارفارد. واحتفظ بصمت برسالة واحدة كان شيلي كتبها لـ كلير.

وحين أخبرت باولا التجار الذين اقتربوا منها بأن ثمة مادتين ناقصتين، اغتاظوا من سيلسبي، واتهمه أحدهم بالخداع، كما اتهمه توماس وايز بالمراوغة إذ إن باولا أعارته الدفتر لأنه وعدها بالزواج لكنه لم يف بوعده.

بعد موت كلير بأربعة أشهر، وفرار سيلسبي، اشترى هـ. باكستون فورمان من باولا ما تبقى من كنوز شيلي ـ تتضمن ٢٤ رسالة من شيلي إلى كلير، و٦٥ رسالة من تريلوني إلى كلير، وصورة مصغرة لـ أليغرا ابنة كلير من بايرون. لكن فورمان شعر بالمرارة لعدم حصوله على دفتر

المذكرات المفقود، واعتقد بأن سيلسبي سرقه. ولنعد الآن إلى كلير كليرمون.

ولدت كلارا ماري كونستانتيا جين كليرمون في ٢٧ نيسان عام ١٧٩٨. وهي الطفلة الثانية لأم سليطة اللسان وأب سويسري يعمل بالتجارة. وقد تغير اسمها حين كبرت من كلارا إلى كلير. وقد أصرت أمها العنيدة على مناداتها بـ جين. وبعد ثلاث سنوات من موت والدها انتقلت والدتها الأرملة ماري كليرمون إلى «سكينر ستريت» في لندن. وكان يسكن في البيت المجاور لبيتهم بائع كتب وناشر، أصلع وممتلئ الجسم، يدعى وليام غودوين.

كان غودوين، الواعظ السابق، قد اشتهر منذ أقل من ١٢ سنة قبل عمله المتطرف «استفهام بصدد العدالة السياسية». وفي عام ١٧٩٦ كان قابل وولستونكرافت كاتبة «دفاع عن حقوق النساء». وكانت أقامت علاقة مع الأمريكي جيلبير إمالي الذي هجرها مع طفلة تدعى فاني إمالي. عاش غودوين وماري وولستونكرافت دون زواج إلى أن أصبحت حبلى. عندئذٍ تزوجها. وبعد ستة شهور ولدت ماري غودوين، زوجة شيلي المستقبلية، وبعد عشرة أيام من ولادتها توفيت أمها.

حين انتقلت الأرملة كليرمون إلى جوار غودوين، كان الأرمل ما يزال يبحث عن زوجة جديدة لتعتني بابنته بالتبني فاني إمالي وبابنته ماري. وحين وقعت عيناه على الأرملة كليرمون تودد إليها وكسبها. وهكذا انتقلت كليركليرمون، عام ١٨٠١، وشقيقها الأكبر شارلز إلى «٤١ سكينر ستريت». وقد أضيف عام ١٨٠٣ إلى هذه العائلة مولود جديد يدعى وليام.

كانت الحياة لدى عائلة غودوين هادئة، هدوء الحياة إبان الثورة الفرنسية. فوسط طقطقة الفراخ ودخول الزوار وخروجهم، كتب غودوين كتابين وتعارك مع نقاده وابتعد عن دائنيه.

في مستهل صيف عام ١٨١٤ وقع حادث هام بالنسبة لـ ماري غودوين ـ ومن خلالها سوف يؤثر أيضاً على حياة كلير. إنه ظهور بيرسي شيلي. كان شيلي قد زار بطله غودوين قبل سنتين ترافقه زوجته هاربيت. لكن كلير وابنة زوجها ماري كانتا خارج البلدة. والآن صار شيلي يزور العائلة كل يوم تقريباً وقت العشاء.

أثار شيلي اهتمام كلير. لقد كان فيما مضى يسهب في الحديث، بصوت عالٍ، مع ماري وولستونكرافت حول الثورة والشعر والنباتية (الاقتصار في الأكل على النباتات) والحب المتحرر والإلحاد.

وسرعان ما أصبح يوجه معظم حديثه إلى ماري غودوين ابنة زوج والدة كلير. وحين نما حبه السري لـ ماري أصبح يتحدث أقل فأقل حول الكتب والسياسة. لكنها كانت أول ما استخدم الكلمة. حدث ذلك في ليلة أحد من شهر حزيران عام ١٨١٤ أمام قبر والدتها، وكلير واقفة بجانبها تحاول ألا تسترق السمع. إن اعتراف ماري بعث في نفس شيلي نشوة الإثارة. وبسرعة أفضى ما بدخيلته إلى صديقه توماس جيفرسون هوغ، «ليس ثمة تعبير يستطيع أن ينقل الطريقة التي بددت بها أوهامي. إن روعة اللحظة التي اعترفت خلالها بحبها، الذي ضمرته في سرها مدة طويلة، لا يمكن رسمها على المخيلة الفانية».

كان ثمة مشكلة صغيرة. كان شيلي متزوجاً. وبدلاً من أن يخبر زوجته عن حبه الجديد، أخبر غودوين، مما أغضب الفيلسوف العجوز

الذي وصف شيلي بأنه «مغوٍ فاجر». ,أخيراً، حين دعا شيلي زوجته هاريت إلى لندن وأخبرها قصته مع ماري، سخطت ونعتت ماري بالمغوية الفاجرة، وكتبت إلى صديقتها «ماري مصممة على إغوائه، وهي تستحق اللوم. لقد أثارت مخيلته بالحديث عن أمها، والذهاب معه إلى قبرها كل يوم، حتى أخبرته في النهاية بأنها ميتة في حبه». وحين أدركت ماري عنف ردة الفعل التي أصابت هارييت ذهبت إليها مع كلير كليرمون. وحسبما ذكرت كلير بعد سنوات فقد جرت الحادثة على النحو التالي «في نهاية حزيران ذهبت مع ماري لرؤية هارييت في «شابل ستريت» في منزل والدها. كنت حاضرة طوال اللقاء وسمعت ماري وهي تؤكد لـ هارييت أنها لن تفكر بحب شيلي إكراماً لها».

وحين أُعلم شيلي بالخبر، هرع إلى «سكينر ستريت» واندفع إلى داخل المنزل، وصرخ مواجهاً ماري «عزيزتي ماري يريدون أن يفصلوا بيننا، وسوف يوحدنا الموت»، وناولها زجاجة مليئة بصبغة الأفيون، وأخرج من جيبه غدارة لينتحر بها. صرخت كلير وهرعت طلباً للنجدة، وانفجرت ماري بالبكاء ثم قالت «لن آخذ صبغة الأفيون هذه، ولكن إن كنت ستغدو عاقلاً وهادئاً، فسوف أعدك بأن أكون مخلصة لك دائماً».

غادر شيلي مهتاجاً، وحاول صديقه الشاعر الهجّاء توماس لوف بيكوك تهدئته مذكراً إياه بفضائل هارييت. أجابه شيلي «ينبغي على كل من يعرفني أن يعلم بأن شريك حياتي يجب أن يحس الشعر ويفهم الفلسفة، وهارييت حيوان نبيل، ولا يمكنها فعل شيء آخر». بعد فترة قصيرة تناول شيلي السم، لكنه استعاد عافيته. قابلته ماري المحزونة ترافقها كلير. اقترح شيلي أن يفرا معاً إلى خارج إنكلترا، وأقنعها بأن

هاريت لم تكن تحبه وتربطها علاقة مع الميجر ريان الذي قابلته في دبلن. اقتنعت ماري بذلك ووافقت على الفرار، واتفق الاثنان على أن ترافقهما كلير التي تجيد الفرنسية وتستحق الحرية أيضاً.

في الساعة الرابعة من صباح الثامن والعشرين من تموز عام ١٨١٤ انسلت ماري وكلير من المنزل محملتين بالحزم، وأسرعتا إلى الموقع الذي ينتظرهما فيه شيلي. وهكذا غادر الثلاثة في عربة إلى دوفر. وحين وصلوا إلى دوفر في الأصيل كان مركب القناة قد أبحر. وخوفاً من أن يدركهم غودوين استأجروا مركباً شراعياً مع بحارين واتجهوا نحو كاليه. وقد استغرقت رحلتهم إلى كاليه ١٢ ساعة بدلاً من ساعتين بسبب هبوب عاصفة. لكنهم وصلوا سالمين.

في تلك الليلة، بينما كانوا يستريحون في فندق ديسين، تلقى شيلي نبأ يقول «وصلت إلى الفندق سيدة بدينة وأعلنت أن شيلي هرب مع ابنتها».

إنها السيدة غودوين. بادرت كلير إلى تهدئتها، وقد حاولت ذلك طوال الليلة، وأخيراً وعدتها أن تعود معها إلى لندن. ولكنها غيرت رأيها في الصباح، بعدما تشاورت مع شيلي، ورفضت العودة مع أمها إلى لندن. وهكذا عادت السيدة غودوين المهزومة إلى رصيف الميناء.

أمضى الهاربون الثلاثة الأغرار ـ كان شيلي في الثامنة والعشرين، وماري في السابعة عشرة، وكلير في السادسة عشرة ـ ستة أسابيع في أوربا. ونظراً لقلة المال لديهم، فقد تنقلوا عبر فرنسا وسويسرا تارة مشياً على الأقدام وتارة على البغال والطنابر. تسكعوا في باريس مدة ستة أيام، تأملوا نوتردام، جلسوا في حدائق التويليري، تجولوا في متحف

اللوفر، وزاروا صديقاً قديماً لـ ماري وولستونكرافت. كان منظرهم غريباً وهم يسيرون عبر طرق ريفية باتجاه سويسرا ـ كلير وماري في ثياب طويلة سوداء حريرية، وشيلي في قميص مفتوح وبنطال مشدود. وكثيراً ما كانت كلير تغني وماري تقرأ وشيلي يروي القصص ويكتب. ثم بدؤوا رحلة العودة إلى الوطن مستخدمين وسائط النقل الرخيصة المتاحة.

في لندن استأجر شيلي وماري مسكناً في ميدان كافنديش. وعلمت كلير بأن والدتها ترغب في إلحاقها بالدير، فآثرت البقاء عندهما. كذلك أثار توماس لوف بيكوك، صديق شيلي، اهتمامها فترة وجيزة. فقد اعتقدت بأنه وسيم وإن كان يأكل ويشرب كثيراً. وقد أسرته كلير بحيويتها وصراحتها وذكائها. وسرعان ما رغبت كلير في أن تضع موقفها إزاء الحب موضع التطبيق. لقد ملت العيش تحت سقف شيلي حيث الحياة صاخبة كما هو الحال عند غودوين. كان شيلي يرهن ممتلكاته ليسدد قيمة إيجار مسكنه وليشتري وجباتهم النباتية. ثم فر واختبأ مدة ١٦ يوماً إثر ملاحقة دائني زوجته هارييت، وتهديده بالسجن. وأخيراً، لم يُخفِ اغتباطه حين ولدت هارييت طفلاً مما آذى ماري. وقد لاحظت بأنه كان يرسل «العديد من الرسائل مطنطناً بالحدث، حدث ولادة زوجته». وبدأت ماري الغاضبة وكلير الضجرة تتشاجران.

استأجرت كلير غرفة في مكان آخر، وحولت نظرها إلى الأعظم شهرة في إنكلترا.

كان غوردون نويل بايرون، البالغ من العمر ٢٧ عاماً حديث لندن. وقد غدا شخصية شهيرة بعد نشرة كتاب «أسفار شيلد هارولد». إن مظهره الجذاب ـ شعره البني الأجعد، عينيه الزرقاوين، فمه الحسي،

بشرته الحليبية، جسده الرجولي ـ فتن قطيعاً من النساء. إن علاقته بـ الليدي كارولين لامب والليدي أوكسفورد، وشائعة زواجه من أخته غير الشقيقة، وزواجه من أنابيلا ميلبانك، زادت من سوء سمعته.

ما من شك في أن كلير كليرمون وقعت في حبه,كانت وحيدة. وقد حسدت ماري على مشاعرها. لقد أرادت شخصاً ما، ورغبت في المغامرة. بعد سنوات فسرت كلير الأمر «كنت شابة ومزهوة بنفسي وفقيرة. وكان شهيراً جداً لدرجة أن الناس، خاصة الشباب منهم، بالكاد عدُّوه إنساناً، بل عدُّوه إلهاً. كان جماله ملازماً لشهرته، وكان ممتلئاً قوة وطموحاً. ويبدو لي أنه ليس ثمة حاجة لأقول بأن رجلاً كهذا، رجلاً ارتمت كل لندن على قدميه، أدار على نحو كامل رأس فتاة في موقعي؛ وحين تتذكر بأني نشأت على الاعتقاد بأن الزواج ليس فقط عديم النفع بل تقليد أثيم يجعله التعصب الأعمى ضرورياً، سوف لن تتعجب من النتيجة».

وكان أن شرعت كلير بإغواء لورد بايرون. كان لديها جميع الصفات المميزة الضرورية. فتاة متحررة ومندفعة وفاتنة. ومرة، حين سألت شيلي عن رأيه فيها، قال ثمة كليرتان ـ كلير السيئة وهي تهكمية وكئيبة وسريعة الغضب، وكلير الجيدة وهي «الأعظم فتنة بين المخلوقات البشرية». وفي مناسبة أخرى وأثناء مناقشة شخصيتها، قالت لـ لورد بايرون: «ربما أبدو لك وقحة وفاسدة وآرائي مقيتة، ونظرياتي فاسقة، لكن ثمة شيئاً واحداً على الأقل سيثبته لك الزمن وهو أني أحب بلطف وبعاطفة، وأني غير قادرة على الدنو من مشاعر الانتقام والحقد». لقد أحست بأنها جذابة جسدياً. كانت في السابعة عشرة، طويلة وحسنة الشكل وحيوية، ذات شعر أسود أملس وعينين سوداوين وبشرة لاتينية.

في آذار عام ١٨١٦ كتبت كلير رسالة إلى بايرون:

ثمة شخص غريب أعطى نفسه الحق بالكتابة إليك.... إن كان ثمة امرأة لم تُلوث سمعتها بعد، امرأة دون حامٍ أو زوج يتحكم بها، وودُت أن تلقى بنفسها تحت رحمتك، ورغبت في أن تعترف، بقلب يخفق، بحب ولد من أجلك منذ سنوات، وأن تضمن لك السرية والأمن، وأن تقابل لطفك بالولع والإخلاص، هل تستطيع خيانتها، أو هل تصمت صمت القبر؟ أنا لست ميالة إلى كثرة الكلمات. فإن كنت ستفعل أم لا، لا تقرر بسرعة، ومع ذلك أطلب ردك دون تأخير..

بعثت كلير برسالتها، لكن لورد بايرون لم يُجب عليها. فكتبت دون تلكؤ رسالة ثانية تطلب فيها إجراء مقابلة معه، وأرسلتها بوساطة رسول خاص. لم تنتظر كلير طويلاً، فقد عاد الرسول ومعه الرد:

لورد بايرون ليس مدركاً لأية أهمية تتعلق بأي شخص يريد إجراء مقابلة معه، خصوصاً مع من لم يحظ بشرف معرفته. ومع ذلك سيكون في المنزل في الساعة المذكورة.

تقابلا في الساعة السابعة مساءً. ولم يُعرف بالضبط ما الذي حدث في هذا اللقاء. إلا أن كلير اكتشفت أن بايرون كان على رأس هيئة إدارة مسرح «دروري لين». وربما أرادت مقابلته لتطلب اقتراحاته ومساعدته لاحتراف مهنة التمثيل فيما بعد. وقد تصنًعت سؤالاً: «هل من الضروري تحمُّل العمل في المسارح الريفية المقرفة التي لا تطاق قبل البدء بالظهور على خشبات مسارح العاصمة؟». وفي رده على تساؤلها زوًدها برسالة تعريف إلى مدير مسرح الـ «دروري لين».

لكنها غيرت رأيها. إنها لا تريد أن تصبح ممثلة بل تريد أن تصبح

كاتبة. كانت قد أنجزت نصف رواية، ورغبت أن يلقي نظرة عليها. لكن سرعان ما نبذت هذه الذريعة أيضاً، وكشفت صراحة عما تريده حقاً. فكتبت إليه «إذن هل لديك أي اعتراض على الخطة التالية. فقد نذهب معاً مساء الثلاثاء خارج المدينة، مسافة ١٠ أو ١١ ميلاً. هناك سنكون طليقين ومجهولين، ونستطيع العودة باكراً في صباح اليوم التالي. لقد رتبت كل شيء هنا حتى لايثار أدنى شك. أتوسل إليك أن تقبل ذلك. هل ستسمح لي أن أبقى معك للحظات؟ لن أبقى لحظة بعد أن تأمرني بالذهاب».

رفض بايرون ذلك الهراء، واقترح الذهاب إلى منزل في الجوار. وقد اعترفت كلير بعد ذلك بمدة طويلة بأن المنزل كان في شارع «ألبيمارل»، وقالت بأن زوجة بايرون رأتهما يدخلانه.

تطورت العلاقة. وظلت كلير، حتى بعد أن نامت معه، في خشية من الرجل العظيم: «هل تعلم بأني لا أستطيع التحدث إليك عندما أراك. فأنا مرتبكة جداً وأشعر بأني على استعداد للوقوف قليلاً ثم أقع على قدميك». ولوقت قصير بدا أن بايرون يبادلها حبها. وقد قالت له يوماً: «مما اثار استغرابي وزاد من سعادتي هو أنك كشفت عن العواطف التي اعتقدت بأنها لم تعد في صدرك». وقد اندفعت في صباح أحد الأيام، بعد أن غادرت بايرون، إلى داخل منزل شيلي وصرخت: «بيرسي! ماري! إن لورد بايرون العظيم يحبني». وعلى ما يبدو فقد أحبها بايرون بدرجة كافية ليُظهر غيرة تجاه صديقها شيلي الذي لم يقابله بعد. وفي إحدى المناسبات شعرت بأنها مكرهة على أن ترسل له بعضاً من رسائل شيلي مع حاشية: «أرجوك وازنها وبرِّئني، أتوسل إليك، بأي واحدة من هذه القائمة ترتاب».

ولكن ما لبث بايرون أن ضجر منها، كما ضجر في النهاية من معظم خليلاته. لقد تعب من مزاجها وميلها إلى التملُّك وعدم تحفظها وآرائها النسوية. فبدأ يخل بالمواعيد، وعندما يفي بموعد يتصرف بفظاظة. وحين أعدت كلير لجلب ماري غودوين لمقابلته، طلبت منه في المقام الأول أن يُظهر بعض التهذيب. وقد اندهشت ماري بعد لقائها مع بايرون من لطفه، وقالت لـ كلير: «كم هو مهذب، وكم هو مختلف عما توقعت». وبعد شهر قلقت كلير من إمكانية فقد بايرون لحساب ماري، وقالت للشاعر: «أعتقد بأنك ستقع في حبها؛ إنها فاتنة وأنيسة جداً، وستكون دون شك سعيداً معها».

استمر حب كلير لـ بايرون على الرغم من أنه أصبح بارداً معها. وثمة دليل على أن حبها إياه لم يكن جنسياً في المقام الأول. وأخبرته صراحة بأن حضوره الجسدي لم يكن ليحرك عواطفها: «أولاً، ليس لدي عواطف: وكثيراً ما كنت رفيقك الذكري وليس خليلتك». ويبدو أن الذي أثار اهتمامها أكثر هو شهرته وعبقريته.

كان يتهيأ لمغادرة إنكلترا، وهذا ما أزعجها. لقد توجب عليه أن يغادر. كانت حياته في حالة اضطراب شامل، والصحف تسحقه بسبب أخلاقياته المشكوك بها وولعه بالسياسات الفرنسية. أمران اثنان - انفصال زوجته عنه حين تضخمت شائعة ارتكابه زنى المحارم، ودفاعه عن نابليون كـ «ابن الحرية» حوّلا التيار ضده. وحين ذهب إلى مجلس اللوردات تحدث معه عضو واحد فقط من أعضاء المجلس. وحين أقامت الليدي جيرسي حفلة على شرفه ووصل مع أخته خرج الضيوف بالجملة. وطالبه جميع الدائنين بدفع ديونه.

غادر إنكلترا بحراً في نيسان عام ١٨١٦، ولم يعد إليها أبداً. وقد رافقه ثلاثة خدم وطبيبه الخاص. أملت كلير أن يأخذها معه أيضاً. لكنه رفض. كان ما يزال متزوجاً ولا يريد فضيحة أخرى. وحين سألته كلير عما إذا كان بمقدورها زيارته في جنيف وافق. وقد ثابرت كلير على التصريح بحبها له. وقد كتبت له «منذ بضعة أيام بلغت الثامنة عشرة. إن أناس الثامنة عشرة يحبون بصدق ورقة، وأنا، التي علمني غودوين، مهما كان خطأ إيماني، لدي عشق كبير للحقيقة. الوداع عزيزي لورد بايرون. قرأت جميع قصائدك، وأخشى التفكير بقراءتك لهذه الرسالة السخيفة، لكنني أحبك».

وحين خطط شيلي وماري للقيام برحلة إلى إيطاليا ناشدتهما كلير أن يأخذاها معهما وليتوقفوا في جنيف. وبعد ما باحت بقصة علاقتها بـ لورد بايرون وافق شيلي على طلبها. وهكذا غادر شيلي وماري وكلير إنكلترا في الثالث من أيار عام ١٨١٦، ووصلوا جنيف بعد عشرة أيام. لم يكن بايرون قد عاد من زيارته لقرية واترلو. وعندما وصل أخيراً اغتاظ من كلير لأنه لم يتهيأ لرؤيتها مباشرة سواء مع شيلي أو دونه. وأخيراً دعا كلير وشيلي لزيارته.

على الرغم من تعلق بايرون وشيلي أحدهما بالآخر، لم يكن شيلي متأثراً تماماً. وقد كتب لـ بيكوك: «بايرون مثير للاهتمام إلى أبعد حد، وهل من المؤسف القول بأنه عبد للأهواء السوقية القذرة، وبأنه مجنون كما الرياح؟». وفي حين استأجر شيلي وماري وكلير بيتاً من طابق واحد استأجر بايرون «فيلا ديوداتي» التي يفصلها عنهم كرم عنب. لقد تعايشوا كجيران مدة ثلاثة أشهر، كانوا يقومون برحلات في البحيرة

على نحو منتظم، وفي المساء غالباً ما كانوا يتبادلون قصص الأشباح، وأثناء واحد من هذه المجالس توصلت ماري إلى فكرة د. فرانكشتاين(*) ووحشه. وقد زار بايرون وشيلي ميوري وكلارنس، وجالا عبر الغابات حيث تمشت مرة ـ في رواية روسو الشهيرة «لانوفيل إيلويز» ـ بطلته جولي ديتاج مع عشيقها سان ـ برو؛ كما جالا في حديقة الأكاسيا حيث أنهى غيبون كتابة «انحطاط الإمبراطورية الرومانية وسقوطها»، وتأملا شيلون كاسل، التي ذكّرت شيلي بـ «الطغيان الوحشي البارد»، والتي دفعت بايرون إلى تمجيد «الروح الخالدة للعقل المتحرر» في «سجين شيلون».

ثابرت كلير على رؤية لورد بايرون والنوم معه، في حين كان بايرون يصارع خوفه من أن تجد الشائعات طريقها إلى لندن. وقد أزعجته ملاحظاتها الوقحة وزياراتها المتهورة، خصوصاً أن بعض السياح الإنكليز الذين أخذوا يراقبون كل حركة من حركاته من خلال المناظير. وفي إحدى المرات غادرت كلير فيلته في الفجر واجتازت الكرم بسرعة ففقدت حذاءها، وقد وجده عمال الكرم وأعادوه إلى رئيس البلدية.

ومرة بينما كانت كلير معه في فيلته وقع حادث غريب: «ذهبت لأنسخ «شيلد هارولد» كعادتي فسألني بايرون إن كنت لم أعتقد بأنه شخص رهيب ـ فقلت لم أعتقد ذلك، ولا أريد. عندئذٍ فتح خزانة وأخرج عدداً من رسائل أخته غير الشقيقة ونشرها على الطاولة؛ فض بعضها وأراني إياها؛ كانت البداية مألوفة ـ أخبار الأصدقاء العامة، صحتها،

---

* فرانكشتاين : اسم شخصية من شخوص رواية فرانكشتاين للكاتبة الإنكليزية ماري شيلي . وهو الذي صنع مسخاً بشرياً وأمده بالحياة . (قاموس أوكسفورد المحيط) .

ثم تلا ذلك مساحات كبيرة كتبت بلغة مشفرة قال عنها بايرون بأن مفتاحها لا يعرفه أحد سوى أخته وهو ـ وغامضة بالنسبة للجميع». وحين جمع الرسائل اكتشف أنه فقد واحدة. فثار واتهم كلير بسرقتها. لكنه وجدها واعتذر عن شكوكه.

ناقشت كلير الحادث مع شيلي. لماذا الشيفرة في الرسائل بين الأخ وأخته؟ أعتقد شيلي بأنهما استخدماها لإخفاء مناقشة موضوع طفل بايرون غير الشرعي. أراح هذا كلير إلى حد ما. لكن فكرة الشيفرة ظلت تراودها، إذ ربما كانت تستخدم بين الأخ وأخته لمناقشة علاقة الحب بينهما.

إن الادعاء بأن بايرون ارتكب زنى المحارم ظل مسلطاً كالسيف فوق رأسه طوال السنوات الأخيرة من حياته. وخلال أكثر من قرن منذ وفاته شق هذا السؤال كتاب سيرته إلى معسكرين. ريتشارد إيدكامب وجون درينكووتر أنكرا وقوع زنى المحارم؛ لورد لوفلاس وأندريه موروا أكدا وقوعه. وفي الحقيقة كان بايرون حساساً جداً وشرساً إزاء هذا الموضوع. فبعد أيام من زواجه أشارت زوجته ضاحكة إلى انعكاسهما في المرآة قائلة «نحن أشبه بأخ وأخت». فأمسك بايرون بمعصمها وصرخ «متى سمعت ذلك؟».

بعد الحادث الذي وقع في جنيف، لم تعد كلير، على ما يبدو، تفكر به ثانية. لكن عندما تقدم بها العمر قالت لـ تريلوني «ليس ثمة برهان حاسم على وجود علاقة بين بايرون والسيدة لي؛ لكن أشعاره إلى «أوغوستا» مروراً بـ «أخ لـ أخت» ـ ثم انفجاره الهستيري في بولونيا (إيطاليا) حين شهد عرض مسرحية «ميرا» [مسرحية ألفيري تصور حب

فتاة لأبيها] ـ ثم «مانفريد» و «كين» ـ كلها تشكل بينة افتراضية ضده».

خلال شهر آب عرفت كلير أنها حامل. وأصر شيلي، الذي كان عليه الذهاب إلى لندن، على أن تعود معه لتلد هناك، فوافقت كلير. وقد أراد بايرون أن ينشأ الطفل تحت رعاية أخته، فرفضت كلير بشدة. عندئذٍ اقترح عليها ان تزعم أنها عمة الطفل، تجنباً للفضيحة. وعندما أرادت كلير رؤية بايرون ثانية رفض. كان بصحبته رفاقه القدامى، جون كام هوبهاوس ومونك لويس وسكروب ديفيز، ولم يرد حدوث مشاهد بحضورهم. وكان سعيداً حين كتب هوبهاوس للسيدة ميلبورن حول الحياة في فيلا بايرون «على الرغم من كل الشائعات السخيفة، لم يستقبل بايرون في مسكنه من ضيوف سيئي السمعة أكثر من م. لويس وأنا».

ومع ذلك فالشائعات التي وصلت إلى لندن حول علاقة بايرون بـ كلير كان فيها الكثير من المبالغة وتخطت العلاقة الواحدة إلى عدة علاقات مما دفع «أوغوستا لي» للكتابة إلى بايرون تستطلع إن كانت تلك الشائعات صحيحة أم لا. فوجه بايرون لها رسالة أنكر فيها حبه لها ولأية امرأة أخرى، ووصف كلير بالفتاة الحمقاء التي ركضت وراءه وحاول إقناعها بالعودة من حيث أتت، أخيراً ذهبت عنه.

انتهت العلاقة بالنسبة لـ بايرون. لكن كلير كليرمون لم ترد مواجهة الحقيقة. وقد كتبت له قبل مغادرتها إلى لندن مع شيلي وماري. «حين تتسلم هذه الرسالة سأكون قد ابتعدت عدة أميال، لا تكن ضيق الصدر معي. كان يمكن أن أكون سعيدة أكثر لو استطعت الحديث معك وتقبيلك قبل مغادرتي. خشيتي كبيرة من أن تنساني. سوف أحزن خلال أشهر الشتاء التعسة. حذارِ من الإفراط في شرب الخمر».

في السنة التي تلت حدث الكثير في إنكلترا، إذ عاشت كلير وماري في «باث» أولاً ثم في «مارلو». فقد سبب ظهور رواية ليدي كارولين لامب، التي صورت فيها لورد بايرون كـ وغد خيالي، ضجة كبيرة بين الناس. كانت كارولين لامب، العصابية الجميلة، خليلة بايرون طوال تسعة أشهر ثم ضجر من طيشها ولفظها. وكان تأليفها لرواية «غلينارفون» يعني الانتقام منه.

حين عادت كلير إلى لندن كان الكتاب قد أحدث ضجته فكتبت إلى بايرون: «حسناً، لقد قرأت الكتاب بأكمله. أنت مخلوق حقير تصول وتجول مُغوياً وطاعناً ومغامراً... أنا في الحقيقة خجلى من معاشرتي إياك. ولكن كيف تسنى لمخلوق لطيف مثلك أن يتحول إلى وحش غامض كـ «غلينارفون» لا يتصوره العقل؟».

واجه بايرون الكتاب باشمئزاز . وطبقاً لـ هوبهاوس: «قرأ بايرون الكتاب بغيظ وغضب وليس بمحض ازدراء». بعد ذلك بعث بايرون رسالة إلى هوبهاوس قال فيها: «قرأت غلينارفون أيضاً، لعنة الله».

خلال إقامة كلير في إنكلترا صعقتها مأساتان. وجُدت أختها بالتبني، فاني إمالي، في فندق في سوانسيا منتحرة في سريرها وبجانبها زجاجة من صبغة الأفيون. وقد أُرسل شيلي ليطالب بجسدها. اعتقدت كلير أن فاني قتلت نفسها بسبب وقوعها سراً في غرام شيلي. كذلك من المحتمل أنها شعرت بأنها غير مرغوبة، وبأنها تشكل عبئاً على عائلة غودوين المفقرة. وبسرعة تلا هذا الموت موت آخر. ففي العاشر من كانون الأول عام ١٨١٦ نقلت زوجة شيلي الشرعية من سيربنتين في هايد بارك إلى المستشفى بسبب ارتكابها الانتحار وهي في

الحادية والعشرين من عمرها. وكتب شيلي المصعوق إلى ماري: «يبدو أن هذه المرأة المسكينة قد طردت من بيت أبيها وانحدرت إلى ممارسة الدعارة، ثم عاشت مع سائس خيل يدعى سميث الذي هجرها فقتلت نفسها». إن شعور شيلي بالذنب دفعه إلى تشويه سمعة هارييت، إذ ليس ثمة دليل على أنها عاهر. وطوال ليالٍ أقدم شيلي، الممتنع عن المسكرات، على تناول الكحول بنهم شديد. وحين سأله بيكوك عن السبب، أجابه شيلي: «سأخبرك شيئاً لم أخبره لأحد قط. كنت أفكر بـ هارييت».

بعد أقل من أسبوعين جعل شيلي ارتباطه بـ ماري قانونياً. وعلى الرغم من أنه يستهجن الزواج، أراد أن يسعد غودوين، أراد أن يشرعن نسله من ماري، أراد أن يغتنم الفرصة لرعاية طفليه من هارييت.

في ١٢ كانون الثاني عام ١٨١٧ ولدت كلير بنتاً. وفي اليوم التالي كتبت ماري لـ بايرون: «إنها تبعث لك بحبها وترجوني أن أقول بأنها في غاية النشاط والصحة». وقد قرر بايرون تسمية ابنته: «أعتزم أن أسميها أليغرا، وهو اسم فينيسي». وقررت كلير أن يكون لـ بايرون دور في تنشئتها، فقد شعرت أن مركز بايرون وثروته سيضمنان مستقبل أليغرا. لم تغضب الفكرة بايرون، وكتب إلى أخته: «أخبروني بأنها جميلة جداً، ذات عينين زرقاوين وشعر أسود؛ ومع أني لم أفتن بالأم ولا أدّعي مودتها، مع ذلك ربما سأحظى بشيء في كبري، ومن المرجح أن تساهم الظروف في تحقيق الرفاهية لهذه المخلوقة الصغيرة المسكينة».

في غضون ذلك أمتثل شيلي أمام محكمة العدل للمطالبة بحقه في رعاية طفليه من هارييت. إلا أن كتاباته الهرطوقية حول الدين والزواج

حالت دون نجاحه، وأوكلت وصاية الطفلين إلى والد شيلي وجدٍّ هارييت. عند ذلك فكر شيلي، الذي خاب أمله وتعب من لندن، بالقيام برحلة إلى إيطاليا بعد ما شجعه الأطباء على البحث عن مناخ دافئ. وقد دفعه في النهاية إلى حسم أمره وضع أليغرا ابنة كلير. فقد شعر، وكذلك كلير، بأن البنت الصغيرة بحاجة إلى دعم بايرون، وبايرون في إيطاليا.

في ١١ آذار عام ١٨١٨ غادرت كلير وأليغرا مع شيلي وماري ووالديهما ومربيتين. وبعد ثلاثة أسابيع وصلوا إلى ميلانو. لم يكن بايرون هناك، ولم يرد أن يواجه كلير ثانية، لكنه بعث برسول لأخذ أليغرا. وقد رضخت كلير، الغاضبة من فظاظته ومن أخبار خليلته الإيطالية الجديدة المتوحشة، لطلبه. وهكذا حُملت أليغرا إلى بايرون ترافقها إليز مربية شيلي السويسرية.

أثناء قيام كلير وعائلة شيلي برحلة عبر شمال إيطاليا أمطرت بايرون برسائل تستفسر فيها عن طفلتهما: «كيف هو حال أليغرا؟ هل هي مريضة؟ وهل تتلقى منها أية صفعات؟ آمل بإخلاص أنها تفعل ذلك، وأن ترد لك الصاع صاعين على فظاظتك تجاهي. كلما فكرت بالمخلوقة الصغيرة أشعر أنني أبتسم. إنها مسلية جداً». كثيراً ما أعرب بايرون، الذي يحب الحيوانات، عن احتقاره للأطفال. ومرة أخبر أخته: «لا أعرف ما الذي عناه سكروب ديفيز حين أخبرك بأنني أحب الأطفال. أنا أمقت بشدة رؤيتهم، وفي الوقت ذاته احترم كثيراً شخصية هيرود(*)».

ومع ذلك شعرت كلير، أو حاولت إقناع نفسها، بأن بايرون قادر على تحمل الأطفال أكثر مما كان يدعي، وسيكون جيداً مع ابنتهما

* هيرودوس الكبير الذي أمر بذبح جميع أطفال بيت لحم. (المنجد)

أليغرا. وقد تحول ظنها حول مشاعر بايرون تجاه ابنتهما إلى حقيقة. فقد أحب بايرون أليغرا كثيراً، ولكن ليس بصورة كافية ليقاوم فرصة وضعها تحت رعاية صديقيه، القنصل البريطاني في فينيسيا ريتشارد هوبر وزوجته السويسرية.

وذات مرة اصطحب شيلي كلير إلى فينيسيا لزيارة أليغرا. وقد أزعجها ما رأته: «إنها شاحبة، وفقدت الكثير من حيويتها، لكنها جميلة كما هي دائماً». ونزولاً عند رغبة شيلي سمح بايرون لأليغرا أن تبقى مع كلير عدة أشهر.

وحين أُجبرت كلير على إعادة أليغرا إلى بايرون، قررت مرافقة عائلة شيلي لزيارة الأماكن الهامة في روما ونابولي. وفي نابولي علمت ماري أن خادمتها السويسرية إليز حامل من خادمهم باولو فوغي. أقنعت ماري الطرفين بالزواج ثم صرفتهما. فقرر باولو الغاضب الثأر. وقد فعل ذلك بأن دفع إليز لإخبار هوبر وزوجته في فينيسيا، اللذين أخبرا أيضاً بايرون، حول فضيحة حدثت في نابولي. وتنطوي الفضيحة على وجود علاقة جنسية بين شيلي وكلير أسفرت، طبقاً لما قالته إليز، عن ولادة طفلة.

وفي رسالة إلى بايرون أُرخت في ١٦ أيلول عام ١٨٢٠ أفشى هوبر الخبر المروع، وطلب من بايرون أن يبقي الأمر سراً بينهما. وبعد سنة، حين زار شيلي بايرون في رافينا، خان بايرون عهده بأن يبقي الأمر سراً. وفي حين أكد بايرون لـ شيلي أنه لا يصدق الشائعة على الإطلاق، لم يستطع شيلي إلا أن يبدي انزعاجه من إعادة القصة على مسمع ماري، التي كتبت لـ عائلة هوبر تنكر القصة بحدة: «قالت (إليز) بأن كلير

كانت خليلة شيلي... ذلك كذب وتلفيق، إن لدى كلير بعض العيوب، لكنها طيبة القلب، وإن صادف أن تشاجرت معها أكون أنا الفظة لا هي ودائماً ما نتصافى بمودة وحب».

هل أقامت كلير علاقة جنسية مع شيلي أسفرت عن ولادة طفل؟ لم تتأكد حقيقة هذا الأمر أبداً. كل ما هو معروف أن كلير كانت مريضة جداً في نابولي، وأن شيلي كان يسعى لتعميد طفلة تدعى إيلينا، التي وضعت فيما بعد في مأوى الأيتام حيث ماتت بتأثير الحمى. ويبدو أن لورد بايرون، على الرغم من إنكاره الأمر أمام شيلي، كان يعتقد بأن شيلي لم يُرزق بطفلة من كلير فحسب، بل إن أليغرا نفسها يمكن أن تكون طفلة شيلي. فذات مرة، حين كانت الخادمة إليز تلعب مع أليغرا، اقترب بايرون منها وقال «ستغدو امرأة جميلة، وعندئذٍ سأتخذها خليلة لي». ذعرت إليز وقالت «سيدي إنك تمزح مزحة غير مناسبة». فقال بايرون «سأفعل ذلك، وأستطيع أن أفعل ذلك لأنها ليست طفلتي، إنها طفلة السيد شيلي».

كل هذا القيل والقال صَعَّب على كلير الاتصال بأليغرا، وجعلها عاجزة حين وضع بايرون طفلته أخيراً في دير للراهبات يبعد مسافة ١٢ ميلاً عن رافينا. وحين علمت كلير للمرة الأولى بأن أليغرا وُضعت في دير هاجت واضطربت. فقد شعرت بأن الأديرة جرداء لا تبعث على الدفء، والإيطاليات «أمهات غير طبيعيات وإباحيات وجاهلات». وبالنيابة عن كلير سافر شيلي - الذي كان مشغولاً بابنه الذي ولد عام ١٨١٩ - إلى رافينا ليناقش مع بايرون قضية كلير. لكن بايرون كان مهتماً بموضوع معركته من أجل حرية الإيطاليين، وموضوع خليلته

الأخيرة تيريزا المتزوجة من أحد النبلاء. وفي حين تحدث بايرون مطولاً عن تيريزا ـ التي اعتقد شيلي أنها جذابة ولكنها ضحلة وساذجة ـ لم يرد التحدث عن كلير وأليغرا التي لم يكن قد رآها منذ أن أودعها الدير.

قام شيلي بزيارة الدير وحده، ووجد أليغرا، البالغة من العمر أربع سنوات ونصف، أنحل وأطول وأكثر شحوباً. أهداها سلسلة ذهبية صغيرة وكيساً من السكاكر. وحين أزف موعد رحيله سأل الصغيرة إن كان ثمة رسالة إلى أمها، قالت الصغيرة «أريد قبلة وملابس جميلة من الحرير والذهب». ثم سألها عما تريده من والدها أجابت «أن يزورني مع ماما».

بعد وقت قصير، عندما لحق بايرون تيريزا إلى بيزا، حاول شيلي مرة أخرى التوسط من أجل كلير. ففي إحدى الأمسيات أخبره بأن صحة كلير ليست على ما يرام بسبب قلقها على ابنتها، فلم يُبْدِ بايرون اهتماماً وقال: النساء مولعات بالمشاهد العاطفية. أغضبت غلظة بايرون وقسوته شيلي، الذي اعترف لآخرين بأنه ود أن يلطم بايرون. في غضون ذلك زارت إحدى صديقات كلير الدير، وذكرت أنه يدار على نحو رديء، وأنه غير صحي على الإطلاق. عندئذٍ طلبت كلير، القلقة على ابنتها، من شيلي أن يساعدها على اختطاف أليغرا. فرفض شيلي، لأن هذا سيورطه في مبارزة مع بايرون. وطلب من كلير أن تدعه يتابع مساعيه العقلانية مع بايرون.

ظلت كلير تنتظر آملة أن يقنع شيلي بايرون ليعيد إليها ابنتها. وخلال انتظارها كان ثمة نشاطات وتسليات في حياتها اليومية. فقد

انضم العديد من الزوار إلى حلقة شيلي في بيزا، وقد انشغلت كلير بهم وكذلك بالجمعية الإيطالية للبلدة. ولاقت من توم ميدوين خال شيلي بعض التودد. وصادقت اثنين من المقربين من شيلي هما الكابتن إدوارد وليامز وزوجته العرفية جين. كان وليامز ضابطاً في الجيش الإنكليزي بالهند، وهناك قابل جين التي كان زوجها البحار قد هجرها. ثم قدم إدوارد جون تريلوني العنيف والمثير الذي مارس القرصنة طوال ست سنوات والذي سينجو من الاغتيال في اليونان. لقد سبح في النياغارا، وتزوج أربع نساء (واحدة منهن عربية، وأخرى ابنة القائد اليوناني غوريلا).

وقع تريلوني في حب كلير، وشاركها على الفور حبها لـ شيلي وكراهيتها لبايرون. وحين سألها أحدهم بعد نصف قرن عن سبب استياء تريلوني من بايرون أجابت «حسن، أنت تعلم أن بايرون عامله بازدراء حين قال [كان تريلوني شخصاً ممتازاً قبل أن يتشبه ببطلي شيلد هارولد ودون جوان]. وقد أُخبر تريلوني بذلك ولم يسامح بايرون أبداً».

في ٢٠ نيسان عام ١٨٢٢ وصلت رسالة شخصية من بايرون إلى شيلي تضمنت خبر موت أليغرا في الدير بعد إصابتها بالتيفوس. أراد شيلي أن يخفي الأمر عن كلير خوفاً من أن تقدم على محاولة قتل بايرون الذي يعيش بجوارهم. لكن أثناء حديثه مع ماري حول موت الطفلة، دخل عليهما تريلوني ووليامز وكلير. وقد استشعرت كلير من وجهيهما ومن صمتهما المفاجئ ما حدث. لم تنفجر من الألم واليأس بل طلبت بهدوء وبسرعة رؤية جسد أليغرا، ورسماً صغيراً لها وخصلة من شعرها. التزم بايرون بما طلبته وأرسل لها على الفور رسماً صغيراً

وخصلة من الشعر، وعندما لم تقو كلير على رؤية جسد الطفلة، أمر بايرون بإرسال أليغرا إلى إنكلترا لتدفن هناك. وقد رفضت كنيسة هارو دفنها في جدران الكنيسة لأنها ابنة غير شرعية، ودفنت خارج مدخلها.

في البداية بدا بايرون متأثراً جداً. وقالت تيريزا «لقد رغب في أن يُترك وحده وأجبرني على المغادرة. وفي الصباح التالي كان هادئاً وعلى وجهه أمارات الخضوع الديني». وحين بدأت تيريزا بمواساته قاطعها قائلاً «إنها محظوظة أكثر منا، إضافة إلى ذلك فإن هذا العالم لن يوفر لها السعادة. إنها إرادة الله».

عند التفكير بعلاقته الكلية مع كلير كليرمون، يبرز في المقام الأول تجاهله لخير أليغرا وسعادتها، مما يجعله منحرفاً ومزاجياً وزئبقياً. إنه لمن الصحيح تماماً أن بايرون لم يقم بإغواء كلير، ومن الصحيح أيضاً أن كلير أحرجته وضايقته على نحو دائم وأزعجته، وإنها إن جاز التعبير بحثت عما أرادت الحصول عليه. لكن واقع أنه قبِل حبها وبادلها الحب، وأنه أنجب منها طفلة، يفرض عليه أن يُظهر تفهماً إنسانياً أكبر. وهذا ما لم يفعله، ولم يستطع تقديمه.

تلا موت أليغرا، بعد شهرين ونصف، مأساة تاريخية عظيمة. كان شيلي قد أبحر في قارب مع وليامز عبر خليج سبيزيا ليزورا لي هانت وعائلته. وفي رحلة العودة داهمتهما عاصفة أغرقت زورقهما. بحث تريلوني وصديقه البحار دان روبرتس في الساحل عن الرجلين المفقودين، في حين انتظرت ماري وكلير وجين وليامز بقلق. وبعد عشرة أيام اعترضت كلير رسالة من روبرتس إلى تريلوني، يقول فيها روبرتس بأنه سمع أن الجسدين انجرفا إلى البر، وهو الآن يتحقق الأمر.لم تستطع كلير

إخبار ماري، وأرسلت تستدعي هانت، لكن قبل وصوله ظهر تريلوني. كان قد شاهد الجسدين، وكانت طريقة تعبيره كافية.

وفي حين تخلفت النساء الثلاث ـ ماري وكلير وجين ـ يوحّدهن شقاء واحد، ذهب تريلوني وبايرون وهانت وآخرون في عربة لإحراق الجسدين. كان الوقت ظهراً و الحرارة شديدة، حين كان لهب هشيم الشجر يتراقص فوق جثمان شيلي. وقد تساءل بايرون فجأة «هل هذا جسد إنساني؛ إنه أشبه بجثة خروف أو أي حيوان آخر وليس بجسد إنسان، إن هذا لسخرية من غرورنا وحماقتنا». ثم وثب بايرون ومعه تريلوني باتجاه المياه صارخاً «لنجرب قوة المياه التي أغرقت صديقنا». وبعد سباحة قصيرة عاد تريلوني إلى الشاطئ. كانت عملية الحرق قد أوشكت على الانتهاء. وطبقاً لما ذكره تريلوني فيما بعد «طلب مني بايرون أن أحتفظ له بجمجمة شيلي، لكني حين ذكرت أنه كان قد استخدم واحدة كأساً للشراب، صممت على ألا تُدنَّس جمجمة شيلي... كان ثمة أجزاء لم تتلف تماماً، شظايا عظام والفك والجمجمة، لكن الذي أدهشنا جميعاً هو القلب الذي ظل كاملاً».

أعطى تريلوني لي هانت قلب شيلي الذي سلمه إلى ماري. وقد احتفظت ماري بالقلب طوال حياتها في كفن حريري، وحملته معها في أسفارها. وحين توفي إبنها سير بيرسي عام ١٨٨٩ وُضع القلب في صندوق من الفضة ودفن مع ابنها.

بعد عملية الإحراق أنقذ الكابتن روبرتس الـ «دون جوان» ـ اسم القارب الذي غرق فيه شيلي ـ. ولم يُعرف أبداً ما إذا كان القارب قد قلبته العاصفة أم صدمته قوارب الصيد الإيطالية التي أمل أصحابها

بأن يجدوا بايرون على متنها ليسلبوه ويقتلوه. باع الكابتن روبرتس هيكل الـ «دون جوان» بما يعادل مئتي دولار، ووزع الأمتعة الشخصية التي وجدها في هيكل القارب، وأهدى بايرون كتب شيلي المبللة، لكنه سلّم يوميات الكابتن وليامز الشخصية إلى لي هانت لأنها تحتوي على «ملاحظات قاسية حول بايرون».

بعد شهرين من وقوع المأساة الأخيرة سافرت كلير كليرمون وحيدة وفي محفظتها عشرة جنيهات لتقابل شقيقها الأكبر تشارلز الذي وعد بأن يجد لها عملاً في فيينا بصفة مربية خاصة. وعلى الرغم من أن شقيقها، الشخصية المنفتحة الذي يدرِّس الإنكليزية لتأمين معيشته، كان ودوداً جداً، إلا أن كلير وجدت فيينا مدينة لا تطاق. فقد حولت عائلة هابسبورغ الحاكمة وميترنيخ النمسا إلى دولة بوليسية، ولم يكن ثمة حرية للتعبير عن الرأي. وحين تفوه تشارلز بأفكاره علناً، نقلت رسالة مجهولة الاسم هذا السلوك الطائش إلى البوليس، ووصفت الرسالة خلفيته العائلية. وقد مُنح تشارلز وأخته كلير خمسة أيام لمغادرة البلد. لكن علاقته بعائلة أسترهازي وبعدد من النبلاء ساعدت على إلغاء أمر الطرد. لم تستحسن كلير هذا التطور، وعندما أتيحت لها فرصة العمل مربيةً لدى عائلة روسية غنية تعيش قرب موسكو قررت اقتناصها. وقبل مغادرتها إلى موسكو تلقت عرضاً آخر، أرسل لها تريلوني مالاً لتعود إلى فلورنسا، وطلب منها أن تصبح زوجته أو خليلته، لكنها رفضت المال والاقتراح. وعندما أرسلت لها ماري شيلي رسالة إلى موسكو تنصحها فيها أن تتزوج تريلوني، أجابت كلير أن ذلك لن يحدث: «إنه يحب الحياة المشوشة الصاخبة، وأنا أحب الحياة الهادئة، هو

ممتلئ بالمشاعر الرائعة ويفتقر إلى المبادئ، وأنا مليئة بالمبادئ وأفتقر إلى العاطفة، هو يتلقى انطباعاته من خلال قلبه، وأنا أتلقاها من خلال عقلي».

ومع مرور السنين تلاشى ولع تريلوني بكلير، لكن سيل رسائله لم يتوقف. كتب إليها من فلورنسا ومن شارلستون وجنوب كارولينا ومن إنكلترا. وبعد ثماني سنوات كتبت إلى تريلوني مقترحة العيش معه، لكن ولع تريلوني بها كان قد تضاءل، ورفض اقتراحها بلباقة.

في صيف عام ١٨٢٤ وصلت كلير إلى روسيا القيصرية. وذهبت لتعمل في بيت واسع خارج موسكو تقطنه عائلة مكونة من محام ينتمي إلى أسرة مرموقة يدعى زاخار نيكولايفيتش وزوجته ماري وولديه جون ودونيا. وقد شُدهت كلير من الرهبان بأرديتهم السوداء في الساحة الحمراء، ومن العائلات الأرستقراطية التي تملك الآلاف من الأقنان على مساحات شاسعة من الأراضي الريفية. وقد عاشت كلير تجارب غرامية قصيرة الأمد. افتُتنت برجل ألماني يدعى هارمون، وبعازف بيانو يدعى جينيشستا، وأخيراً بـ بروفيسور إنكليزي، لكن صدمته رغباتها بسهولة. وبعد ظهور الآنسة الثرثارة فريوين في موسكو، التي كانت قابلت والدة كلير في لندن والتي كشفت للبروفسور ماضي كلير، كتبت كلير إلى جين وليامز: «أستطيع أن أرى أنه في حيرة تامة من أمري. إنه لا يستطيع أن يفسركم باستطاعتي أن أكون ممتعة على نحو مفرط وبعد حين بغيضة».

لكن كلير عاشت معظم أيامها في بلادة. وقد كتبت في دفتر يومياتها: «ليس ثمة حديث في الشؤون العامة، ولا مناقشات حول

الكتب ـ لا شيء سوى لعب الورق والأكل وتوجيه الأوامر المختلفة للخدم». كانت كلير تقرأ الصحف الأجنبية حين تستطيع إيجادها. وفي هذه الصحف قرأت في صباح أحد الأيام خبر موت بايرون في ميسولوني باليونان في ١٩ نيسان عام ١٨٢٤. وقد زودتها الرسائل التي وردت من إنكلترا ببقية القصة. أعيد جثمان بايرون، الذي حُفظ في برميل كبير مملوء بالكحول، إلى إنكلترا. وتعرف هوبهاوس على جثمانه من قدمه الشوهاء. ومُدد الجثمان في أبهة مدة أسبوع في غرفة مضاءة بالشموع في «غريت جورج ستريت». وذهبت ماري لرؤيته. كان هناك خادمه المخلص فليتشر. وقد أصغت ماري لما قاله فليتشر ودونته «يبدو من الكلمات القليلة التي تفوه بها أنه ارتكب حماقة حين قال بأن سيده تحدث عن كلير في لحظاته الأخيرة، وعن رغبته في أن يفعل شيئاً من أجلها، لكنه لم يُجز له عمل شيء». سمعت كلير ذلك وهي في روسيا، وسمعت أيضاً بأن وصية بايرون الأخيرة كتبت قبل موت أليغرا، وتقضي بإعالة ابنته، لكن ليس أمها.

في النهاية ضجرت كلير من روسيا. وباتت تتشاجر ليس فقط مع مستخدميها بل مع كل من حولها. وعندما توفيت دونيا إثر اختلاطات نشأت من مرضٍ معدٍ، لم تعد كلير قادرة على تحمل أهل البيت. في موسكو تنقلت من عمل إلى آخر. وأخيراً فكرت بالذهاب إلى الهند، لكنها لم تفعل. وذهبت إلى ألمانيا مع عائلة تدعى قيصروف.

في عام ١٨٢٨ بعد عقد من الغياب عادت إلى إنكلترا، ومكثت في لندن طوال العشرين سنة التي تلت، باستثناء بعض الرحلات، وعملت مربية. وفي لندن تنقلت من بيت إلى بيت، تعلم التلاميذ

الأغنياء باللغة الإيطالية، تكدح من التاسعة صباحاً إلى السابعة مساءً «محكوم عليها بالحياة»، أو كما صاغها تريلوني «بالعبودية الكريهة».

كانت علاقتها مع أختها غير الشقيقة ماري شيلي مزيجاً من الحب والحسد. ففي إنكلترا وخارجها حافظت على صلتها بماري، ولم تكن لتخجل أبداً من تقديم النصيحة لها. تظاهرت ماري أيضاً بأنها تبادلها الحب، مع أن ماري كانت مستاءة من افتتانها بـ شيلي. وفي إحدى المرات حين توقعت ماري زيارة كلير، وحاولت كنتها الخروج تجنباً للقائها، قالت لها ماري: «لا تتركيني وحدي معها، فقد كانت سبب خراب حياتي منذ أن كنت في الثالثة من عمري».

كان شيلي قد أوصى قبل موته بأن تُمنح كلير مبلغ ١٢ ألف جنيه. وكانت ماري تصر دائماً على أن شيلي اعتزم ترك مبلغ ٦ آلاف جنيه لـ كلير، وقد حدث خطأ كتابي في الوصية. لقد عنى الإرث كل شيء بالنسبة لـ كلير، لكنها لم تتسلم المبلغ إلا بعد موت والد شيلي السير تيموثي. وفي عام ١٨٤٤ توفي والد شيلي وحصلت كلير على ١٢ ألف جنيه. وقد فقدت معظمه عندما استثمرته في صندوق «لا ملي أوبرا هاوس»، وفي مضاربة في النمسا اقترحها أخوها شارلز. وبالمال القليل المتبقي قررت كلير الرحيل إلى فلورنسا للتقاعد فيها حيث الحياة أرخص.

أمضت كلير الـ ثلاثين سنة الأخيرة من حياتها في فلورنسا في عزلة. وأخيراً انضمت إليها باولا العانس ابنة شقيقها، وهي امرأة بسيطة نظرت إليها عائلتها فيما مضى على أنها «موهوبة وخلاقة ومتزنة».

وطوال سنوات لم تتغير آراء كلير حول شيلي وبايرون. كانت تعد

شيلي عبقرياً. وظلت تكنُّ لـ بايرون الكراهية والاحتقار. لم تسامحه أبداً على موت ابنتها أليغرا. وحين اعتقدت بأنها يمكن أن تصاب بالكوليرا كتبت إلى ماري تقول: «عواطفي لم تتغير تجاه لورد بايرون، وإن مُنحت الفردوس شرط أن يشاطرني به بايرون لرفضته.. ».

حين بلغت كلير الحادية والسبعين ومضت في حياتها إثارة أخيرة ووجيزة. فقد وصلتها شائعة تقول بأن أليغرا لم تمت في دير، وأن بايرون ابتكر القصة ليبقى كلير بعيدة عن حياة أليغرا. بدأت بالتحقق من الشائعة وكلها أمل في إيجاد ابنتها، وحين علم تريلوني بالأمر كتب إليها «لو كنت في إيطاليا لشفيتك من أوهامك حول أليغرا.. ».

تابعت كلير البحث دون تردد، لكن اتضح لها أخيراً أن أليغرا ليست على قيد الحياة، واستسلمت كلير للأمر الواقع وتابعت حياتها الرتيبة. كانت تستقبل بعض الأصدقاء في غرفها المظلمة ذات الطراز العتيق في ٤٣ فيا رومانا. وبعد تحولها إلى الكاثوليكية زارها كاهن الأبرشية للحديث معها. زارها أيضاً السائح الإنكليزي الشاب وليام غراهام الذي أُعجب بها أيما إعجاب. وأخيراً ظهر الكابتن إدوارد سيلسبي من ماساشوسيتس باحثاً عن آثار رومانتيكية.

في ١٩ آذار عام ١٨٧٩ فتحت باولا كليرمون دفتر يومياتها وكتبت فيه: «في العاشرة من هذا الصباح توفيت عمتي بهدوء دون ألم ودون وعي ـ وكما تنبأت بنفسها، فقد انطفأت كالشمعة.. ودُفنت حسب رغبتها مع شال شيلي الصغير في مقبرة الأنتيلا ».

المحدثة البارعة

كانت مخادعة كبيرة ـ بالطبع مع الكثير
من الموهبة والواقعية الأخلاقية،
أو بعبارة أخرى، لم تستطع أبداً أن
تكون مخادعة كبيرة جداً.
ناثانييل هاوثورن

هتف ناثانييل هاوثورن «وددت لو أن بالامكان أن تفقد الآنسة مارغريت فولر لسانها!». كان الكاتب البارز هاوثورن يشير بكلامه إلى سارة مارغريت فولر، نصيرة الحركة النسائية والناقدة والمحاضرة والمزعجة. لكن هل فقدت لسانها؟ فلو حدث ذلك لكان هاوثورن سيحظى ببطلة أقل أهمية منها. نظراً لأن مارغريت فولر هي التي زودت هاوثورن بالمحفِّز الذي دفعه إلى خلق زنوبيا في حكاية بليثيديل.

تخيل هاوثورن زنوبيا وحكاية بليثيديل حين قرر مغادرة بوسطن والشروع في تدبير شؤون منزل في المدينة الفاضلة. في تلك السنة كانت المدينة الفاضلة في أمريكا قريبة وحقيقية جداً. وقد حملت اسم معهد بروك للزراعة والتربية. وتموضعت على أرض صلبة حصباء مساحتها

١٩٢ أكراً في ويست روكسباري ـ ماساشوستس. كانت هذه الكومونة التجريبية مفخرة حفنة من المثقفين الأمريكيين وأملهم، وكان معظم هؤلاء من المتفوقين وبضمنهم مارغريت فولر الثرثارة.

كان مؤسسا الـ بروك فارم هما جورج ريبلي، وهو قسيس شاحب بنظارتين ومن جماعة التوحيد(*)، وزوجته صوفيا. لم يكن القسيس يهدف إلى اختبار التعاليم الاشتراكية، أو إيجاد فردوس الحب الطليق (ممارسة الجنس دون زواج)، بل على الأصح، كما شرح للآنسة فولر، تأسيس جمعية تعاونية يمكن للرجال فيها «أن يتجمعوا ويعرضوا للعالم كيفية العيش». ولتحقيق هذه الغاية وضع ريبلي برسم البيع ٢٤ سهماً من رأسمال العضوية، بسعر ٥٠٠ دولار لكل سهم. أثارت الاحتمالات فضول هاوثورن. كان في السابعة والثلاثين تقريباً، جرب التأليف ولم ينجح، وكان يعمل في إدارة الجمرك في بوسطن حين لفت انتباهه مشروع «بروك فارم». وقد أتاح له فرصة العودة إلى الكتابة، والعيش بعزلة وبنفقات منخفضة. هنا كانت لديه فرصة لوضع كتاب رائج تمكنه إيراداته من الزواج من صوفيا بيبادي العليلة التي تملك أختها إليزابيث مكتبة شهيرة في بوسطن. وبينما كان يدرس هذا التغيير فقد عمله في إدارة الجمرك. وعلى الفور اشترى سهمين من أسهم «بروك فارم» بمبلغ ألف دولار. وتوجه إلى كومونة ريبلي المثالية، التي وصل إليها وسط عاصفة ثلجية في ١٢ نيسان عام ١٨٤١.

دامت بروك فارم مدة خمس سنوات، لكن هاوثورن عاش فيها سنة

---

*جماعة من أتباع مذهب مسيحي يقول بأن الإله واحد وينكرون التثليث. «معجم أوكسفورد المحيط».

واحدة. كانت كومونة المدينة الفاضلة هذه متعبة جداً وغريبة ولا تشجع على التأليف. فبينما تقوم النساء، بتنانيرهن القصيرة، بأعمال المنزل وبالتعليم في روضات الأطفال، يقوم الرجال بالعمل في الحقول . كان هاوثورن يستيقظ في الرابعة والنصف من كل صباح. يقطع الأخشاب ويحلب الأبقار ويسمِّد الأرض. وكان ينام في التاسعة والنصف من كل مساء. في البداية راقت له الحياة البدائية وكتب إلى صوفيا «أشعر أن آدم الأصلي يحيا من جديد في داخلي». لكن سرعان ما خبا هذا الشعور. إن الجهد الجسدي المستمر أتعبه كثيراً ومنعه من أن يضع كلمة إبداع واحدة على الورقة.

لقد أعتقد إمرسون(*) أن بروك فارم نموذج مثالي، لكن ثورو(**) لم يعتقد ذلك. وبعد عام كان هاوثورن إلى جانب ثورو. إن الحياة التعاونية لم تكن تناسبه، كما قال لـ صوفيا، مضيفاً أن مستقبلهما ستقرره قوته الفردية.

حين غادر هاوثورن بروك فارم، لم يكن يحمل تحت إبطه رواية، لكن كان في مخيلته وفي يومياته رواية لم تكتب بعد، وقد قال «سأكتب يوما كتاباً حول بروك فارم». وبعد ثماني سنوات تزوج صوفيا ونشر «الحرف القرمزي». وقال «في حكاية أخرى سأتناول موضوع الكومونة، وسأتعرض لتجاربي وملاحظاتي حولها».

إن معظم ملاحظاته المثمرة تعلقت بـ مارغريت فولر التي عدها إمرسون «المرأة الأعظم سواء في العصور القديمة أم في العصور

* رالف إمرسون ١٨٠٢ ـ ١٨٨٢ ، فيلسوف وشاعر أمريكي . (المورد)

** هنري ثورو ١٨١٧ ـ ١٨٦٢ : كاتب وشاعر أمريكي عُرف بمقاومته الشديدة للاسترقاق والاستعمار . (المورد)

الحديثة». لم يكن شباب الآنسة فولر، في ردائها القطني، شباباً أنثوياً. كانت تعقد شعرها بشدة في خصلة واحدة. وكان أنفها طويلاً جداً، وفمها واسعاً جداً، وذقنها قاسية جداً. كانت عدوانية ومروعة وواسعة المعرفة وطموحة، وعلى الرغم من صوتها الأنفي الذي يثير الأعصاب، فهي تستطيع التحدث بلمعان وطلاقة حول أي موضوع ثقافي. لكن هاوثورن نفر منها بشدة من البداية. فقد شعر أنها عدوانية على نحو محرج وذكية فوق الحد وصريحة على نحو غير محتشم في موضوع الجنس. إضافة إلى ذلك كانت معروفة أكثر منه. وعلى الرغم من اعتقاد فولر بأن هاوثورن يجمع بين «الرقة والحنان، وبين العمق والرجولة، وعلى الرغم من أنها أهدته زهرية برونزية بمناسبة زواجه، رفض أن تستميله إليها.

لاحظ هاوثورن ذيوع صيتها وتقدمها السريع، واحتفظ بآرائه الخاصة عنها في دفتر يومياته: «إنها لم تتمتع بالأنوثة وجمال المرأة، وقد اكتسبت طبيعة قوية وقاسية... كانت مخادعة كبيرة ـ بالطبع مع الكثير من الموهبة والواقعية الأخلاقية، أو بعبارة أخرى، ما استطاعت أبداً أن تكون مخادعة كبيرة جداً. لكنها زودت نفسها بالكثير من المزايا المستعارة... لم يكن ثمة مأساة مثل حياتها».

ذلك كان التقييم الذي احتفظ به هاوثورن لنفسه، والذي ادخره من أجل قصة المستقبل التي سيكتبها بُعيد موت فولر. لقد راقب بصبر وانتظر إلى أن عاش النموذج الأصلي لـ زنوبيا حياة قصيرة وتعسة.

ولدت مارغريت فولر في أيار عام ١٨١٠. كان والدها عضواً في الكونغرس ومحامياً. في السادسة من عمرها تعلمت قواعد اللاتينية،

وفي السابعة عرفت فيرجيل، وفي الثامنة عرفت شكسبير، وقبل بلوغها الخامسة عشرة كانت قد تعلمت الفرنسية والإيطالية واليونانية. دخلت فولر مدرستها الأولى وهي في الخامسة عشرة. وهناك عانت الصداع والكوابيس والنضوج المبكر. وبعد موت والدها أخذت على عاتقها إعالة إخوتها وأخواتها العشرة عن طريق انخراطها بالتدريس. استخدمها برونسون أكولت لتعلّم في المحفل الماسوني، حيث كان يدير مدرسة مع زملائه المدرسين. وفي غضون ثلاثة أشهر استطاع تلاميذ فولر أن يقرؤوا عشرين صفحة باللغة الألمانية. وعندما رحلت إلى بوسطن وهي في التاسعة والعشرين وجدت سمعتها بوصفها واسعة الاطلاع قد سبقتها. وفي بوسطن التقت أخوات بيبادي وبدأت تعزز «أحاديثها» الشهيرة في مكتبة إليزابيث التي استولت على ردهة العائلة. كانت تلك الأحاديث، التي هي في الواقع محاضرات غير رسمية، موجهة عبر صوتها الأنفي، إلى ثلاثين امرأة دفعت كل واحدة منهن عشرين دولاراً لقاء سلسلة من ثلاثين اجتماعاً. وقد لخصت الآنسة فولر «حذلقاتها المعرفية الرائعة» حول الميثولوجيا اليونانية والكاثوليكية والشياطين والمعتقدات والمثال الأعلى والفنون الجميلة.

في عام ١٨٤٠، بعد أن تعرفت فولر بـ رالف إمرسون، تعاونت معه على نشر فصلية أدبية دُعيت «The Dial». وقد كتب توماس كارليل لـ إمرسون «أحب فصليّتك «Dial»». طُبع من الفصلية ٧٠٠ نسخة ـ لكن كان ثمة ٣٠٠ مشترك فقط ـ قبل زوالها بعد أربع سنوات.

في تلك الفترة، بعد أن تعرفت على نحو أفضل بـ هاوثورن في بروك فارم، أخذت تزور الكاتب وزوجته صوفيا على نحو منتظم. وفي

ذات الوقت كانت تزعج هاوثورن بزيارتها الشخصية له، وكانت تستعدي الكُتَّاب الآخرين من خلال موقعها كناقدة أدبية في «نيويورك تريبيون».

وبصفتها كاهنة الـ تريبيون الأدبية، كتبت نقداً حول شعر هنري وورد ذوورث وجيمس روسيل لويل الذي وصفها بالمرأة الحمقاء المغرورة. وكان الكاتب والشاعر إدغار آلان بو واحداً من القلائل الذين وقفوا إلى جانبها. وخصصت فولر رسائلها النقدية الأقل والأكثر تنميقاً للعباقرة الذين عشقتهم، وكان بيتهوفن من بينهم. وفي غضون ذلك، وسط مقابلاتها ورسائلها، كانت تؤلف كتاباً خاصاً بها. وقد نشر عام ١٨٤٥ تحت عنوان «المرأة في القرن التاسع عشر»، وقد دافع الكتاب عن نقاط ضعف المراة، ونادى بتحرير الجنس الضعيف اجتماعياً وسياسياً. كان نجاح الكتاب فورياً، وأكسبها سمعة خارج دائرة نيو إنغلند المحدودة. لكن في النهاية كان إنجازها في ميدان الكتابة أقل أهمية من موهبتها في بناء الصداقة. وكان نفوذها قوياً جداً على عقول المبدعين الآخرين. كتب فان بروك: «مع كل صديق من أصدقائها بدت وكأنها تتكهن قانون نمائه الداخلي». وفي السنوات التي تلت أخذ العديد من هؤلاء الأصدقاء يتسابقون لإجراء حديث معها. وكان صحيحاً أنها أثَّرت في حيوات المئات. ولكن على الرغم من كثرة الأصدقاء وأثرها فيهم، كانت حياتها فارغة بسبب فقدانها الزوج. كان لديها ميول سحاقية شديدة. وقد كتبت تقول: «صحيح جداً أن المرأة يمكن أن تقع في حب أمرأة» ـ لكنها ظلت بحاجة إلى رجل. وأدركت أن ملامحها لا تجذب العديد من الجنس الآخر، ولم تدرك أن عقلانيتها العدوانية صدتهم. وقد اعترفت مرة بقولها «لا أحد يحبني، لكني أحب

الكثيرين... ليس لدي طفل، والمرأة في داخلي تشتهي هذه التجربة التي بدت الرغبة فيها كأنها ستشلني».

عندئذٍ، وعلى نحو مفاجئ، انغمست في علاقات مع عدد من الرجال. ويُعتقد أنها أقامت علاقة مع صامويل وارد السمسار الذي يصغرها بـ سبع سنوات، والذي تزوج أخيراً من امرأة جميلة من نيو أورليانز، ومن المعروف أنها وقعت بجنون في غرام رجل أعمال يدعى جيمس ناثان وأغرقته بالرسائل الرومانتيكية. وحين أجابها أن حبهما هو أكثر من أفلاطوني تراجعت في خوف، ثم استؤنفت العلاقة الروحية إلى أن تعب ناثان من الكلام والمراسلة، وفرَّ إلى أوربا.

في آب من عام ١٨٤٦ تبعت مارغريت فولر رجل أعمالها عبر الأطلسي، لكنه كان آمناً بين ذراعي امرأة أخرى. وقد أغضبها ذلك فترة وجيزة، لكن غضبها تمخض عن شيء أفضل. شرعت تجوب بين أسماء العالم القديم (تمييزاً عن أمريكا) الكبيرة. ففي إنكلترا قابلت براوننغ ودو كوينسي و وورد ذوورث وكارليل الذي لم يكن لقاؤها معه ساراً.

وفي باريس حيث عزف لها شوبان، أحبتها جورج صاند، وآدم ميكيفيتش الشاعر البولوني الذي يدرِّس في كوليج دو فرانس أراد أن يطلق زوجته ويتزوجها. جوسيبي مازيني المحرر الإيطالي الذي قابلته في لندن رغب أيضاً في الزواج بها. لكنها لم تعط نفسها لأي واحد حتى وصلت إلى روما. وهناك في عام ١٨٤٧، حين كانت في السابعة والثلاثين، قابلت نبيلاً إيطالياً كاثوليكياً يدعى المركيز جيوفاني أنجيلو أوسولي، وعلى الفور غدت خليلته.

كتب هاوثورن في يومياته «ما الذي وجدته مارغريت في هذا

الساذج، هذا الرجل الذي يخلو من ومضة فكر ـ هي التي ازدرت العجز الفكري. لا أفهم ماهية المشاعر التي تربطها به سوى أنها مشاعر شهوانية».

بعد عام من لقاء مارغريت بـ أوسولي أنجبت له طفلاً سمُّوه أنجيلو. وقد اعتقد الأصدقاء بأنهما تزوجا، لكن ليس ثمة بيِّنة تؤكد أنهما تزوجا شرعياً. وحين هاجم الفرنسيون روما، غطت فولر الأحداث بصفتها مراسلة «نيويورك تريبيون»، وعملت أيضاً في مشفى حيث اعتنت بالجرحى. وأخيراً غادرت إلى ليهورن مع طفلها ورفيقها. وكتبت تقول «أنا متعبة، متعبة من التفكير ومن التمسك بالأمل ـ متبعة من رؤية الرجال يخطئون وينزفون. سيظل الرجل يخطئ ويبكي، كما هو حاله منذ آلاف السنين. جبانة ومقرحة القدمين، سأزحف بسعادة إلى موضع منعزل أخضر».

في أيار عام ١٨٥٠ أبحرت مارغريت وأوسولي وأنجيلو إلى نيويورك. وبعد شهر من الإبحار اقتربت السفينة من نيوجيرسي. وفي الصباح التالي اصطدمت بمرتفع رملي متصل بجزيرة النار، وتدفقت المياه إلى داخلها. وقد حاول المسافرون وطاقم السفينة الوصول إلى الشاطئ عن طريق تثبيت أنفسهم بألواح خشبية. وقد سنحت لمارغريت فرصة للنجاة بنفسها لكنها آثرت عدم الانفصال عن عائلتها، وسرعان ما ابتلع البحر الثلاثة.

شوهد جسد الطفل أنجيلو على الشاطئ، لكن لم يعثر أبداً على جسدي مارغريت وأوسولي. وأصاب الحزن جميع مفكري أمريكا وإنكلترا.

وأخيراً، وفي عام ١٨٥٢، وضع هاوثورن روايته حول بروك فارم على الورق، وذلك بعد سنتين من غرق مارغريت. كانت لدى هاوثورن أيضاً الرغبة في الانتقام من إهانة قديمة. فقد كان صهر مارغريت قد أقدم على طعن صوفيا هاوثورن في قصيدة، ولم ينس زوجها الإهانة أبداً.

كانت رواية بليثيديل ثالث رواية لـ هاوثورن. وتحكي قصة بطلة تدعى زنوبيا نصيرة حقوق المرأة، التي تقع في غرام رئيس أعمى يدير كومونة مثالية، ثم تفقده بسبب أختها غير الشقيقة الأصغر والأجمل منها، ثم تنتحر بإغراق نفسها.

على الرغم من أن زنوبيا تحمل صفات مارغريت فولر، وتعاني ذات الإحباطات بسبب الرجال، وتزين شعرها بالأزهار المدارية، وتطرف عينيها بعصبية، لم يعترف هاوثورن علناً بأن مارغريت فولر كانت نموذجه الحي. وقد انتقد معجبو الآنسة فولر هاوثورن على وصفه. وقد حاول توماس هيغنسون كاتب سيرة فولر إنكار أي صلة بين زنوبيا والآنسة فولر، لكنه اعترف في النهاية بأن «صورة زنوبيا في رواية بليثيديل ستظل متطابقة مع صورة مارغريت فولر ما دام أدب اللغة الإنكليزية يقرأ».

البعض أحب الكتاب وقرظه. لكن حين وصل هاوثورن إلى لندن عرف أن الكتاب كان فاشلاً عموماً. ووصفه بعض النقاد بأنه أضعف كتب هاوثورن.

وبموت الأنثى المروعة المهذارة، فقدت فولر لسانها، وتحققت رغبة هاوثورن ـ لكن في النهاية كان نصراً لـ فولر. لأنه بسبب لسانها، اندفع هاوثورن إلى كتابة واحد من كتبه الأقل نجاحاً. كان عليه أن يأخذ بالحسبان المثل الياباني القديم الذي يقول: يبلغ طول لسان المرأة ثلاثة إنشات فقط، لكنه يستطيع قتل إنسان طوله ستة أقدام.

شـــيريدان

نعم ، نحن في الواقع أناس جميلون.
كارولين نورتون

كانت كارولين نورتون، الزوجة والأم، تورطت في فضيحتين كبيرتين هزتا إبان حياتها لندن. الفضيحة الأولى أوقعت رئيس وزراء بريطاني، وقادت إلى واحدة من أكثر المحاكمات إثارة في القرن التاسع عشر. الفضيحة الثانية أوقعت «التايمز» اللندية، المؤسسة المقدسة نوعاً ما ك داونينغ ستريت رقم ١٠ ، وهذا ما ألهم جورج ميريدث لاستخدام كارولين نورتون نموذجاً حين أبدع المتحررة البارعة ديانا واركينغ في روايته « Diana of the Crossways ».

لم تكن السيدة نورتون حظية، لكنها كانت سيئة السمعة كأي امرأة متهتكة، وسوء سمعتها هذا نشأ من علاقاتها الحميمة بالرجال حملة الألقاب النبيلة.

ينبغي أن نذكر أنها كانت من عائلة شيريدان. كان جدها ريتشارد برينسلي شيريدان كاتباً مسرحياً لامعاً. وهو الذي كتب مسرحية «مدرسة الفضائح» و«الغريمان»، والذي دافع عن الثورة الأمريكية وحرية

الصحافة، وعرف بواطن البرلمان بصفته عضواً فيه وسجن المدين بصفته نزيلاً فيه. وقد أنجب من زواجه الأول طفلاً سيغدو والد كارولين نورتون.

ولدت كارولين إليزابيث شيريدان، الثانية بين ثلاث أخوات، عام ١٨٠٨. توفي والدها مبكراً بعد إصابته بالسل، وأعالت والدتها الإسكتلندية العائلة المؤلفة من سبعة أفراد عن طريق كتابة الروايات حسب الطلب. وحين بلغت كارولين سن التعليم المدرسي ظهر جمالها اللافت للنظر: وجه إغريقي وشعر أسود تعقده في خصلتين طويلتين وعينان سوداوان وصوت ناعم ضعيف. رآها توماس مور، الذي أهداها قصيدة، أول مرة في باحة الرقص واعتقد بأنها «تشبه العجوز برينسلي على نحو مدهش، لكنها جميلة جداً». لكن جورج ميريديث، الذي رآها في كهولتها، هو الذي وصفها بدقة في روايته.

كانت كارولين جذابة بالنسبة للرجال، وكانت تعرف ذلك. ففي إحدى المرات رأتها فاني كيمبيل مع شقيقتيها وأخيها الأصغر ووالدتها وعمتها فعلقت قائلة: «بالتأكيد لم أشاهد أبداً باقة من المخلوقات الجميلة تنمو على جذع واحد»، فقالت كارولين «نعم، في الواقع نحن أناس جميلون».

كان هذا الجمال هو الذي سبب الإزعاج للسيدة شيريدان. كانت قد زوّجت ابنتها هيلين بملازم بحري حين كانت في السابعة عشرة من عمرها. وهي الآن قلقة بشأن الحفاظ على عفة كارولين. فبينما كانت ما تزال في المدرسة فتنت شقيق اللورد برانتلي، وهو محام يدعى جورج نورتون، وعضو محافظ في البرلمان.

وقد اقترح الزواج بها، لكن اقتراحه رُفض. وقد حُثت كارولين لقبول

عرضه الثاني بالزواج. تزوجا في تموز عام ١٨٢٧ حين كانت كارولين في التاسعة عشرة من عمرها، وكان محاميها في السادسة والعشرين.

ومنذ البداية برهن الزواج على غلطة فادحة بسبب التناقض في مزاجهما. فعلى الرغم من أن نورتون كان مثار إعجاب ومن عائلة جيدة، فقد كان متجهماً وفظاً وعنيفاً وانتهازياً ومحافظاً وبليداً. من ناحية ثانية، كانت كارولين مرحة ولامعة ونارية ومتحررة وذكية. كانا يتشاجران على نحو متواصل: حول عائلتيهما وحول السياسة وحول أي شيء وكل شيء. لقد ركلها وقذفها بالمحبرة وحرقها بالشاي الساخن. وفي ردها على ذلك شتمته بأبشع الكلمات ونالت من سمعته. لم تكن تحبه ولا تحترمه، وبدأت تنظر إليه بذات الازدراء الذي شعرت به ديانا بطلة ميريديث تجاه واورويك: «صار الزوج بالنسبة لي خانقاً، قناعاً حديدياً، مفتشاً، كل شيء ينافي الطبيعة.... وبمقاومتي له جعلته مستبداً، وجعلني ثائرة. كان أكثر جنوناً من المستبدين كافة ـ كان الأضعف».

شجعتها شقيقتها الأكبر هيلين على الاستمرار مؤكدة لها أن أطفالها سيجعلون الأمر مختلفاً. وفي السنوات القليلة التالية أنجبت كارولين ثلاثة أولاد ـ سبنسر وبرينسلي ووليام ـ لكن على الرغم من أنها هامت بهم إلا أن زواجها لم يكتسب سوى القليل من الصلابة. وللترويح عن نفسها لجأت إلى الكتابة والنشاط الاجتماعي. في العشرين من عمرها، في السنة الثانية لزواجها، نشرت المجلد الأول من قصائدها الرومانتيكية. وبعد سنة ظهر المجلد الشعري الثاني. وفي عام ١٨٣١ قدمت الـ «كوفنت غاردن(*)» ميلودراما من تأليفها «الملك

* كوفنت غاردن: الاسم الشائع لمسرح لندن، واسمه الكامل هو دار الأوبرا الملكية. المترجم

الغجري». وقد اكتسبت المسرحية شعبية في حين هاجمها النقد بقسوة. وفي غضون ذلك ساهمت شعبية كارولين الأدبية إضافة إلى جمالها وفطنتها في تقريبها من القصر، وفي جذب معظم الشخصيات الإنكليزية الشهيرة إلى صالونها. من بين تلك الشخصيات وزير شهير كان يأتي إلى منزلها للاستمتاع بحديثها، وقد جلب معه الفضيحة.

في الواقع كانت كارولين نورتون هي التي بذلت الجهد للقاء وليام لامب فيكونت ملبورن الثاني ووزير الداخلية في وزارة لورد غراي، وفي عام ١٨٣٠ فقد جورج نورتون مقعده في البرلمان، فكتبت كارولين إلى أختها «سقط نورتون في الانتخاب، وبمزيج من الأمل والسذاجة والغرور الذي يميزه، أكد لي أنه على الرغم من خروجه من البرلمان فقد كان مرشحاً محبوباً وأن خصومه مكروهون، وأن الذين صوتوا ضده فعلوا ذلك مكرهين».

سبب الفراغ الحاصل في حياة جورج نورتون مشكلة حقيقية، وأدركت زوجته أن بقاءها العاطفي يعتمد على تحويل مجرى حياته فوراً. فكتبت يائسة رسالة وجهتها إلى اللورد ملبورن، الذي أصبح صديق الأسرة على الرغم من أنها لم تكن تعرفه معرفة شخصية، ترجوه فيها أن يجد مركزاً لـ نورتون.

كان ملبورن قد سمع الكثير عن جمال السيدة نورتون فانتابه فضول لرؤيتها، وعقد العزم على مناقشة طلبها أثناء زيارة شخصية لمنزلها. إن ما حدث حين التقى اللورد ملبورن أول مرة كارولين نورتون في صالونها ظل مجهولاً. لكن اللقاء حقق النتائج التي رغبت فيها. إذ سرعان ما عينت وزارة الداخلية جورج نورتون قاضياً في قسم محاكم شرطة لندن بـ

لامبيث براتب سنوي مقداره ألف جنيه. ومقابل ذلك أصبح اللورد ملبورن زائراً دائماً في منزل كارولين واستمر هذا الحال طوال السنوات الخمس التي تلت وذلك بمعرفة الزوج وموافقته.

ماذا كانت مقاصد ملبورن؟ ماذا كانت طبيعة علاقته بـ كارولين؟ كان ملبورن لطيفاً ومتقلب المزاج وحساساً. لقد حافظ على زواجه الجهنمي بالليدي كارولين لامب التي كانت تتباهى بعلاقتها بـ بايرون أمام سكان لندن كافة. وبعد أشهر قليلة من دفن زوجته انغمس ملبورن في علاقة مع الليدي براندن، وهي زوجة نبيل إيرلندي. وكان اللورد براندن قد رفع دعوى قضائية بحق ملبورن، لكن الدعوى أُسقطت لعدم توفر الأدلة. الآن، وبعد سنتين، عثر ملبورن، الذي ما زال يتوق إلى رفقة أنثوية، على كارولين المستمعة الجيدة والمحدثة الجيدة.

لقد غدا عبداً لها. لكن لا يُعرف إن كان أصبح عشيقها أم لا. كان ينكر دائماً وجود علاقة جنسية بينهما. وحين اتهم بإغواء كارولين كتب إليها «آمل ألا تأخذي الأمر بصورة خاطئة إذا ما توسلت إليك لكي تحاولي على الأقل أن تكوني هادئة في ظل هذه المحاكمات. أنت تعلمين أن ما هو خطأ نادراً ما يصبح صواباً ـ أنا قلق ومهموم فقط من أجلك، وبشأن الموقع الذي حُشرت فيه ظلماً».

معظم رفقاء ملبورن من النبلاء أكدوا أن علاقته بـ كارولين لم تتعدَّ المحادثة. لكن خصومهما تشبثوا بادعائهم أن كارولين كانت خليلته ملبورن، منوهين بحاجته إلى النساء، وبطبيعة كارولين الشهوانية، ودليلهم على ذلك بقاؤهما معاً طوال سنوات.

شجع نورتون لبعض الوقت علاقة الصداقة. فقد ضمنت له وظيفته،

وساعدته على خلق احتكاكات اجتماعية مفيدة. حين كانت كارولين تزور داونينغ ستريت كان نورتون يرافقها إلى مدخل منزل ملبورن. ولم يغب عن حفلات كارولين التي كان ملبورن في عداد الحاضرين فيها. وعلى كل حال، لم يطلب جورج نورتون الطلاق إلا في عام ١٨٣٥ مدعياً أن اللورد ملبورن ساهم في نفور زوجته منه. والكل يعرف بأن نورتون لم يكن بحاجة إلى أحد لينفر زوجته منه، فقد أنجز هذا العمل بنفسه خلال ثمانية أعوام من الزواج. وقد تحولت السنتان الأخيرتان إلى جحيم. فقد تشاجرا بسبب بخله الشديد، وتشاجرا بسبب أخته الشاذة التي قدمت لزيارتهما وتشاجرا بسبب صديقته التي قدمت نصائح حول تربية أطفال كارولين. تركته كارولين مرتين، لكنه كان يقنعها بالعودة. وفي المرة الثالثة تركها بعد أن قذفها بتهمة الفجور مع اللورد ملبورن.

كان ثمة دليل على أن جورج نورتون قرر تحطيم ملبورن بأي ثمن، إذ كان ملبورن آنئذٍ رئيس وزراء إنكلترا وعضواً في حزب الأحرار. وكان نورتون عضواً في حزب المحافظين، وقد حرضه رفاقه في الحزب على إلصاق فضيحة بـ ملبورن من شأنها أن تطيح بحكومته. إضافة إلى ذلك، كان نورتون بحاجة إلى المال كما هي حاله دائماً، ويُعتقد بأنه كان يتوقع مبلغاً كبيراً من ملبورن كتسوية تقرها المحكمة.

في البداية فكر نورتون بأن يحشر دوق ديفونشاير وإدوارد تريلوني في الدعوى القضائية إضافة إلى رئيس الوزراء كمتهمين إضافيين بالزنى. وفي النهاية ركز حنقه الشرعي على اللورد ملبورن. في عام ١٨٣٦ عُقدت هيئة المحكمة لمناقشة الدعوى أمام المحلفين. وقد دعم نورتون اتهام زوجته بعدم الإخلاص، بشهادة الحوذي السكير وبعض الخادمات وببعض الرسائل المقتضبة التي تلقتها من ملبورن.

سخر محامي دفاع ملبورن من قضية نورتون، القضية التي سخر منها شارلز ديكنز فيما بعد في محاكمة بارديل ـ بيكويك، في أوراق بيكويك». ومن على منصة الشهود شهدت عائلة كارولين (عائلة شيريدان) أن نورتون نفسه كان اتخذ خليلة، وعامل زوجته بوحشية، وأنه حاول مرة أن يستدين ١٤٠٠ جنيه من ملبورن. استمعت هيئة المحلفين بما فيه الكفاية وأصدرت حكمها الصريح «لا إثبات»، وبرأت ملبورن بصورة كاملة. كان رئيس الوزراء مبتهجاً في مجلس العموم، وحياه الملك. وبذلك بقيت سمعته جيدة غير ملطخة، مما أهله لاحقاً ليخدم الملكة الشابة فيكتوريا ناصحاً ومؤتمناً على أسرارها.

أما بالنسبة لـ كارولين، فعلى الرغم مما حدث، لم تكن براءتها كاملة، فقد تلطّخ شرفها ونُبذت لبعض الوقت من المجتمع. وعلى الرغم من أن القضاء أجرى لها مبلغ ٣٠٠ جنيه سنوياً كتسوية انفصال، اضطرت لزيادة هذا الدخل عن طريق كتابة الروايات الشعبية. كانت غزيرة الإنتاج وراجت أعمالها، وكسبت من الكتابة ما يعادل ١٤٠٠ جنيه سنوياً. لكن معظم أعمالها الجادة كانت كراسات صُممت لتساعدها على استعادة رعاية أولادها الذين أخذوا منها بقرار من المحكمة.

كانت مرارة فقدها لأولادها أشد من فقدها لسمعتها. وقد كتبت تقول: «لم أرهم إلا عن طريق الحيلة، إذ أقترب من المنزل وأظل أراقب إلى أن يخرجوا في نزهتهم الصباحية. أعطاني ولدي الأكبر البالغ من العمر سبعة أعوام رسالة مجعدة قائلاً بأنه احتفظ بها في جيبه مدة أسبوعين، لكن لا أحد من الخدم رضي أن يضعها في البريد». وقد دفعها فشلها في استعادة أولادها، عن طريق الالتماسات والكراسات،

إلى إبداع «فصل رعاية الطفل» الذي ساعد في تحسين قانون الطلاق. وأخيراً مكّنتها حماستها الأدبية إضافة إلى القبول الاجتماعي من استعادة مركزها في المجتمع.

وبعد خمس سنوات من انفصالها عن نورتون، قابلت سيدني هربرت. كان هربرت أرستقراطياً أعزب يعمل سكرتيراً في وزارة البحرية الملكية. وسرعان ما أصبحت كارولين خليلته، وقد استمرت علاقتهما مدة أربع سنوات. كانا يتحدثان في السياسة مع بعضهما بعضاً ومع الأصدقاء، وهذا ما أفضى إلى تحطم علاقتهما.

كان هربرت صديقاً لـ السير روبرت بيل الذي خلف ملبورن في رئاسة الوزراء، والذي كان معارضاً للتجارة الحرة وداعماً لقوانين الغِلال (قوانين تحدد استيراد الحبوب إلى بريطانيا». لكن ندرة البطاطا في إيرلندا دفعت بيل للذهاب ضد رغبات محافظيه الداعمين له، بمساندته فكرة إلغاء قوانين الغلال في مسعى للحصول على حنطة بسعر أرخص. كان يحاول تقرير كيفية إعلان قراره المتطرف حين وجهت التايمز اللندية، في صباح الرابع من كانون الأول عام ١٨٤٥، ضربتها عن طريق نشر إعلان مبتسر حول خطة رئيس الوزراء لإلغاء قوانين الغِلال. ونتيجة لهذه القصة المثيرة أجبر رئيس الوزراء على الاستقالة. وقد حيرت داعميه فكرة واحدة: من الذي مرر السر لـ «التايمز» اللندية؟ وحام الشك حول سيدني هربرت، صديق رئيس الوزراء، الذي ربما يكون قد أخبر نورتون بالقرار التي نقلته إلى جون ديلين رئيس تحرير «التايمز» مقابل مال دُفع.

في الواقع، كان وزير الخارجية في حكومة بيل، اللورد أبيردين هو الذي أفشى السر لـ «التايمز». ولم يكن قصده من ذلك سوى المساعدة.

فقد أمل أن يكسب «التايمز» لإلغاء قوانين الغلال، لكن رئيس التحرير قامر بنشر القصة مستبقاً الحدث. وعلى الرغم من اكتشاف ناقل الخبر الحقيقي فإن العديدين ظلوا على اعتقادهم بأن كارولين خانت عشيقها هربرت لمنفعة شخصية. وحين جعل ميريدث بطلة روايته تخون عشيقها، لم يبق سوى أمل ضئيل لتصويب الافتراء ضد نزاهة كارولين.

قابل جورج ميريدث، ذو الشعر الأحمر واللحية الحمراء، كارولين نورتون أول مرة حين كان في الخمسين من عمره. كان اللقاء في إيشر مكان إقامة السير ألكسندر دوف غوردون ولوسي غوردون صديقي كارولين. وقد جرى بينهما حديث عن الفنون والأدب، ويبدو أنه لم يترك لديها انطباعاً حسناً.

كانت كارولين في السابعة والستين حين توفي جورج نورتون. كانت حرة أخيراً لتتزوج صديقها القديم السير وليام ستيرلينغ ـ ماكسويل، الأرمل الذي ماتت زوجته محترقة، وقد تمتع الطرفان معاً خلال أشهر قليلة قبل موت كارولين في تموز عام ١٨٧٧.

في عام ١٨٨٤ قرر جورج ميريديث نشر قصة كارولين. كان في الرابعة والخمسين متحمساً لإحراز نجاح واحد. وكان يعاني أيضاً علاقة غير ناجحة مع امرأة. وقد كتب يقول: «ستكون المرأة آخر شيء يصقله الرجل». كانت زوجته الأولى اللامعة أنجبت له ولداً، وبعد تسع سنوات تركته من أجل رسام أحبته ثم عادت حبلى. وأنجبت له زوجته الثانية ماري فوليامي ولداً آخر وبنتاً. كانت مهذبة ومملة وتستهجن تجاربه في تناول المأكولات النباتية فقط.

لم ينشر ميريديث كتابه الذي يحمل عنوان « Diana of the Crossways » وتدعى بطلته ديانا وارويك إلا في عام ١٨٨٤. وفي آذار من ذات العام

كتب إلى ر. ل. ستيفنسون(*) الذي كان في فرنسا، إنه يعمل بسرعة فائقة على إنهاء رواية من مجلدين لتنشر تحت عنوان « Diana of the Crossways » ـ تمثل جزئياً السيدة نورتون. لكن ليكن هذا بيننا». وكتب للسيدة ليزلي ستيفان زوجة صديقه متسلق الجبال، الذي كان والد فيرجينا وولف(**): «آمل أن انتهي من المرأة الرهيبة التي أتعبتني ـ في نهاية نيسان». وقد أنهى مهمته في نهاية شهر آب. وفي الرواية تحولت كارولين نورتون إلى السيدة واريك، وأصبح جورج نورتون أوغوستس واريك الذي يملك عمه الـ كروسويز؛ وغدا اللورد ملبورن اللورد دانيسبوره، وهو معجب بـ ديانا ساعد في إيجاد وظيفة لزوجها، وسيدني هربرت تحول إلى بيرسي داسيبه عضو البرلمان الذي أخبر ديانا بالسر الذي أفشته من أجل المال. ويمكن التعرف على ديلين رئيس تحرير التايمز في شخصية تونانس، والسير وليام سترلينغ في شخصية خاطب شاب يدعى توماس ريدوورث الذي يتزوج ديانا في النهاية.

في النصف الثاني من عام ١٨٨٤ ظهر من الرواية ٢٦ فصلاً ـ تتضمن الرواية ٤٣ فصلاً ـ وفي السنة التالية نُشرت الرواية كاملة في ثلاثة مجلدات. وقد قرأها الكثيرون، إذ نفدت ثلاث طبعات منها في غضون ثلاثة أشهر. ومع ذلك وجدها بريستلي(***) «غامضة ومحيرة». وقد اعترف بريستلي أيضاً بأن النقاد افتتنوا بشخصية ديانا نفسها،

---

* روبرت لويس ستيفنسون ١٨٥٠ ـ ١٨٩٤ روائي وشاعر وكاتب مقالة إسكتلندي . «معجم أوكسفورد المحيط» .

** فيرجينيا وولف ١٨٨٢ ـ ١٩٤١ كاتبة روائية إنكليزية . «معجم أوكسفورد المحيط» .

***جون بوينتون بريستلي ١٨٩٤ ـ ١٩٨٤ كاتب روائي ومسرحي ومذيع إنكليزي . «معجم أوكسفورد المحيط» .

ولفت انتباه الجمهور عنصر التشويق الفاضح. وقد وقع ميريديث، المرهق والمريض، على الفور عقداً لمدة سبع سنوات مع ناشر لندني ضمن له مئة جنيه لكل كتاب جديد».

أتى التحدي الحقيقي الوحيد للرواية من أقرباء كارولين نورتون. فقد نشر ابن أخت كارولين اللورد دوفرين، سفير إنكلترا في فرنسا، دليلاً يثبت بشكل قاطع بأن كارولين لم تخن رئاسة الوزراء، ولم تمرر السر للـ «تايمز»، ثم شارك أعضاء من أسرة كارولين في أتهام ميريديث بتهمة القذف. وتحت هذا الضغط تراجع المؤلف. وتضمنت النسخ الجديدة من الرواية حاشية كتبت على الصفحة الأولى تقول: «سيدة من طبقة متميزة، ذكية وجميلة، ابنة منزل إيرلندي شهير، وقعت ضحية افتراء. لذا ينبغي أن تقرأ قصة ديانا كرواية تخيلية».

الكتاب الثالث

الثائرة كفضيحة

الباحثة عن الفضائح

بين عامي ١٨٢٥ و ١٨٢٩ كان جون كوينسي آدمز رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية، الذي كان والده رئيس السلطة التنفيذية للأمة قبله. كان آدمز منعزلاً وانطوائياً، واسع الإطلاع ومتقشفاً صادقاً، وذا عادات تراعي الأعراف ـ باستثناء واحدة.

كانت عادة آدمز، خلال مدة رئاسته، أن يستيقظ قبل الفجر في اليوم المعتدل بين الساعة الرابعة والسادسة، يلبس ثيابه ويغادر البيت الأبيض خلسة، يعبر الامتداد الأخضر المطل على نهر بوتوماك، يقف خلف الشجيرات، يخلع ثيابه ثم يغطس عارياً تماماً في الماء، ويسبح باسترخاء، ويظل يعابث الماء قرابة الساعة، ثم يخرج إلى العدوة ليجفف نفسه، ثم يرتدي ثيابه بهدوء ويعود إلى البيت الأبيض منتعشاً مستعداً للإفطار وللكتاب المقدس وللمهمات الحكومية.

كان من المستحيل معرفة متى كفت هذه السباحات الرئاسية عن كونها استرخاء، لكن الكل عرف حين كفت عن كونها خصوصية. كان ذلك حين خرج الرئيس، في ذلك الصباح الصيفي الباكر، من نهر بوتوماك عارياً كما هي حاله ليجد امرأة ممتلئة ذات شعر رمادي أشعث جالسة بمصادفة محضة على ملابسه الداخلية، القميص والسراويل.

وبسرعة عاد الرئيس إلى الماء ولم يقف إلا حين وصل الماء إلى ذقنه.

استعاد الرئيس رباطة جأشه ثم أمر السيدة بالمغادرة. ودون أي انزعاج أخبرته بأنها تعقبته للحديث معه حول الجدل الدائر في محيط بنك الولايات المتحدة. وأنها اعتزمت البقاء حيث كانت حتى يصدر تصريحاً رسمياً. وينبغي الإشارة إلى أن ما حدث كان في الوقت الذي لم يكن فيه الرئيس يجري مقابلات أو يعقد مؤتمرات صحفية. ولكي يستجيب إلى طلبها كان عليه الإقلاع عن سابقة تاريخية. ومع ذلك أدرك أنه إن لم يفعل ذلك توجب عليه أن يظل غاطساً في النهر طوال فترة حكمه المتبقية ـ لأنه عرف المرأة على الشاطئ، وعرف أنه من الصعب مقاومتها.

كانت تدعى آن نيوبورت رويال. نشأت على حدود بنسلفانيا، تزوجت من ثري مثقف حارب إبان الثورة الأمريكية، وقد تعرضت للاحتيال وأخرجت من عزبة زوجها وذهبت إلى واشنطن لتحصل على معاش تقاعدي من الدولة بصفتها أرملة جندي. التقى بها آدمز أول مرة وصادقها قبل سنة من ترشحه للرئاسة، وكان آنئذٍ وزيراً للخارجية في عهد الرئيس مونرو. وقد احتمل غرابة أطوارها، وتجاهل تعصبها للماسونية، ووعد بمساعدتها للحصول على معاش تقاعدي، كما عرّفها أيضاً بزوجته الإنكليزية المولد، وأيد مسبقاً كتاب «رحلة أمريكية» الذي كانت آن رويال خططت لكتابته. ومنذ ذلك الحين أصبح الكتاب خمسة كتب، وقد صدمت مجلداتها الأخيرة ـ الكتاب الأسود أو استمرار الرحلات في الولايات المتحدة ـ وأسخطت وأضحكت ليس قراء واشنطن وحدها بل قراء الأمة الأمريكية.

وفي حين غمست الكاتبات ريشهن في الدبس، غمست آن رويال ريشتها في صفراء مرارتها. وقد قابلت من قبلُ والد الرئيس آدمز البالغ من العمر ٨٩ سنة. «حين ذكرت اسم ابنه، الرئيس الحالي، لمعت الدمعة في عينه، حاول الإجابة لكن غلبه التأثر. وحين وجدت الموضوع عاطفياً جداً أسقطته بالسرعة الممكنة».

كانت أقل عاطفية في الكتابة حول صداماتها مع الشخصيات العامة. وكانت صريحة وخشنة عندما ناقشت أعضاء المجالس البلدية الذين زارتهم، وحين تحدثت عن الرسوم الجمركية الإقليمية، والقضايا الوطنية التي سمعت المناظرات تجري حولها. في صفحات «الكتاب الأسود» عبرت عن نفورها من بنك الولايات المتحدة وممارساته الاحتكارية. وحين قابلت رئيس البنك نيكولاس بايدل، بعد أن كانت عنفته في الكتاب، حذرها مبتسماً «آ، سيدة رويال، أراك تحاولين طوال حياتك قتل رئيسي». ولتوضيح المسائل المتعلقة بالبنك قبل الانتهاء من كتابها القادم، اقتحمت السيدة رويال البيت الأبيض بهدف رؤية الرئيس آدمز. رفض الرئيس السماح لها بالدخول. عندئذٍ راحت السيدة رويال، كالنحلة الملتهبة، تحقق للوصول إلى معرفة حياة الرئيس الروتينية. وحين علمت بسباحته الصباحية، خططت لإخفاء نفسها في الأرض المحيطة بالبيت الأبيض. ولما أصبحت فريستها في الماء، شقت طريقها إلى عدوة النهر وجلست فوق ملابس الرئيس.

حين غطس الرئيس في المياه متبرماً، كررت آن بصخب طلبها مقابلته. استسلم الرئيس وأظهر ميلاً للتعاون. عندئذٍ سألته أسئلة محددة حول بنك الولايات المتحدة. أجاب الرئيس عن جميع أسئلتها

بصورة مباشرة ومطولة. وحين انتهت المقابلة نهضت آن وشكرت آدمز ورحلت بانتصار. وبذلك أصبح الرئيس، بعدما أجرى المداولة الصحفية الأولى في تاريخ أمريكا، حراً الآن. خرج من الماء لبس ثيابه ومضى إلى البيت الأبيض. وعندما سأله أحدهم فيما بعد عما فعله بالسيدة رويال الاستثنائية أجاب «إنها أشبه بالفارسة الجوالة في درع سحري».

ولدت آن نيوبورت قرب بالتيمور، ميريلاند، في ١١ حزيران عام ١٧٦٩. كان والدها وليام نيوبورت سليل أسرة كلافيرت الأرستقراطية، لكن ولادته كانت مربكة وغير شرعية. وقد عُرف باسم نيوبورت بدل كلافيرت، ومُنح إيراداً سنوياً وأُبعد عن منزل العزبة الفخم. وحين بلغ سن الرجولة تزوج فتاة مزرعة أنجبت له بنتين. وحين اندلعت الثورة في المستعمرات ووقف إلى جانبها الرجال رفض نيوبورت الارتباط بالغوغاء الوطنيين، وأعلن تعاطفه مع التاج البريطاني واستعداده للدفاع عنه. وبسبب موقفه هذا هدده جيرانه بالانتقام. عندئذٍ فرّت عائلة كلافيرت إلى إنكلترا، وبذلك انقطع إيراد نيوبورت السنوي، وأدرك أن ميريلاند أصبحت بالنسبة إليه بيئة عدائية.

في عام ١٧٧٢، حين كانت آن في الثالثة من عمرها، نقل نيوبورت عائلته لتقيم فترة وجيزة لدى أقرباء زوجته في فيرجينيا، ثم انضموا إلى قافلة العربات المتجهة نحو براري بنسلفانيا الغربية. في ويستمورلاند كاونتي، المجاورة لـ بيتسبورغ الحالية، بنى نيوبورت كوخاً بدائياً وضع فيه سريراً عريضاً وأربعة مقاعد وبلط رقعة صغيرة حوله. وقد شجع زوجته لمزاولة مهنة المداواة بالأعشاب، وعلم آن مبادئ القراءة باستخدام المنهج اللفظي. توفي نيوبورت إثر مذبحة هندية كما يُعتقد. بعد ذلك

رحلت أرملته وابنتاه إلى منطقة آمنة تدعى هناستاون. كانت آن في الثانية عشرة حين تزوجت والدتها زوجها الثاني، وهو رجل يدعى بتلر. بالنسبة لآن كانت حصيلة هذا الزواج درجة من الطمأنينة وأخاً غير شقيق دُعي جيمس.

كان الهنود، في محاولتهم منع استقرار المقيمين البيض، تواقين إلى الحرب. وغدت الحياة سلسلة من الأخطار. عندئذٍ فرّت آن وعائلتها إلى واحد من الحصون الثلاثة للاحتماء به. وفي غضون ذلك، وفي محطة ميلر، هاجم الهنود حشداً من ضيوف زفاف وذبحوا الرجال وأسروا ستين امرأة وطفلاً، وأشعلوا النار في هناستاون ثم رحلوا.

على الرغم من الرعب الذي خلفه الهجوم، فإن معظم الناجين في الحصن أعادوا بناء منازلهم. وبقيت آن في هناستاون مدة ثلاث سنوات أخرى. وبحلول عام ١٧٨٥، حين كانت آن في السادسة عشرة، توفي زوج أمها، وتزوجت أختها الأصغر. ومرة أخرى وجدت آن وأخوها غير الشقيق وأمها أنفسهم معوزين. فقررت السيدة بتلر الرحيل طلباً للعون من أقربائها في فيرجينيا. وبعد وصولها إلى ستاونتون ـ فيرجينيا، أصيبت بتسمم في الدم، ونُصحت بزيارة المتنجع الصحي المحلي في سويت سبرينغ الواقع في سهل مونرو كاونتي. وعلى الرغم من أن إقامتها في سبرينغ شَفَتْها، إلا أن ذلك لم يملأ كيس مال الأسرة. وكانت السيدة بتلر ستُكره على الاستجداء لولا أن استخدمها الكابتن وليام روبال غسالة وخادمة. وقد تعهد الكابتن روبال أيضاً برعاية أطفالها. وهكذا دخلت آن البيت الفخم القائم على منحدر سبرينغ ماونتن، ووقعت أنظارها أول مرة على زوجها المستقبلي.

كـان الكابتن رويال خـدم أمـريكا جـيـداً أثناء الثـورة. فـفي عـام ١٧٧٧، حين كـان في السـابعـة والعشرين أنشأ فـرقـة مـيليشـيا ومولهـا. وقد ادعى أن باتريك هنري خدم تحت إمرته. لقد أغـار مع فرقة الميليشيا على سفـينة كـان على منتـهـا الحـاكم البـريطاني يحـرس مخـزناً ضخـمـاً للذخيرة. وقد أكدت آن فيما بعد أنه أنفق «ثروة إبان الحرب». كان غنياً وكريماً. جلب الجند من فيـرجينيـا وشمـال كارولينا على نفقته الخاصة إثر هزيمة غـيـتس. وكـان ممثل النيـابة العـامـة في اللواء، وممثل النيـابة العـامـة في الفـوج. كـان إلى جانب لافـاييت وينتـمي إلى ذات المحـفل المـاسـوني الذي ينتـمي إليـه رفـيـقـه جـورج واشنطن. وقـد ترك الجـيش، ليس برتبـة جنرال كما تحب آن أن تعتقد، إنما برتبة كابتن، وبدلاً من الراتب المستحق قبل رويال بأكرات من الأرض في سويت سبرينغ ماونتن.

ولأنه أغنى إقطاعي في المنطقـة، كانت غرابة أطواره مـحـتـملة. لقد حرر العـبـيد ولم يشتر عـبيداً جدداً، وترك ماشـيتـه تسرح من غـير ضابط. كـان مـأخوذاً بفضـائل المـاسونيـة، ومـخلصـاً لـ توم بين وفولتـيـر، وتحـتـوي مكتـبتـه الضـخـمة على كـتب المفكرين المؤمنين بالمسـاواة، وكتب الفلاسفة الفرنسـيين، وعمـومـاً كان ينظر إليـه على أنه راديكالي. كان أرستقراطياً مولعـاً بالكتب صدوقاً ولـطيفاً. ولـم يكن ليـهتم بممتلكاته، وعقت أقرباءه الكثيـرين. كـان يـعـيش حيـاة عـابثـة، واعـتـزل طلب العـلم قبل أن ينصبَّ اهتمامه على آن.

عـاشت آن ١٢ سنة تحت أنظار الكابتن اليـقظة. أولاً كـمـسـاعـدة، نحيلة وحيـوية، لأمـهـا، ثم مـسـاعـدة ممشـوقة جذابة تعين مسـتـخدمهـا في تنظيم شـؤون العـزبة، وأخيـراً كناضـجـة جمـيلة ومـحـمـيـة. وبعد مرور عدة

سنوات أدرك الكابتن رويال أن آن تتمتع بذكاء يتجاوز ما هو متوقع من خادمة. فقد أرادت آن أن تغدو مثقفة مثله. كان بها جوع لتعرف كل شيء يعرفه. وقد أعاقها عن ذلك نصف أميتها. مما دفع رويال لجعل آن مشروعه، فقد قرر أن يحولها إلى امرأة كاملة. فبعد أن علمها القراءة بسهولة، والكتابة بخط واضح مقروء، أمدها بالكتاب تلو الكتاب من رفوف مكتبته الضخمة، كُتُب جيفرسون وفولتير وكل ما كُتِبَ حول تاريخ الماسونية. نقل إليها جميع المعارف التي تضمنتها مكتبته حتى أصبحت المرأة الأكثر معرفة في المقاطعة. وفي غضون ١٢ سنة استطاع أن يصوغها على شاكلته. عندئذٍ وقع في غرام إبداعه.

ما حدث بعد ذلك، حدث ببساطة شديدة، كان يوم حار من أيام عام ١٧٩٧. وكانت آن تعمل في الحقول. «كانت شجيرة القرانيا مزهرة، وكنت أنثر البذور حين أقبل الرسول ومعه فرس مسرج لينقلني لكي أتزوج». وحين عادت آن إلى البيت كان الكاهن وليام مارتن والكابتن في انتظارها، وحدث الزواج في الحال. وتذكر الوثيقة أنه جرى في ١٨ تشرين الثاني عام ١٧٩٧، مع أن آن تذكر أنه جرى في الربيع.

دام الزواج ١٦ سنة، وعلى الرغم من التفاوت بين عمريهما ـ كان رويال في السابعة والأربعين، وآن في الثامنة والعشرين ـ وعلى الرغم من تكتم الكابتن في إظهار حبه، كان زواجهما سعيداً، ومع أن الجيران تذمروا من رؤية الفتاة الخادمة وقد ارتقت إلى مرتبة سيدة قصر العزبة، وخوف الأقارب على ميراثهم، إلا أن رويال كان سعيداً باختيار رفيقته. ربما بدا الزواج كئيباً طبقاً للمعايير التقليدية، فهو لم يثمر أطفالاً ولا حفلات متع ولا رحلات، وفوق كل ذلك لم يتخلله لحظات ولع شديد،

لكن كـان هنالك رضـاً عـمـيقٌ وسـرورٌ هادئٌ وانجـذابٌ روحيٌ. ومن وقت لآخر، حين يكون ثمة عطلة، كان رويال يحث آن على تنظيم احتفال من أجل جيرانهما. وفي تلك المناسبات كان يقدم لها الهدايا الثمينة. كذلك كانا يستضيفان زواراً من المشاهير بضمنهم جورج واشنطن(*) وتوماس جيفرسون(**). وفي عـام ١٨١٣، حين كان رويال في الثالثة والستين وكانت آن في الرابعة والأربعين، نقل الكابتن رويال إلى سريره وهو في حالة مرض مميت. وبعد معاناة دامت أسابيع توفي. ودُفن معه السلام الأخير والطمأنينة التي تمتعت بهما آن في وقت من الأوقات.

أظهرت أيام الترمل الأولى أن آن ستصبح ثرية. فالوصية الأخيرة لزوجها، التي كتبت قبل خمس سنوات، توفر لها الحماية من أي عوز: «باسم الله، آمين، أنا وليـام رويال من مونرو كـاونتي أُقـرُّ بما يرد في وصيتي الأخيرة هذه: أهب زوجتي آن الحق بالانتفاع بكامل العقار الذي أملك، ملكاً ثابتاً وشخصياً (باستثناء بقعة من الأرض، طيلة فترة ترملها...». باستثناء تلك البقعة من الأرض التي تركها لابنة أخته، لم يورث رويال شيئاً لأفراد عشيرته. فكل شيء كان لـ آن ما دامت أرملة.

وعلى الفور تجمع عدد من أقرباء رويال لمقاومة هذا التوزيع غير العادل لثروته. وبقيادة وليام رون، ابن أخت رويال المحامي الذي أراد حصته من المال، تقدموا بدعوى لتأكيد بطلان الوصية. وقد تضمنت دعواهم ثلاث نقاط: لم يكن زواج رويال من آن قانونياً؛ مارست آن

* جورج واشنطن ١٧٣٢ ـ ١٧٩٩، قائد عسكري ورجل دولة أصبح الرئيس الأول للولايات المتحدة الأمريكية ١٧٨٩ ـ ١٧٩٦ .

** توماس جيفرسون ١٧٤٣ ـ ١٨٢٦، ثالث رئيس جمهورية للويات المتحدة، وهو الذي أعد وثيقة إعلان الاستقلال .

تأثيراً على رويال ليوقع الوصية في الوقت الذي كان يعاني الخرف؛ كانت آن استقبلت عدداً من العشاق بضمنهم محامٍ شاب يدعى مات الذي كانت تراسله باستمرار.

آن، التي لم يعد لديها زوج يحميها والتي تعرضت للتشهير الماكر من كل جانب، قررت الابتعاد قدر المستطاع عن فيرجينيا. وقبل أن تصدر المحكمة حكمها في القضية، صفّت آن ممتلكاتها الشخصية لتدفع أجور رحلاتها. باعت المنزل وجميع ما تملك من متاع واتجهت نحو الجنوب يرافقها ثلاثة خدم زنوج ودليل سياحي.

قامت برحلات متواصلة مدة ستة أعوام. واكتشفت الخانات والمشاهد الشنيعة وسكان سافانا ونيو أورليانز وشارلستون وغرب فيرجينيا. وكتبت تقول «حتى الآن عرفت البشر نظرياً، لكني الآن أدرسهم عملياً. في يوم واحد يتعلم المرء من اختلاطه بالبشر أكثر مما يتعلمه المختلي في بيته في عمر كامل». وفي غضون ذلك عادت آن مرات عدة إلى مونرو كاونتي لأداء الشهادات في الماراثون القانوني. ثم استأجرت منزلاً في هانتسفيل ـ ألاباما وجعلته مسكنها.

وفي بداية عام ١٨٢٣، وبعد عشر سنوات تقريباً على تقديم الوصية لإثبات صحتها، علمت أن محاكم فيرجينيا اتخذت قرارها النهائي. فاز أقرباء رويال بالمعركة، وفي الصباح التالي كانت قد أصبحت مفلسة.

تلقت آن خبر الهزيمة بعدم التصديق، ولم تستطع فهمه. في الواقع كان ثمة تفسير. إن إخفاقها في الدفاع عن نفسها في المحكمة أبقى الفضيحة التي أُلصقت باسمها دون تفنيد، وهذا ما خلق مناخاً للحكم

ضدها. كانت في الرابعة والخمسين من عمرها ومعدمة كما كانت عليه حالها حين دخلت منزل رويال وهي في السادسة عشرة كخادمة، لقد أحبطت، ولم تعد قادرة على التفكير في المستقبل. لكن سرعان ما وجدت في مخزون شخصيتها القوة لتحث نفسها على العمل.

كانت واشنطن غايتها. فقد كان زوجها محارباً في الحرب الثورية، وبصفتها أرملته لها الحق بالمطالبة بمعاش تقاعدي، وستطالب به شخصياً. وبينما هي في طريقها إلى العاصمة، جمعت مادة كتاب. وقد شجعها على تأليف كتاب الإطراء الذي تلقته سابقاً حول أسلوب كتابة رسائلها الشخصية. وقد حدثتها نفسها بأن الراتب التقاعدي الذي ستحصل عليه حتماً سيساعدها، وحتى لو لم تضع كتاباً فإن الكتابة ستشغل ذهنها. ولكي تتجنب المزاج المحبط قالت «عقدت العزم على تدوين كل ما هو قيِّم وجدير بالملاحظة أثناء رحلتي».

بدأت رحلة الأسبوعين على ظهر حصان، ثم في عربة خيل عامة. كانت تملك من المال ما يكفيها مدة ثلاثة أيام للطعام والإقامة المؤقتة. وحين ذهب المال، وجدت طعامها في صناديق القمامة خلف مطابخ النُزل، ونامت في العراء. عندئذٍ تذكرت أن زوجها الماسوني البارز، كان أكد لهامراراً أن الماسونيين كانوا الأكرم على وجه الأرض، فبدأت بالاتصال بأعضاء الأخوية الماسونية، بالتأكيد كانوا كرماء، ولم يرفض أحد منهم تزويدها بالمال الكافي لقضاء الحاجات الضرورية ريثما تصل إلى البلدة التالية. ومرة أخرى عانت الفقر في ألكسندريا وفيرجينيا، فاتصلت بـ م. ي. كلاغيت، وهو ماسوني يملك فندق سيتي. «في الساعة العاشرة من ليل كانون الأول البارد، وصلتُ إلى منزله وأنا لا أملك سنتاً واحداً في

جيبي وليس لي صديق على الأرض. أدخلني السيد كلاغيت واستضافني بدءاً من ١٥ كانون الثاني إلى السادس من نيسان، وخصص لي ردهة مفروشة بأناقة وحجرة نوم، وأفرد لي خادمة لتخدمني طيلة الشتاء».

استأنفت آن رحلتها نحو العاصمة. لكنها أرادت أولاً زيارة ريشموند لتحصل على سجل زوجها العسكري ليساعدها في طلب المعاش التقاعدي. ومرة أخرى وجدت نفسها معدمة. ولما لم تكن قادرة على إيجاد ماسونيين، دنت من المواطنين العاديين في الشارع، حاولت أولاً أن تستدين لكن دون جدوى. عندئذٍ حاولت أن تستجدي فتجاهلها الجميع. وأخيراً حاولت تليين القلوب بوساطة ترديد مقاطع من الإنجيل لكن دون فائدة. وفي قمة يأسها وجدت عملاً بدوام جزئي كسبت منه القليل. وقد أصابها الفزع حين اكتشفت أن سجلات زوجها العسكرية كانت احترقت. وأخيراً تابعت رحلتها في مركب متجه إلى واشنطن.

وصلت إلى العاصمة في صباح ٢٤ تموز عام ١٨٢٤، ولما كانت غير قادرة على استئجار مسكن، اختارت بصورة عشوائية منزلاً وروت ببساطة ومباشرة قصتها على ساكنيه من عائلة دوريه. تعاطفوا معها وأعطوها غرفة وأطعموها مدة ستة أشهر دون مقابل، وفوق ذلك زودوها بالملابس. في غضون ذلك حصلت آن على دعم كوينسي آدمز وتمكنت من رفع طلبها إلى الدولة. لكن بسبب ضياع سجل زوجها العسكري، وبسبب الطعن الذي كان وجه إلى زواجها الشرعي، فقد واجهت عبئاً مضاعفاً لإثبات أن رويال كان خدم بلاده، وأن زواجها كان شرعياً.

كان عليها على مدى سنوات أن تجمع إقرارات رسمية لتدعم بها طلبها. وقد كفلها آدمز بإخلاص بصفته وزيراً للخارجية ورئيساً

للجمهورية وعضواً في الكونغرس، ودعمها في التماساتها، التي رفضت بانتظام، ولم ترَ آن رويال دولاراً واحداً إلا بعد مرور ربع قرن على طلبها الأول.

فجأة أصبح الكتاب، الذي كانت خططت لكتابته، ضرورة مالية. وبدعم مالي من آدمز وجوزيف بونابرت وآخرين، تابعت بحوثها في نيو إنغلند وفي جميع ما كتبته. وكانت نتيجة هذا اليأس والعمل المضني أن صدر الكتاب عام ١٨٢٦ بعنوان «اسكتشات تاريخ، الحياة والعادات في الولايات المتحدة، تأليف رحالة». إن وصفه الأمين للأوضاع والشخصيات التي واجهتها في رحلاتها أحدث ضجة فورية. وكان محط تعليقات كثيرة، وبيع على نطاق واسع.

شجع هذا الاستقبال آن وشد من أزرها. وبعد فترة وجيزة أحرزت انطلاقتها الأولى ـ ولحسن الحظ الأخيرة ـ في قصة، رومانس بعنوان «التينيسي، رواية تأسست على وقائع»، وتروي مغامرات مؤلمة لتلميذ أكره على شق طريقه بعدما سُلبت أموال والده الثري في مشروع عمل. لم تكن الرواية ناجحة، وكان من المرجح أن تنهي مسيرتها الإبداعية فوراً لولا وقوع حدث سياسي دراماتيكي جلب لها الدعم الأدبي.

كان موقع الحدث الدراماتيكي في باتافيا ـ نيويورك، حيث سكن عام ١٨٢٦ الماسوني وليام مورغان. فعندما قررت الجماعة الماسونية تشكيل المحفل الماسوني الكبير، أبعدت مورغان بسبب سمعته كسكير. وفي رد ثأري وضع مورغان كتاباً بعنوان «صور الماسوني الإيضاحية»، كان المقصود منه كشف الطقس السري للتنظيم الماسوني. وحين ألح على ناشر محلي لطبعه، غدا ماسونيو باتافيا قلقين. وبطريقة ما خططوا

لاتهام مورغان بتهمة المديونية واللصوصية. نجحت خطتهم واعتُقل مورغان وسيق إلى سجن كانا ديغوا. وفي ليل الحادي عشر من أيلول عام ١٨٢٦ ظهر رجلان في السجن وأعلنا أنهما صديقا مورغان وعرضا إطلاق سراحه بموجب كفالة. كانت زوجة السجان فقط حاضرة. كان تقديم الكفالة قانونياً وقد امتثلت للأمر. ولكن بعد لحظة من اقتياد مورغان إلى الخارج سمعته يصرخ «جريمة». اندفعت بسرعة نحو الباب لترى أربعة خاطفين يعاملونه بقسوة. وعلى الرغم من أنه صارع بيأس للإفلات منهم، لكنهم تمكنوا من دفعه إلى داخل عربة انطلقت بهم. بعد ذلك لم يُرَ ولم يُسمع به أبداً.

عمت أخبار الحدث البلاد، ورافقتها شائعة تقول إن مورغان إما أن يكون قُتل وأُلقيت جثته في نهر نياغارا، أو ربط في زورق ثم أُلقي من فوق الشلالات. وبينما كان خصومه الماسونيون مهتاجين، كان حاكم مدينة نيويورك دي ويت كلينتون الماسوني البارز يحاول تهدئة الهيستيريا المتنامية عن طريق رصد مكافأة مالية قدرها ١٥٠٠ دولار لمن يدلي بمعلومة تقود إلى اعتقال الخاطفين. وقد جاءت الإشارة متأخرة جداً. كان السياسيون الانتهازيون بقيادة ثاديوس ستيفنز استغلوا الموضوع محاولين إبقاء الضغينة مشتعلة. وقد زأر ستيفنز قائلاً إن المحفل الماسوني كان «شراً قانونياً، في داخله فكوك تسحق عظام الرجال الخالدي الذكر، وتنبعث من فمه باستمرار رائحة الدم الإنساني».

كان من الممكن لهذا الاهتياج أن يخبو لأسباب طبيعية ـ كانت أرملة مورغان قد رحلت لتغدو واحدة من أتباع جوزيف سميث

المورموني(*)ـ لولا أن حزباً سياسياً معادياً للماسونية ومكرساً لقمع الأخوية، أتى إلى الساحة. حين أدرك الماسونيون أنهم في خطر، استجمعوا قواهم لصون مصداقية أخويتهم. عندئذٍ تذكر زعماؤهم آن رويال. فقد كانت، لمدة طويلة، واحدة من الداعمين العنيدين لهم. وقد برهن كتابها الأول على أن قلمها دقيق وحاد، فلم لا تُجند جهودها لخدمة الماسونية.

في عام ١٨٢٧ عقد الماسونيون صفقة مع آن. إنهم سيمدونها بالمال اللازم للقيام بجولة في بنسلفانيا ونيويورك ونيو إنغلند، وستكون حرة في أن تُجري بحثاً من أجل كتبها، وفي أن تكتب ما يرضيها، إن تحدثت في الوقت نفسه بصورة إيجابية حول الماسونية لكل من تواجهه. رضيت آن بذلك. وقد أتاح لها هذا الدعم من رجال أُعجبت بهم فرصة زيارة كل جزء من الولايات المتحدة خلال ثلاث سنوات، نتج عنها أربعة كتب في تسعة مجلدات حولت اسمها إلى فضيحة وطنية، وشخصيتها إلى فضول وطني.

كانت آن أثناء متابعة بحثها منتبهة بصورة دائمة للذين أحسنوا إليها. فأينما حلت كانت تدافع عن الأفكار الماسونية. أحياناً كانت تُقابل بتململ ونفاذ صبر. ففي بيرلينتغتون ـ فيرمونت حيث العداء للماسونية على أشده، عنَّفت صاحب دكان يدعى هيكوك على تعصبه. فما كان منه إلا أن دفعها وطرحها على درجات الدكان لتسقط إلى الشارع. كانت أذيتها أكبر من كبريائها. فقد عانت كسراً في ساقها، ونتيجة لذلك ظلت تعرج في مشيتها عدة سنوات.

---

* المورموني : عضو في طائفة دينية أمريكية أنشأها جوزيف سميث عام ١٨٣٠ ، وقد أباحت تعدد الزوجات فترة ثم حظرته . (المورد)

مهما يكن، فقد سددت آن في كتاباتها المال الذي استثمره الماسونيون. لقد تساءلت في أحد كتبها «ألم يكن الجنرال واشنطن رجلاً عظيماً؟ كان ماسونياً. ألم يكن د. فرانكلين عظيماً؟ كان ماسونياً. ألم يكن دي ويت كلينتون عظيماً؟ كان ماسونياً. وفي ذلك كفاية. الآن جميع هؤلاء لم يكونوا الأفضل فقد، بل كانوا الأعظم في العالم. ربما كان من الأفضل لأعداء الماسونية أن يحاولوا قطف الشمس والقمر من السماء لكي يدمروا الماسونية. إن الشائعات التي دارت حول موت مورغان الشنيع ليست سوى مضاربة لجني الأموال وللتحريض السياسي».

إن كانت آن خدمت الماسونيين جيداً خلال رحلاتها، فقد خدمت أيضاً جمهور القراء بصورة أجود. فعلى الرغم من تكرارها المضجر لأفكارها المتحيزة، ومن افتقارها إلى الموضوعية، فإن مجلدات الكتاب الأسود الثلاثة، ومجلدات كتبها الأخرى قدمت تصويراً محكماً للمشهد الأمريكي المنبسط. لقد تنقلت، مشياً على الأقدام تارة ومستخدمة الحصان والعربة والماء تارة أخرى، عبر الأراضي البدائية من ديلاوير إلى ميسوري، ومن إلينوي إلى لويزيانا، وكتبت كل ما شاهدته بدقة كبيرة. كتبت عن رداءة الطرق، وعن المدارس السيئة، وعن العبودية والفقر المدقع....

كان فضول آن في الإطلاع على كل شيء بلا حدود. ففي إحدى المرات زارت مشفى للأمراض العقلية، وتوقفت في دير واستجوبت الراهبات. ودخنت التبغ مع هنود الشيروكي. ركبت سفينة بخارية لتفحص مراجلها. خاضت في نهر سبق أن عبره جورج واشنطن. بحثت

عن آثار جيفرسون في مونتيسيلو. توقفت عند كلية للإناث في بنسلفانيا وأطرتها، وعاينت حانة في نفس الولاية واستنكرتها قائلة «ثمة الكثير من الويسكي في كل مكان». لم تزر كلية إلا توقفت عندها لتتحدى أعضاءها. متعت التلاميذ في هارفارد الذين حيوا مهاجمتها للمؤسسات الدينية. ولم تضيِّع فرصة للدخول إلى مكتبة حيث عنَّفت صاحبها أو موظفيه بسبب ترويجهم الكتاب البريطانيين على حساب الكُتاب الأمريكيين.

أيضاً تعقبت آن بقسوة الشهير من الشخصيات. أجرت حديثاً مع كلينتون حاكم نيويورك ووجدته بديناً وصموتاً جداً، مع أنه «رجل عظيم الهيئة ذو روح عالية وعقل رائع وقلب كبير» ـ ينبغي ألا ينسى المرء أن كلينتون كان ماسونياً. وقطعت مسافة كبيرة للقاء دولي ماديسون ـ في عام ١٧٩٤ تزوجت الأرملة دولي تود عضو الكونغرس جيمس ماديسون. كانت أصغر منه بـ ١٨ عاماً، وأطول منه بعدة إنشات. ولما أصبح رئيساً في عام ١٨٠٨ أصبحت دولي السيدة الأمريكية الأولى الأكثر أناقة، ارتدت الملابس الباريسية واستخدمت أحمر الشفاه وتنشّقت السعوط ولعبت الورق ـ الآن حين قدمت آن للقائها، كانت في خمسينياتها، وكانت أسطورة. كتبت آن «توقعت أن أرى امرأة عجوزاً ضئيلة، لكني رأيت امرأة طويلة جذابة تقف أمامي...».

لقد تعلقت آن بمشاهيرها، ولم تسمح لـ مواطنيها بتجاهلهم أو نسيانهم. فحين عرض صامويل مورس، مخترع التلغراف، اختراعه على لجنة الكونغرس، كانت آن حاضرة ومشاركة. وبعد نحو عقدين من الزمن ذهبت آن لرؤيته مرة ثانية من أجل مقالة صحفية، فأغضبتها المعاملة

السيئة التي يتلقاها من الدولة، وكتبت حول ذلك مهاجمة الكونغرس والدولة بلهجة قاسية.

إضافة إلى الكونغرس والمناهضين للماسونية، ثمة جماعة جلبت التعاسة لـ آن رويال. فقد ازدرت جميع الإنجيليين، ليس فقط الكهنة الذين يبشرون بالإيمان الكالفيني (نسبة إلى كالفن)، بل أتباعهم المتعصبين. وقد أدانت مبشريهم الذين يفسدون الهنود، ومجموعات الضغط التابعة لهم والتي تحاول السيطرة على الحكومة الفيدرالية. وقد قام أعضاء من أتباع الكنيسة البريسبيتارية(*)، الذين يجتمعون للصلاة على نحو منتظم قرب منزلها، بحملة تحريض مناهضة لـ آن رويال. كانوا يحرِّضون الصغار على رمي الحجارة على مسكنها. وكان عضو كنيستهم البارز جون كويل يرتل ترانيمه الدينية تحت نافذتها لهدايتها. وقد قالت إن الذي أغضبها أكثر هو أن جون كويل نفسه كان أعطى خادمتها السوداء طفلاً غير شرعي. وفي الحال أبلغت آن المصلين والجيران حولها بما لاقته من البريسبيتاريين. عنفَّت جهاراً كويل لأنه «عجوز ملعون وابن عاهرة». ودعت عضوة من الكنيسة أقسمت أنها شاهدته في الـ كابيتال بارك يحاول تحويل فتاة زنجية جميلة إلى دينه. نال البريسبيتاريون ما يكفيهم فاستشاروا محامياً. بحث المحامي في كتبه القانونية ثم طلب من موكليه اللجوء إلى القضاء.

في أيار من عام ١٨٢٩ مثلت آن أمام ثلاثة قضاة في محكمة في كولومبيا. كان ثمة طرافة في محاكمتها إذ لم يسبق للمحاكم الأمريكية

* بريسبيتاري : مشيخي (متعلق بالكنيسة المشيخية التي يحكمها شيوخ متساوين في الرتبة، وخاصة الكنيسة الوطنية في اسكتلندا. (معجم اكسفورد المحيط)

أن تعاملت مع القانون الإنكليزي المبكر الذي يدعو لمحاكمة المتهم بالقذف والشتم وينص على تغطيسه بالماء عقوبة له.

أحضر الادعاء ١١ شاهداً أقسموا أن آن لعنتهم وعنفّتهم في الشوارع، وأنها كانت مصدر إزعاج عام. أنكرت آن التهم، وقد تبعها مجموعة من الأصدقاء شهدوا بجودة شخصيتها. وكان الأكثر شهرة بينهم السيناتورجون إيثون الذي دافع عنها بحرارة. لكن القضاة رأوا في النهاية أنها مذنبة.

حان وقت العقاب، وأرسل القضاة في طلب مقعد الغطس (مقعد يجلس عليه المذنب ويُغط في الماء عدة مرات عقاباً له) الذي نُصب في فناء مبنى البحرية في ألكسندريا، ثم ثُبِّت وأصبح جاهزاً. لكن قبل لحظة من تنفيذ الحكم أدركوا أنهم لن يستطيعوا إنزال عقوبة بهذا الشكل البربري. وبدلاً من ذلك غرموا آن بعشرة دولارات لسلاطة لسانها، وطالبوها بـ خمسين دولاراً ضماناً لعدم ارتكابها مثل تلك الجريمة مرة ثانية. دفع المبلغ صحفيان من أصدقاء آن وأطلق سراحها.

إن قسوة المحاكمة، والإذلال أثرا على مسيرة آن بصفتها كاتبة جوالة. وأثناء رحلتها الأخيرة إلى الجنوب أدركت أنها لم تعد قادرة على الترحال. علاوة على ذلك لم تعد كتبها رائجة وانحدرت مبيعاتها. لم يكن لديها خيار سوى الإقامة في واشنطن واستثمار ما بقي معها من مال في مشروع ما. وقد وجدت المشروع الذي يتوافق مع موهبتها في الصحافة. وهكذا غدت آن رويال البالغة من العمر ٦٢ عاماً المحررة والناشرة لصحيفة أسبوعية خاصة بها.

ظهر العدد الأول من صحيفة «بول بري» في شوارع واشنطن بتاريخ

الثالث من كانون الأول عام ١٨٣١. وحوت صفحاتها الأربع دعايات وأخباراً محلية ونكات ومقتطفات من روايات وتعليقات سياسية وافتتاحية حيوية بقلم صاحبة الجريدة. «سيستمر قلمنا بنفس العزم الذي كان عليه فيما مضى. ليكن مفهوماً أننا لسنا حزباً. لن نقاوم ولن ندعم أي شخص من أجل الرئاسة. سياساتنا تحقيق الرخاء والسعادة لبلدنا. ولتحقيق ذلك سنقاوم كل أصناف الشرور السياسية ونكشفها، كما سنقاوم الخداع الديني بلا خوف....».

في الواقع، قلة من أولئك الذين قرؤوا «بول بري» لم تحدوهم الرغبة في قراءتها ثانية. فطوال خمس سنوات كانت واحدة من أكثر الصحف حيوية. فكما في كتبها، هاجمت آن بعنف المناهضين للماسونية والإنجيليين والفساد السياسي وتحديد النسل وممارسة الجلد في البحرية وبنك الولايات المتحدة. ونادت بحرية التعبير والهجرة المفتوحة وتحسين أوضاع العمال وإنصاف الهنود والتوسع الإقليمي واستقرار النقد وحقوق الولايات ومعاشها التقاعدي.

كان ثمة مواضيع الفضائح، لكنها كانت تُدقق وتُعد بحذر قبل نشرها. وكما فسرت آن في إحدى افتتاحياتها: «تلقينا قصة فظيعة حول المعاملة البشعة التي عامل بها بريسبيتيري بارز انثى ليس لها حامٍ. لكنا رفضنا نشرها لعدة أسباب: وصلتنا متأخرة جداً؛ وهي شخصية جداً؛ ولا تحمل توقيعاً. إنها ضد شخص خاص. الرجال البارزون هم أداة لعب جميلة».

واصلت آن في جميع المراحل قتالها من أجل الحصول على معاش تقاعدي. وحين عُمل بمقتضى الإقرار الرسمي الذي جهزه لافاييت، أقر

الكونغرس أخيراً أن الكابتن رويال خدم إبان الثورة، وأن آن كانت بالتأكيد زوجته، ومع ذلك رُفض طلبها ثانية بدعوى أن آن تزوجت عام ١٧٩٧، والقانون يمنح الإعانات المالية للأرامل اللواتي تزوجن قبل عام ١٧٩٤. ولكن في عام ١٨٤٨ تحرر الكونغرس من هذا القانون، وتكلل نضال آن الذي دام ٢٤ عاماً بالنصر. وخُيِّرت آن بأحد أمرين، إما أن تتقاضى سنوياً، مدى الحياة، ٤٨٠ دولاراً، وإما أن تتقاضى ١٢٠٠ دولاراً دفعة واحدة. ولما كانت آن في التاسعة والسبعين من عمرها ومريضة ومدينة فقد اختارت أن تتقاضى ١٢٠٠ دولاراً دفعة واحدة. وكان ذلك خطأ لأنها عاشت ست سنوات أخرى. وحين واجهت التزاماتها غير المدفوعة، وركبت مطبعة جديدة، غادرت ومعها ثلاثة دولارات.

في عام ١٨٥٤، حين بلغت الخامسة والثمانين كانت ما تزال تعمل. وحين رغبت الآن في إجراء مقابلة مع الرئيس فرانكلين بيرس، دُعيت إلى البيت الأبيض. لقد مضى ربع قرن منذ أن نصبت فخاً لـ رئيس سابق عارٍ لتحظى بتقريرها.

كان ذلك آخر تقرير هام لها. ففي صباح الأحد الموافق في ١ تشرين الأول عام ١٨٥٤ توفيت وهي نائمة. وقد كتبت صحيفة واشنطن المسائية: «لقد احتفظت آن بجميع ميزات التفكير، المزاج والسلوك الاجتماعي، الذي جعلها شهيرة في عموم البلاد». دفُنت آن في المقبرة التابعة للبرلمان. وكانت ما تزال مدينة لصاحبة منزلها بـ ستة دولارات. ومع ذلك الدين الذي سُدد بلغ إرثها الكلي واحداً وثلاثين سنتاً.

لكن الإرث الذي خلفته وراءها تجاوز المال. كانت آن رويال، بطريقة أكثر محدودية وأكثر غرابة، تماماً مثلما زعم أحد كُتاب السير أن زولا هو ـ لحظة في ضمير الإنسانية.

المومس
التي رشحت نفسها للرئاسة

أنا عشيقة حرة. أملك الحق الدستوري
غير القابل للتصرف، والحق الطبيعي في أن أحب
الذي أختار. في أن أحب طوال المدة التي
يمكنني تحملها سواء طالت أم قصرت، وأن
أبدل إن شئت ذلك الحب كل يوم! وبذلك الحق
ليس باستطاعتك ولا باستطاعة أي قانون تصوغه،
امتلاك الحق بالتدخل في شؤوني.

فيكتوريا وودهول

حين فشل الخطيب الأثيني الأعظم ديموستينس(*) في قيادة أتباعه اليونانيين في ثورة ناجحة مناهضة للماسيدونيين، فر إلى معبد في جزيرة كالوريا، وهناك أزهق روحه بقلم مسموم وضعه في فمه. لم يكن بمقدوره أن يتخيل متى ولأي غرض سيعود إلى الأرض الذي تركها على مضض.

* ديموستينِس ٣٨٤ ـ ٣٢٢ قبل الميلاد : خطيب يوناني شهير في أثينا . قضى حياته ينظم المقاومة في أثينا والمدن الأخرى لمقاومة فيليب المقدوني والإسكندر . وكان يحرض مواطنيه على مقاومة فيليب بخطب شهيرة عُرفت بالفيليبيك . (المنجد)

مع ذلك، وبعد ألفي سنة، في صيف عام ١٨٦٨، في مدينة بيتسبورغ ـ بنسفانيا، عاد ديموستينس ذاته ليلهم خطيباً آخر ليباشر ثورة مناهضة للدعوة التطهيرية، تلك الثورة التي هزت أمريكا طوال عقد من الزمن أو أكثر.

كانت المضيفة لانبعاث ديموستينس وزيارته سيدة شابة فاتنة وعدوانية وجموحة تدعى فيكتوريا كلافلين وودهول. قبل بضع سنوات كانت السيدة وودهول، التي نشأت على ممارسة التنويم المغناطيسي والمدمنة على الغيبوية، متآلفة مع مجهول غريب يرتدي الثوب اليوناني الفضفاض. وفي أوهايو وكاليفورنيا وكانساس وإلينوي كان هذا المخلوق الروحاني الودود يتجسد مراراً، ويعدْ السيدة وودهول في كل مرة بالثروة والقوة. كان يجيب عن جميع تساؤلاتها باستثناء سؤال واحد. إنه لا يرغب في الكشف عن هويته.

ولكن في بيتسبورغ حيث كانت السيدة وودهول وشقيقتها الفاتنة وعائلتها يكسبون رزقهم الضئيل بعيداً عن الروحانيات والشفاء بالتنويم المغناطيسي ومعالجة السرطان والدعارة، ظهر الشبح في الثوب اليوناني الفضفاض مرة ثانية، وفي هذه المرة كشف عن هويته. لقد رسم اسمه، كما روت السيدة وودهول بعد ذلك، على مرمر طاولة ردهة الاستقبال، وقد نوَّر إشراق الحروف الغريب مدخل الردهة المظلم. كان يدعى ديموستينس. وقد أوعز الخطيب الإغريقي العجوز للسيدة وودهول بضرورة تغيير حياتها. أمرها أن تمضي إلى منزل في شارع ١٧ غربت جونز في مدينة نيويورك وتدخله وتسكنه، وأعلمها أن الأحداث الجيدة والعظيمة فقط هي التي ستقع.

لم يكن ذلك مفاجئاً، فقد كان ديموستينِس على قناعة تامة بإرسال السيدة وودهول بسرعة إلى المنزل الواقع في شارع غريت جونز قرب برودواي في مدينة نيويورك، فقد وجدته منزلاً مفروشاً معداً للإيجار، دخلته وتفحصته. كان كل شيء في المكتبة مرتباً باستثناء كتاب واحد مفتوح وموضوع على الطاولة.

التقطت الكتاب بفضول ولمحت عنوانه، وكان ما رأته، كما اعترفت «دماً فاتراً». كان عنوان الكتاب «خطب ديموستينِس». وفي الحال استأجرت السيدة وودهول المنزل، وأرسلت في طلب أقربائها، واستعدت لترك أثرها في العالم.

لم يُعرف ما إذا كانت خطوتها التالية قد قادتها إلى زيارة من عالم الأثير. لكن الأرجح هو أن السيدة وودهول أمسكت بيديها مستقبلها القريب. لقد وعدتها الرؤية الإغريقية بالثروة والقوة. كانت عملية بصورة كافية لتعلم أن ما ستحرزه باستخدام ميزاتها الطبيعية وبضمنها الجاذبية الجنسية وتجربتها الروحانية وجرأتها اللا محدودة.

كانت فيكتوريا وودهول، وهي في الثلاثين من عمرها، جميلة وذكية ومندفعة وأنيقة في بلوزاتها وتنانيرها القصيرة. كانت مخلوقاً نحيلاً متألقاً بعينين بنيتين معبرتين وشعر بني قصير. وكانت أختها تينيسي سيليست كلافلين، البالغة من العمر ٢٢ عاماً، مرحة ومستهترة إلى حد ما وأكثر من جميلة، لكنها أقل ذكاءً وغير منضبطة. وقد رأت فيكتوريا وودهول في شخصيتها وفي شخص أختها تركيبة كافية لتأسيس ثروة وسمعة قومية. وكان السؤال المطروح هو: من أين تبدأ؟ وجاءها الجواب في الحال: البدء من القمة.

كان الشخص الذي يتربع على القمة في مدينة نيويورك عام ١٨٦٨ هو «الكومودور» كورنيليوس فاندربيلت، الرجل الأغنى في الولايات المتحدة، الذي يتركز اهتمامه الأساسي، وهو في الرابعة والسبعين من عمره، على الإناث المغريات جنسياً، وعلى أية واحدة لديها تجربة روحية لتمنحه الثقة بالصحة وطول العمر. والوصول إلى هذا الرجل يتطلب جرأة لا حدود لها. وما من شك في أن فكرة لقاء المخادع العجوز الملتحي نبتت في عقل السيدة وودهول. وقررت جعل المدخل مؤثراً من خلال والدها بوكمان كلافلين الذي، وإن كان سيء السمعة ووحشاً بعين واحدة، فهو ما زال والدها وسيضفي على المغامرة جواً من الاحترام. وهكذا ذهبت السيدة وودهول ترافقها أختها إلى قصر فاندربيلت في واشنطن بليس، وادعتا بأنهما معالجتان أعجوبيتان من الغرب الأوسط.

ليس مفاجئاً أن سُمح لهما بالدخول فوراً، إذ كان الكومودور فاندربيلت مريضاً ملَّ الطب التقليدي، ويستعين بعراف وساحر ليمنحاه الأمل والراحة. كان مهيَّأ للإصغاء لأي عامل أعجوبي. شرحت له السيدة وودهول بسرعة أنها وسيطة روحية ناجحة، وأن أختها تيني معالجة بالقوة المغناطيسية تعطي مرضاها القوة من خلال التلامس الجسدي. نظر الكومودور العجوز المجدف إلى ضيفتيه الجميلتين وحدَّث نفسه:إن بمقدوره القيام بالأسوأ خير من أن يضع نفسه بين أذرعهن.

من ناحية ثانية ينبغي الإشارة إلى أن الكومودور لم يكن مريضاً سهل الانقياد. كان قاسياً لا يرحم، ولم يكن أحمق على الإطلاق. كان قد امتلك مركباً شراعياً واحداً اشتراه حين كان في السادسة عشرة من عمره. ومن خلال المضاربات والاحتيال في سوق الأوراق المالية، ورشوة

المحاكم والمجالس التشريعية، راكم في شبابه ثروة تعادل مئة مليون دولار، وقد نمت الثروة لاحقاً. صاح مرة «القانون؟ وما حاجتي إلى القانون؟ ألست أملك القوة؟». وقد استخدم الكومودور فاندربيلت هذه القوة دون شفقة. فحين سبب له القرصان وليام ووكر متاعب في نيكاراغوا، جنَّد الكومودور ثلاث جمهوريات من أمريكا الوسطى لسحق ووكر. وحين استغله جي غولد وجيمس فيسك جعلهما يركعان. وحين وقف المموِّل درو في طريق الكومودور مَحَقَهُ من الوجود. وحين كان الكومودور في أوربا لقضاء إجازة سرق مصرفيوهُ بمكر صفقة رابحة خاصة بشركته، فأرسل إليهم الكومودور رسالة قصيرة قال فيها: «أيها السادة: باشرتم بخداعي. أنا لن أقاضيكم لأن القانون يحتاج إلى وقت طويل. سوف أدمركم». وقد دمرهم. وكان قاسياً في علاقاته الشخصية، فحين ضايقته زوجته الأولى بأمزجتها المتقلِّبة وكآبتها، أودعها في مستشفى للأمراض العقلية مدة سنتين رغم احتجاجات أسرتها.

كان من الواضح أن شخصاً كهذا ليس سهلاً إرضاؤه. ومع ذلك حولت فيكتوريا، بوساطة كيمياء التفاهم، هذا العملاق الصاخب إلى صديق حميم ونصير. فعندما أدركت حاجته للجنس ـ من المؤكد أن بعض الخادمات هربهن من شهوته ـ كرست له تينيسي النشطة. إن المعالجات بالقوة المغناطيسية، التي انتقلت من يدي تينيسي إلى يدي الكومودور ومرور الطاقة الكهربائية من جسدها إلى جسده، أحدثت أثرها الرائع. وسرعان ما استقرت تينيسي في سريره بوصفها خليلته. كان يناديها بـ «عصفورته الصغيرة»، وكانت تناديه بـ «الولد العجوز».

إن مرور سنة ونصف على معالجة تينيسي بالطاقة المغناطيسية ليَّنت

الكومودور وفتحت الطريق أمام طموحات فيكتوريا وودهول. إن فكرة الاستفادة من الكومودور بأفضل وجه جاءت إلى السيدة وودهول من عشيقها المحارب المحنك في الحرب الأهلية ورفيقها المؤمن بالروحانيات الذي يدعى الكولونيل جيمس هـ. بلود. كانت فطنة بلود الذي أدرك أن الكومودور سيساعد في ذلك الفن ـ جمع المال عن طريق المضاربة.

في غضون ثلاث سنوات استطاعت فيكتوريا وودهول، عن طريق السمسرة وبمساعدة الكومودور، جمع ٧٠٠ ألف دولار. فمن أين جاء هذا الربح الكبير؟ ربما يمكن القول إن ما حصلت عليه وودهول لم يأت من توظيف الجنس بل من توظيف العقل. والعقل المدبر هنا هو عقل الكومودور فاندربيلت. فخلال تلك السنوات المالية المثيرة زوَّد الكومودور على نحو منتظم الأختين المتلهفتين بمعلومات عن السوق الداخلية. في عام ١٨٥٧ أصبح الكومودور مدير سكة حديد هارلم في نيويورك وبعد ذلك رئيسها. وكانت سكة هارلم قد مَدَّت خطاً من مركز مانهاتن إلى ألباني. فاشترى الكومودور السهم في هذا الخط بتسعة دولارات. وعن طريق رشوة مجلس المدينة لتوسيع خط هارلم، وخداع دانييل درو الذي باع فجأة، رفع سعر سهم الشركة إلى ١٧٩ دولاراً. وكانت السيدة وودهول، السيدة السمسارة، تسليته الروحية أثناء هذه الضربة الموفقة، وقد بلغت أرباحها في سكة حديد هارلم نحو خمسمئة ألف دولار. كذلك حققت فيكتوريا أرباحاً طائلة عن طريق مضاربات ومنافسات جرت بين الكومودور ومنافسيه.

ومع مرور الزمن راح الكومودور يبتعد ببراعة وكياسة عن تأثير وودهول. وقد جرى ذلك بتأثير من زوجته الثانية فرانك كراوفورد، وهي

فتاة من ألاباما، طويلة ووقورة ومتدينة، لم يُعقها اسمها الأول الفريد. وقد سدت الطريق أمام جميع الروحانيين، وأحاطت زوجها المريض بأطباء أورثوذكسيين وراعي كنيسة معمداني. لم تقلق السيدة وودهول من ذلك، فقد كانت حصلت على مبتغاها من الكومودور. حصلت على الثروة. والآن ذهبت لتحقيق رغبتها الأخرى ـ القوة.

في الثاني من نيسان عام ١٨٧٠ نشرت إعلاناً في صحيفة نيويورك هيرالد أذهل سكان المدينة. يقول الإعلان: «في الوقت الذي يتجادل الآخرون حول موضوع مساواة المرأة بالرجل، عملتُ على إثبات فكرة المساواة عن طريق انخراطي الناجح في مجال الأعمال... لذا أطالب بحقي بالتحدث من أجل النساء المحرومات من حق الاقتراع، وأنا مؤمنة بأني حين أفعل ذلك فإن التعصب المناهض لحقوق النساء، الذي ما يزال مترسخاً في الأذهان، سيختفي من الحياة العامة. والآن أعلن نفسي مرشحة للرئاسة». لم يكن من المحتمل، قبل مجيء فيكتوريا وودهول، وجود مرشح رئاسي ذي خلفية مزعزعة ومشوشة وشائنة من الناحية الجنسية.

ولدت فيكتوريا في ٢٣ أيلول عام ١٨٣٨ في بلدة حدودية بمنطقة هومر ـ أوهايو. كانت السابعة بين عشرة أطفال، ودعيت فيكتوريا إجلالاً لملكة بريطانيا العظمى الجديدة. كان والدها، روبين باكمان كلافلين، فظاً لا مبالياً كسب رزقاً متواضعاً من عمله في المساحة ثم مأمور بريد. وكانت والدتها روكسانا مخلوقة غريبة وصارمة، ربما من أصل يهودي ألماني. بعد سنوات طويلة قالت فيكتوريا لإحدى الصحف إنها نشأت «في بيت ريفي رائع أبيض اللون وله قمة عالية ويحيطه

رواق مغطى، وفي مقدمته حديقة أزهار». والواقع أنها نشأت في كوخ حقير شبه مهدم فوق تلة مهملة. وكانت غرفه ممتلئة بسرر أطفال كلافلين الزاعقين وبالزوار من الأقرباء.

كانت والدة فيكتوريا، المؤمنة بقراءة البخت وبعالم الروح، تعالج أفراد أسرتها الجامحين وفق مبادئ الروحاني النمسوي فريد ريش ميسمر الذي بشر بأن العلاجات الإنسانية يمكن أن تتم عن طريق القوة الباطنية. وقد فضلت السيدة كلافلين ميسمر على الطبيب المحلي، وقد مات ثلاثة من أطفالها في طفولتهم المبكرة. وطبقاً لما قالته فيكتوريا، إنها حين كانت في الثالثة من عمرها ماتت أيضاً مدبرة المنزل وقد شاهدتها فيكتوريا مرفوعة عالياً بوساطة عدة ملائكة أشداء، وأغمي عليها فوراً. بعد ذلك أصبحت فيكتوريا على تماس دائم مع كائنات وراء الطبيعة. كانت الملائكة فقط أصدقاءها، باستثناء رؤى شقيقتيها اللتين ماتتا في سن الطفولة، ومعهما تابعت اللعب. وحين بلغت الحادية عشرة كانت أمضت ثلاث سنوات في المدرسة الرسمية، لكن أساتذتها اكتشفوا أنها تتمتع بذكاء غير عادي. وقد منعها من متابعة تعليمها حادث مؤلم أجبرها على ترك المدرسة وهومر ـ أوهايو فجأة.

في يوم ميمون من عام ١٨٤٩ طرأ تغير مفاجئ في موقف كلافلين الذي لم يكن يهتمُّ اهتماماً كبيراً بممتلكاته، إذ استصدر عقد تأمين طاحونته الخشبية. وحين لم يعد لديه مصادر مالية كافية لإعالة عائلته، وكانت طاحونته في وضع سيء بسبب الإهمال، بدأ حذراً على نحو غير اعتيادي. وبعد أسبوع، حين كان في رحلة عمل بعيداً مسافة عشرة أميال، اشتعلت النيران بالمطحنة. ذهب كلافلين لاستلام قيمة التأمين.

وبدلاً من أن يواجهه الموظف المسؤول عن منح التعويض المستحق، واجهه عضو اللجنة الأمنية. لقد وجد نفسه مُداناً بالحرق المتعمد، ووضع أمام خيارين، إما المحاسبة وإما الرحيل. وفي غضون ساعة رحل إلى بنسلفانيا. وبعد أسبوع تبعته بقية أفراد العائلة.

وهكذا أجبرت الضرورة روكسانا كلافلين وفيكتوريا وبقية العشيرة على استدعاء قواهم الإبداعية. نظموا عرضاً طبياً، وباعوا عصيراً نباتياً ملفقاً ـ «إكسير الحياة لتجميل البشرة» ـ وألصقوا على كل عبوة ماركة تينيسي بسعر دولارين. وفي عام ١٨٥٣ تزوجت فيكتوريا البالغة من العمر خمسة عشر عاماً الدكتور كانينغ وودهول.

كانت قابلته قبل عامين في نزهة الرابع من تموز. كان ينطبق عليه صفة «الغندور الشاب» و«الفاسق المرح» و «المتأنق اللامع»، وكان يعامل فيكتوريا بكراهية. إن جميع الأحكام العصرية عليه استمُدت من سيرة فيكتوريا الذاتية المنحازة التي كتبها ثيودور تيلتون بعد أن أصبح عشيقها. وقد أوضح تيلتون أن والدة فيكتوريا أجبرتها على الزواج من وودهول. «إن آسرها، الذي امتلك مرة كنزه، كفَّ عن تثمينه. ففي الليلة الثالثة بعد أن أخذ زوجته الطفلة إلى مسكنه، حطم قلبها بقضائه الليل بطوله في منزل سيء السمعة. ولأول مرة عرفت أنه غير عفيف».

في الواقع، كان الدكتور وودهول أي شيء باستثناء أنه شيطان كما صوره تيلتون. قدِم وودهول، الذي تلقى تدريبه الطبي في بوسطن، من أسرة محترمة في نيويورك. وقد أمل في الحصول على ثروة بانضمامه إلى اللاهثين وراء الذهب في كاليفورنيا. لكنه سقط مريضاً في أوهايو، وبقي فيها لمزاولة عمله الطبي. ولما انتقلت عائلة كلافلين إلى مونت

غيليد كان أعزب يحلم بمنزل يعيش فيه بسلام مع أسرة كبيرة. وقد اعتقد أن فيكتوريا ستساعده على تحقيق ذلك الحلم، لكنه أخطأ في تقدير شخصية رفيقته، وهذا الخطأ دمر حياته. إن المشكلة التي حولت زواج الدكتور وودهول إلى كارثة ـ وربما هي التي دفعته إلى إدمان الكحول ـ هي أنه توقع زوجة وحصل على القديسة جان المستغرقة في ذاتها. كانت فيكتوريا، مثل العذراء، تسمع أصواتاً وتنتظر مصيراً أرفع من وجودها في المطبخ. وعلى الرغم من ذلك أمضت فيكتوريا النشيطة الطموحة مع الدكتور الوقت الكافي لتنجب له طفلين ـ في عام ١٨٥٤ ولدت الطفل بايرون الذي عانى تلفاً دماغياً وأصبح شبه أبله بعد أن سقط من نافذة الطابق الثاني، وفي عام ١٨٦١ ولدت الطفلة زولو ماود التي ستصبح عزاء لـ فيكتوريا في السنوات التالية.

وسرعان ما أيقنت فيكتوريا بعد زواجها أن أوهايو تكبح قدراتها الطبيعية. فأقنعت زوجها المدمن بالتخلي عن مهنته وأخْذها إلى كاليفورنيا. وهناك، وبتوصية من ممثلة تدعى آنا كوغسويل، حصلت على دور صغير في مسرحية هزلية بعنوان «نيويورك بضوء الغاز». وقادتها هذه المسرحية إلى مسرحيات أخرى. لكن تقدم فيكتوريا كان بطيئاً، وأدركت في الوقت المناسب أن مستقبلها يكمن في شكل مختلف عن أشكال التسلية. ذلك أن الشقيقتين مارغريت وكاترين فوكس من هيدشفيل ـ نيويورك أحرزتا نجاحاً كبيراً في تقديم فنون دون أن تظهرا أبداً بالمكياج المسرحي.

كانت الشقيقتان سمعتا دقات غريبة في الليل «وكأن أحدهم كان يدق فوق الأرض ويحرك الكراسي». وحين تكررت هذه الأصوات الملغزة،

دعت الأخت الكبرى الجيران والأقارب للاستماع إلى تلك الأصوات. وسرعان ما أيقنت الأخت الصغرى أن الدقات لم تكن سوى إشارات من عالم الأرواح، وبدأت تفسر الأصوات بألف بائها المشفَّرة. وسرعان ما بدأ الزوار يتساءلون عن الأرواح والأختان تترجمان الأجوبة الشبحية.

حين رأت أخت الشقيقتين الكبرى المتزوجة الأهمية التجارية للقدرة الروحية التي تتمتع بها الفتاتان، أخذتهما في جولة واسعة. وقد تابعت الفتاتان، المتوجهتان إلى جماهير عريضة ضمت شخصيات هامة أمثال هوراس غريلي وجيمس كوبر ووليام برايانت، وصف الدقات التي قدمتها كإشارات من عالم الأرواح. وعلى الرغم من أن مجمع الأطباء التقليديين في بوفالو كان أعلن أن ما دعي بدقات الأرواح ليست سوى طقطقات أحدثتها ركب الشقيقتين ومفاصل كواحلهن، رفض الجمهور المتحمس التحرر من الوهم بهذه البساطة. وأصبحت جلسات تحضير الأرواح بدعة سائرة، وغدت الوسيطتان مطلوبتين على نحو واسع. وفي كاليفورنيا قررت فيكتوريا وودهول، التي سبق أن اتصلت بالأرواح لمجرد المتعة، الكف عن ممارسة هوايتها هذه دون مقابل.

التحقت فيكتوريا ببقية أسرتها في سينسيناتي حيث كانوا يعالجون السذج بدواء جديد مَضاد للسرطان. وعندما شرحت فيكتوريا خطتها نالت موافقة الجميع. جرى استئجار منزل، وألصقت عليه لافتة كُتب عليها: المتبصرتان تينيسي كلافلين وفيكتوريا وودهول. وعقدت الأختان جلسات تحضير أرواح لقاء دولار على الشخص الواحد. ولاستحضار الأرواح الخيرة أضافت السيدتان قراءة البخت والمعالجة المغناطيسية. وقد جذب شبابهما وجاذبيتهما أكثرية من الزبن الذكور، الذين كانوا على

استعداد للإتفاق بسخاء لقاء صلة أكثر حميمية بالوسيطتين الروحيتين. من الواضح أن فيكتوريا وتينيسي لم تكونا أسمى من ممارسة الدعارة. وقد أشارت فيكتوريا مرة إلى أن الوضع غير القانوني لأقدم مهنة ألحق الأذى بممارسي هذه المهنة. إذ ينبغي على المومس لكي تحول دون اعتقالها دفع رشوات «منح الشرطي من ٣ إلى ١٠ دولارات في الأسبوع وحق زيارتها مجاناً، في حين يصل المبلغ الذي يتقاضاه ضباط الشرطة والرقباء إلى ٣٠ دولاراً حين يكون هؤلاء بحاجة إلى المال».إن الجمع بين العرافة والمومس كان من الممكن أن يغني فيكتوريا غنى فاحشاً لولا أن أفسدت تينيسي اللعبة بخشونة. فحين بدأت تينيسي باستغلال المعلومات، التي حصلت عليها بصفتها عرافة ومومساً، بهدف الابتزاز جرت مقاضاتها.

غادرت عائلة وودهول وكلافلين سينسيناتي بسرعة، وباشرتا جولة روحانية في إيلينوي وكانساس وميسوري. وفي سانت لويس وجدت فيكتوريا حباً حقيقياً. كانت دُعيت للظهور أمام الجمعية الروحانية المحلية لتدافع عن معتقداتها، ولتجابه قسّيساً سبق أن هاجمها. وبسبب أن الروحانية، التي بلغ عدد أتباعها في الولايات المتحدة نحو أربعة ملايين تابع، قد جذبت الأشخاص ذوي الاهتمام بالحب الطليق وتحرير المرأة والإصلاح الاجتماعي، لم يكن مفاجئاً وجود الكولونيل جيمس هارفي بلود أيضاً بين الحضور. وعلى الرغم من أن بلود كان، ظاهرياً، يغطي المناظرة لصالح سانت لويس تايمز، فإن تحركه الحقيقي هو للإطلاع على الأفكار. كان بلود الذي خاض الحرب الأهلية وجُرح خمس مرات متزوجاً ووالداً لطفلين. كان يبحث عن العزاء في رؤية خاصة للمدينة

الفاضلة، رؤية لاذ بها هرباً من مادية زوجته وعمله والأشخاص الجشعين الذين يحتك بهم. وحين تحدثت فيكتوريا عن المدينة الفاضلة ذاتها، تأثر بلود بذلك، وحين تحدثت عن عبودية الزواج معلنة أن ليس ثمة شيء مساوٍ لذلك الإثم، قرر أن يقابلها.

ولكي يقابلها تظاهر بلود أنه مريض يحتاج إلى نصيحة. وكانت كياسته غير ضرورية. إذ طبقاً لـ تيلتون، فقد كانت فيكتوريا هي التي رأت في بلود روحاً أليفة وأغوته على الفور: «ذات يوم دخل جيمس بلود على السيدة وودهول لاستشارتها، وجفل حين رآها تدخل حالة الغشية التي حدثت نفسها خلالها أن قدره المستقبلي ينبغي أن يرتبط بقدرها في الزواج منه. وهكذا أصبحا مخطوبين في الحال بوساطة القوى الأثيرية».

بعد تلك الخطوبة المرتجلة عاشت فيكتوريا وبلود معاً كعاشقين. هجر بلود سانت لويس وعائلته وارتحل مع فيكتوريا إلى شيكاغو. وسمحت فيكتوريا للدكتور وودهول، الديوث الذي لم يحتج، بمرافقتها، وخصصت له مهمة العناية بطفليهما. وفي شيكاغو طلقت فيكتوريا الدكتور وودهول، متخطية بعض الصعوبات القانونية، بتهمة الزنى، وطلق بلود زوجته بعد أن وعد بتأمين استقرارها المادي. استأجرت فيكتوريا وتينيسي منزلاً في شارع هاريسون وأعلنتا نفسيهما وسيطتي وحي. وعندما ارتاب الجيران بأنهما تؤديان دور امرأتين متجردتين من العفة استدعوا الشرطة. لم يكن ثمة دليل على ممارستهما الدعارة، لكن القانون أدانهما بسبب ادِّعاء العِرافة. مرة أخرى أصبح أهل البيت على الطريق. عندئذٍ رأت فيكتوريا في بيتسبورغ اسم ديموستينِس يتوهج على الطاولة المرمرية ـ وقادتها هذه الرؤية إلى الكومودور فاندربيلت.

بعـد أن حقـقت فـيكتـوريا، من خـلال صـداقـتـهـا مع فـاندربيلت وتوجيهه، ربحاً بلغ ٧٠٠,٠٠٠ دولار عن طريق المضاربة بالبورصة (مع ذلك تذمرت من تكاليف عملها وأسرتها التي تبلغ ٣٠٠,٠٠٠ دولار سنوياً) وضـمنت دخـلاً صـافـيـاً يبلغ ٥٠,٠٠٠ دولار في العـام من السمسرة (مكّنها من الاستثمار في مشاريع الأنفاق ومناجم الفضة)، حولت اهتمامها وطاقتها كلها لتعزيز ترشحها لمنصب رئاسة الولايات المتحدة، ربما ليس هناك أحد، حتى فيكتوريا، استطاع تحديد هدفه الحقيقي بدقة في معركة التنافس على أعلى منصب في البلاد. وفي عصر كانت فيه نساء أمريكا محرومات من حق التصويت (باستثناء منطقة وايومينغ) فإن ترشحها لا يعدو أن يكون وهماً وحلماً لا سبيل إلى تحقيقه. كانت بواعثها دون شك مزيجاً من حاجتها إلى الشعبية والاهتمام، والرغبة الصادقة في مسرحة المطالبة الصاخبة، التي برزت وسط النساء، بمساواة في الحقوق وبمعيار أخلاقي واحد.

إلا أن ترشُّح فيكتوريا كان سيولد ميتاً لولا المساعدة التي قدمها رجلان ماكران خططا لكل فعل من أفعالها. الأول كان، بالطبع، الكولونيل بلود الذي رأى في خليلتـه بوقـاً لأفكاره التي تتطابق مع أفكارها. والآخر كان المسن الملتحي ستيفان بيرل أندروز العالم الشهير اللامع والفيلسوف والفوضوي (أي يؤمن بضرورة إلغاء الحكومات).

حاز أندروز، وهو ابن كاهن معمداني، على شهادتين جامعيتين في القانون والطب. كان تعلم في كلية لاهوت في نيو أورليانز، وفر من الدهماء في هيوستين لإفصاحه عن آرائه المنادية بإلغاء الاسترقاق، وأصبح نصيراً لنظام الاختزال الذي أدخله إلى الولايات المتحدة إيزاك

بيتمان. وكان أندروز عالماً استثنائياً باللغات، ويعرف ٣٢ لغة بضمنها اللغة الصينية التي وضع لها كتاباً مدرسياً عام ١٨٥٤. وحين نال كفايته من تعلم اللغات، ابتكر لغة جديدة خاصة به دعاها «ألواتو، Alwato» وهي سابقة على لغة «الإسبيرانتو، Esperanto». وحين اكتهل زاد اهتمامه بعلم الاجتماع. لقد تخيل دولة فوضوية دعاها «بانتارشي، Pantarchy». وطبقاً لتوجهات الـ بانتارشي، فإن الدولة لا تتدخل في الأخلاق والدين، وتنادي بالحب الطليق والطبيعي.

كان أندروز، كروحاني، معبراً عن الثورة المناهضة للأعراف. وقد اكتتب المئات من الروحانيين في دولة الـ بانتارشي. لكن أندروز، المحبوب والمخلص والمتطرف، أراد الآلاف ليدعم توجهاته. وأثناء سجاله عبر الصحافة مع هنري جيمس وهوراس غريلي حول الحب والزواج، كان للأسف أخرق في ترويج فكرته العظيمة. وقد رأى في فيكتوريا وودهول، الجسورة والأصيلة، حليفاً مفيداً. إن فيكتوريا تطمح إلى الرئاسة فينبغي أن يكون لديها برنامج. ولم لا يتضمن برنامجها معتقدات الـ بانتارشي. قرر أندروز أن يلقاها وأن يفتنها (اعتقدت فيكتوريا أنه حضور جسدي لمحبوبها ديموستينس). وسرعان ما انضم أندروز إلى بلود لوضع خطة مفصلة لترويج اسمها ـ وأفكارهما.

ولافتتاح الحملة الدعائية، ظهرت في الـ «نيويورك هيرالد» سلسلة من المقالات. ومناصرة للدولة العالمية واللغة العالمية وقعت فيكتوريا هذه المقالات باسمها ـ نُشرت هذه المقالات في كتاب عام ١٨٧١ تحت عنوان «أصل الدولة وأهدافها ومبادؤها»، مع أن أندروز وبلود هما من كتبها. وحين وصلت المقالة الأخيرة إلى جمهور القراء، خطر ببال فيكتوريا فكرة

عدم الاعتماد علة صحافة نيويورك لمتابعة الإعلان عن مواقفها المتطرفة. فإذا هي أرادت الوصول بسرعة إلى الشهرة والنجاح في نشر أفكارها، فما عليها سوى أن تمتلك صحيفة خاصة بها، ولديها المال وهيئة التحرير. وفي الرابع عشر من أيار عام ١٨٧٠ ظهر العدد الأول من صحيفة أسبوعية مكونة من ست عشرة صفحة بعنوان «وودهول وكلافلين الأسبوعية». وتحت اسم الصحيفة ولد الشعار: تقدم! حرية فكر! أحباء وطلقاء! ثم بخط أصغر الوعد: شُقَّ الطريق من أجل أجيال المستقبل.

في زحمة الدعايات التجارية كان ثمة بيان سياسي: ستحجم الصحيفة عن «البذاءة الصحفية»، وسوف تتكرس لاهتمامات الناس الحيوية. وفوق كل ذلك ستدعم فيكتوريا وودهول بكل طاقتها، وستنادي بحق الاقتراع دون النظر إلى الجنس (ذكر أم أنثى).

جذبت هذه المقالة الافتتاحية الدمثة القليل من الاهتمام تجاه فيكتوريا. وفي أيلول من عام ١٨٧٠ قررت فيكتوريا أن تلعب دوراً أكثر حيوية في نشر الصحيفة ـ وعلى الفور أصبحت صحيفتها عظيمة الشأن. ظهرت مقالة تلو المقالة تدعم الحب الطليق وإلغاء عقوبة الإعدام والنباتية (العيش على النباتات والفواكه) والتنانير القصيرة والروحانية والحد من الإفراط في الضرائب والمعالجة المغناطيسية والسكن الشعبي الأفضل وتحديد النسل وقوانين طلاق أسهل. وبشجاعة دعت فيكتوريا إلى قوننة الدعارة وكشف الاحتيال المالي في الـ وول ستريت وتخصيص حصص درسية في فيزلوجيا النساء. وبإلحاح منها نشرت الصحيفة البيان الشيوعي، الذي نشر كاملاً لأول مرة بالإنكليزية، كما نشرت

مقالات حول الإجهاض. وفجأة غدت الصحيفة حديث الناس، وبلغ عدد النسخ المبيعة أسبوعياً عشرين ألف نسخة.

كان غير كافٍ بالنسبة لـ فيكتوريا أن تدافع عن أفكارها عن طريق الكلمة المطبوعة. لذا أصرت على ممارسة تلك الأفكار عملياً. في تلك الفترة التي لم تكن النساء يتعاملن مع المطاعم العامة، عند حلول الظلام، إن لم يكنّ برفقة رجال، دخلت فيكتوريا في إحدى الليالي، ترافقها تينيسي فقط، إلى مطعم ديلمونيكو وطلبت بوقاحة طعاماً. رفض تشارلز ديلمونيكو خدمتها قائلاً «لا أستطيع تركك تأكلين هنا دون رجل يرافقك». عندئذٍ أرسلت فيكتوريا تينيسي لجلب سائق السيارة إلى طاولتهما. عندئذٍ خُدمتا.

وفي الوقت الذي لم تكن النساء يشاركن في حركات عمالية، التحقت فيكتوريا بالدائرة ١٢ لاتحاد العمال العالمي الذي أسسه كارل ماركس عام ١٨٦٤. وبعدما أصبحت فيكتوريا وأتباعها أعضاء حيويين أصيب صامويل غوميرز بالهلع وعلّق قائلاً «لقد هيمن على الدائرة ١٢ مجموعة لامعة من المهووسين والإصلاحيين والروحانيين».

وأخيراً، في الوقت الذي كانت النساء يتحدثن عن المساواة في الحقوق، لكن دون الإقدام على فعل شيء لتحقيقها، كانت فيكتوريا المرأة الأولى التي شرعت بالعمل المباشر في واشنطن. إن حوافزها في التخطيط لإثارة عاصمة الأمة لم تكن غيرية تماماً. فقد بدأت تدرك أن صحيفتها لم تكن ذات نفوذٍ كافٍ لترويج شخصيتها أو أفكارها. ولكسب جمهور أعرض أدركت أنه ينبغي عليها أن تعرض أفكارها على الملأ في عاصمة الأمة. درست بعناية سجلات قادة الكونغرس

وشخصياتهم، وبحثت عن الرجل الذي يقف فوق الجميع. وحين زار هذا الرجل نيويورك ذهبت فيكتوريا لمقابلته. كان يدعى بنجامين فرانكلين باتلر، وهو نائب من ماساشوسيتس قصير وسمين وأحول. وكحاكم عسكري لـ نيو أورليانز بعد الحرب الأهلية، فقد نُعت بـ الوحش باتلر وبـ قاتل نساء نيو أورليانز بسبب موقفه من النساء الجنوبيات. وفي حين كانت إدارته للمدينة لا غبار عليها، فإن فظاظته في معالجة قضايا سكانها من الإناث كانت دون المطلوب. وحين شتمت حسناوات نيو أورليانز الجنوبيات الجنود الشماليين، رد باتلر الإساءة بمثلها بإعلانه أن كل مذنبة «ستعامل كامرأة تقوم بأعمال التلهي». ومع أن ذلك وضع حداً لإيماءات الاحتقار، إلا أن السيدات الجنوبيات بقين يدرن مؤخراتهن لـ باتلر حين يرونه، مما جعله يقول «هؤلاء النسوة يعرفن أي جانب منهن هو الأفضل». نعم، أثبت باتلر، كعضو في الكونغرس، أنه أكثر مراعاة لمشاعر النساء الأمريكيات وقت السلم من زملائه. لم يكن يؤمن فقط بإنصاف المواطنين السود، بل بحقوق النساء في المساواة. وهذا ما أعطى فيكتوريا وودهول الأمل.

من الواضح أن فيكتوريا لم تلاق صعوبة في إقناع باتلر بالوقوف إلى جانبها وبدعم خطتها. كانت راغبة في تقديم مذكرة إلى مجلس الشيوخ ومجلس النواب تطالب بحق المرأة بالتصويت. وقد هلل باتلر لهذه الفكرة الرائعة. ويقال إنه هو من كتب المذكرة ثم طلب من اللجنة القضائية دعوة فيكتوريا لتقرأها أمام اللجنة.

في الحادي عشر من كانون الثاني عام ١٨٧١ وصلت فيكتوريا إلى واشنطن، بلباس أسود وقبعة ألبية وربطة عنق زرقاء، لإلقاء خطبة أمام

الأعضاء. كان ظهورها مقنعاً بالنسبة لها. وحين قُدمت نهضت برشاقة واحترام، وبصوت واضح وموسيقي بدأت تقرأ مذكرتها الموجزة. وبعدما ذكرت أنها ولدت في أوهايو وأنها أقامت في نيويورك طوال ثلاث سنوات، وأنها مواطنة من مواطني الولايات المتحدة، تابعت: «لقد حُرمت مواطنات الولايات المتحدة من حق التصويت بموجب قوانين الانتخاب في العديد من الولايات والمناطق... إن مواصلة تطبيق قوانين الانتخاب المحلية، التي تنكر حق المواطنين بالتصويت بسبب نوع الجنس، هو مظلمة لكاتبة المذكرة وللأشخاص الآخرين ولمواطنات الولايات المتحدة ـ لذلك ألتمس باحترام من معالي حضراتكم تعديل تلك القوانين لتنسجم أكثر مع حكمة الكونغرس ومع الضرورة، ولتمنح مواطني الولايات المتحدة حق التصويت دون النظر إلى نوع الجنس».

كانت قراءة مؤثرة. إن بساطة فيكتوريا وتواضعها وأنوثتها أثرت على قلوب أعضاء اللجنة، لكن ليس عقولهم. وبعد ذلك صوتت اللجنة على رفض المذكرة، باستثناء معارضين فقط هما لودريج وباتلر، بدعوى أنها خارجة عن اختصاصها. ولكن، إن كانت فيكتوريا أخفقت أمام اللجنة القضائية، فقد كسبت نصراً آخر مهماً في ذلك الصباح. لأن القائدات المناديات بحقوق المرأة، اللواتي كن هنا وسمعن فيكتوريا، لم يشاهدن ويسمعن صوت مومس حاداً بل صوت سيدة متحفظة ووقورة عبرت عن توقهن بفعالية أكبر. وعلى الفور ودون تردد هنأن فيكتوريا ودعونها لحضور مؤتمر جمعية حق الاقتراع الذي كان سيعقد في أصيل ذلك اليوم.

انعقد المؤتمر في قاعة لينكولن في واشنطن، وجلست فيكتوريا على

المنصة مع سوزان أنتوني وأخريات. وحين قدمتها إيزابيلا هوكر، بدت فيكتوريا ضعيفة وبحاجة إلى عون,أعادت قراءة محتويات مذكرتها وتحدثت بإيجاز عن الأثر الذي أحدثته في اللجنة القضائية. صفقت لها الأخريات ورحبن بها كبطلتهن الجديدة. وافقت العضوات، وقد ألهبتهن المذكرة، على برنامج عمل مباشر وفعال. ففي الانتخاب القادم ستصر العضوات على تسجيل تدوين الأسماء والتصويت، وإن منعن فسيلجأن إلى القضاء.

في الأيام التي تلت المؤتمر، عُلق قبول فيكتوريا وودهول بصفة عضوة شرعية في الجمعية مؤقتاً. فقد احتجت عضوات الحركة. لكن صديقات فيكتوريا الجدد اللواتي قابلتهن في واشنطن بقين صامدات. وحين نعتت بضعة أشخاص فيكتوريا بسوء السمعة، ردت سوزان أنتوني بحدة: «إنها سترحب بجميع سيئات السمعة في نيويورك اللواتي يطالبن بالحرية». ووسط اللواتي أقلقهن ماضي فيكتوريا الشنيع، كانت لوكريتيا موت، التي عبرت لـ إيليزابيث ستانتون عن قلقها. وقد أجابت ستانتون بعد تفكير: «فكرت ملياً بالسيدة وودهول وبما يشاع عن ماضيها، وتوصلت إلى نتيجة مفادها أن من الوقاحة بالنسبة لكل واحدة منا أن تدسَّ أنفها بشؤونها الخاصة. بالنسبة لي ثمة قداسة للتجربة الشخصية، وإن النبش فيها والتعريض بها هو شيء يشبه الدنس. وقفت هذه المرأة أمامنا كمتحدثة قديرة وكاتبة، إن وجهها وسلوكها ومناقشتها تدل على انتصار أخلاقي وفكري وروحي. إن ثقافتها تبدو لنا قليلة لكن المحصلة هي كل شيء».

وحين احتج أعضاء الجمعية الذكور بشأن فيكتوريا بدعوى أنها

مارست الدعارة، ردت ستانتون بعنف من على المنصة: «فيما يتعلق بالشائعات حول السيدة وودهول، لديَّ جواب واحد أقدمه لجميع الأصدقاء: حين يستطيع الرجال الذين يضعون لنا القانون في واشنطن، الوقوف من الآن فصاعداً معلنين أنفسهن أنقياء وغير ملطخين بالآثام التي ذُكرت في الوصايا العشر، عندئذٍ سنطالب كل امرأة تشارك في مناظرة من على منبرنا أن تكون طاهرة مثل ديانا... لقد صلبت النساء ماري وولستونكرافت وفاني رايت وجورج صاند وفاني كيمبل، والآن يسخر منا الرجال ويقولون بأننا وحشيات تجاه بعضنا. دعونا ننهِ هذا السجل الوضيع ونقف من الآن فصاعداً إلى جانب النساء. إن كان على فيكتوريا أن تُصلب، لندع الرجال يدقون المسامير ويضفرون إكليل الشوك».

في نيويورك حاولت فيكتوريا تثبيت قوتها الجديدة وقيمتها. كتبت بياناً تدافع فيه عن حق المرأة في الاقتراع ألقته في اتحاد عمال النحاس، وأتبعت ذلك بعدة محاضرات عاصفة لتحسين شروط العمل. إلا أن جهدها الأساسي كان متجهاً لكسب دعم العديد من قادة حق الاقتراع اللواتي ما زلن مترددات، بضمنهن السيدة ليلي بليك، رئيسة الـ ستيت أسوسييشن في نيويورك. طلبت فيكتوريا من بليك أن تزورها، فقدمت لزيارتها برفقة زوجها غرينفيل بليك، وكانت تينيسي حاضرة. وقد سجلت السيدة بليك معاناتها في دفتر يومياتها: «في المساء ذهبنا لزيارة عائلة وودهول وكلافلين وقضينا وقتاً غريباً». الوقت الغريب وُصف لاحقاً في مذكرات كتبتها ابنة بليك، كاثرين بليك: «أذكر بجلاء أنه في الصباح التالي قالت (السيدة بليك) أثناء تناولها الإفطار،

غرينفيل: هل تعلم بأنك سلكت سلوكاً معيباً الليلة الماضية؟ فأجابها، حسناً عزيزتي ليلي أخذتني إلى منزل لا توجد فيه مقاعد كافية للجلوس، وهكذا أقبلت السيدة الشابة الممتلئة (تينيسي) وجلست على مرفق مقعدي ومالت نحوي، لذا ينبغي أن تتوقعي مني أن أطوقها بذراعي». بعد ذلك غدت السيدة بليك عدوة لـ فيكتوريا لا ترحم. أبعدت نفسها وزوجها عنها، وامتنعت عن دعمها. وفي الحال بدأت تصلها رسائل مجهولة المرسل تهدد حياتها. وقد ذكرت ابنتها: «في صباح أحد الأيام وصلها عن طريق البريد قصاصة طُبع عليها «صاع بصاعين، سن بسن، عين بعين».

في النهاية لم تعد تظهر قصاصات التهديد. ودون اكتراث حمّلت السيدة بليك فيكتوريا مسؤولية التهديد والابتزاز متهمة إياها بإرسال رسائل مشابهة إلى آخرين. وقد اتهم آخرون فيكتوريا بابتزاز خصومها المناديات بحق المرأة في الاقتراع. لكن فيكتوريا أنكرت بشدة تلك التهم. على أية حال أدركت فيكتوريا أنه سيبقى هنالك مقاومة لترشحها. لكن حين اكتشفت عنصراً ليبرالياً في الحركة النسائية سيدعمها، قررت التحرك لاستثمار هذا الدعم.

في الذكرى السنوية لانطلاق حركة حق المرأة بالاقتراع جرى احتفال في قاعة أبولو في نيويورك سيتي بتاريخ ١١ أيار عام ١٨٧١، وبُلِّغت فيكتوريا بصفتها واحدة من المتكلمات الرئيسيات. وقد تخلفت عن حضور الاحتفال العضوات المحافظات. وفي ليلة الاحتفال عمدت إليزابيث ستانتون ولوكريتيا موت إلى وضع فيكتوريا بينهما على المنصة لتكسباها مزيداً من الاحترام.

بعد أن حصلت فيكتوريا على منصة تقف عليها، راحت تحاول، عن طريق الخطب الرنانة، لفت الانتباه إليها للحصول على دعم جماهيري. «إذا حرم الكونغرس القادم النساء من جميع ثمرات المواطنة الشرعية، فسوف نشرع بعقد مؤتمر آخر مخصص لسنٍّ دستور جديد وبناء دولة جديدة... إننا نعني خيانة، نعني انشقاقاً أكبر ألف مرة مما كان في الجنوب. إننا نخطط لثورة؛ سنسقط هذه الجمهورية المزيفة ونبني مكانها حكومة الصلاح».

إن الآثار الإيجابية لهذا الخطاب تلاشت بعد خمسة أيام حين أثارت والدة فيكتوريا فضيحة علنية. قبل بضعة أشهر ظهر الدكتور كاييننغ وودهول في المنزل الكائن في شارع ٣٨ الذي أبقته فيكتوريا لنفسها ولأقربائها. ومنذ الطلاق أضاع د. وودهول نفسه في الكحول. كان فقيراً معدماً ومريضاً يستجدي المساعدة من فيكتوريا. لقد آوته ليعتني بطفليهما. لم تكن تعتقد أن بقاءه مع عشيقها الكولونيل بلود تحت سقف واحد أمر غير عادي. لكن روكسانا كلافلين اعتقدت أن ذلك غير عادي، وقد وجدت فرصتها للتخلص من الكولونيل بلود. كانت تكرهه، فقد شعرت أنه ملأ رأس ابنتها بالأفكار الطنانة، وأبعدها عن الحياة الأكثر سعادة، حياة مزاولة العلاج والروحانيات، وأنه يعتاش من مال فيكتوريا. وفوق ذلك، كان لا يُكن احتراماً للسيدة كلافلين وكان يهددها.

خلال نوبة جنون ذهبت السيدة كلافلين إلى الشرطة. وفي محطة إيسكس ستريت أقسمت ورفعت شكوى بحق الكولونيل بسبب تهديداته وظلمه، وأخبرت الشرطة قائلة «كانت ابنتاي جيدتين، طفلتين ودودتين

قبل مجيء بلود. لقد هدد حياتي عدة مرات، وفي إحدى ليالي شهر تشرين الثاني دخل إلى المنزل وقال إنه لن يذهب إلى النوم قبل أن يغسل يديه بدمي. سأخبركم أي رجل هو بلود، إنه واحد من الرجال المثقوبة جيوبهم... أقول هنا وأدعو السماء لتشهد أنه كان ثمة في ذلك المنزل في شارع ٣٨ أسوأ زمرة من أتباع الحب الطليق، ستيفان أندروز و د. وودهول وكثيرون من تلك النفاية».

أخذت القضية طريقها إلى المحكمة. وحين دعي الكولونيل بلود إلى الشهادة قال بأنه لم يضع يده على السيدة كلافلين. ذات مرة هدد أن يقلبها على ركبتيه ويصفعها على مؤخرتها، وكان ذلك أقصى ما فعله. وقد أصر على أنه زوج فيكتوريا على الرغم من عدم وجود دليل على ذلك. وحين سئل إن كان هو و د. وودهول يتشاركان في غرفة النوم مع فيكتوريا، لم يُجب. وقدمت فيكتوريا للدفاع عن عشيقها وقالت «لم يعامل الكولونيل بلود والدتي بطريقة غير ودية أبداً... أحياناً كانت تجلس في حضن بلود وتقول إنه أفضل صهر. وأحياناً تشتمه وكأنه لص». وشهدت تينيسي على أن الكولونيل بلود أنقذها من تأثير شر أمها وعائلتها. وقالت «منذ أن كنت في الرابعة عشرة من عمري، احتفظت بثلاثين أو خمس وثلاثين من البلداء... وقد خدعت الناس، أعرف ذلك، لكني فعلت ذلك من أجل جمع المال والاحتفاظ بهؤلاء البلداء». واعتلى د. وودهول المنصة وهو يرتعش، وأكد أن السيدة كلافلين هي التي كانت تهدد المسكين بلود. وفي النهاية طرح القاضي القضية خارج المحكمة ـ لتتلقفها الصحافة.

ركزت الصحافة اهتمامها الكبير على موضوع الحب الطليق الذي

أتاح لمرشحة الرئاسة الاحتفاظ بعشيقين في وقت واحد. في أوهايو وسمت «كليفلاند ليدر» فيكتوريا «بالغرور والبذاءة» ووصفتها بأنها «مجردة من الصفات الجنسية ومغامرة ثعبانية». وقد قرأ ذلك جميع الذين يعرفونها. كذلك هاجمها هوراس غريلي في صحيفة الـ «تريبيون». لم تقف فيكتوريا مكتوفة اليدين إزاء هذا الهجوم. وشنت في صحيفتها الأسبوعية حرباً لاهوادة فيها على أولئك الذين يختبئون خلف الشعارات الأخلاقية والقيم والأعراف وهم في الواقع يتجاوزونها في الخفاء. وكتبت لرئيس تحرير صحيفة «نيويورك وورلد» تقول «سيدي: لأني امرأة، ولأني أحمل أفكاراً مختلفة عن أفكار الصفوة التقليدية التي يجد الرجال فائدة في دعمها، ولأني أعتقد أن من واجبي ومن حقي المطلق عرض آرائي والدفاع عنها بكل قوتي، يهاجمني صاحب المعتقد التقليدي ويطعنني ويحاول أن يُعرِّض حياتي للاستخفاف والخزي». وتمضي فيكتوريا لتعترف بصراحة ووضوح بأنها «سكنت بالفعل في المنزل ذاته مع زوجها السابق... وزوجها الحالي». فهي لم تستطع التصرف بطريقة أخرى لأن الدكتور كان مريضاً ويحتاج إلى المساعدة. «على الرغم من هذا الإحسان فإن بعض الناشرين وصموني بالعار وبأني أقدم مثالاً حياً على اللاأخلاقي واللا طاهر. أنا أعلم أن العديد من الذين نصّبوا أنفسهم قضاة لي ونقادي هم أنفسهم ملطخون بالرذائل التي يستنكرونها... إني أنادي بالحب الطليق في أعلى مستوياته كعلاج وحيد للا أخلاقي وللخطيئة التي تدفع الرجال لإفساد شرعة الله الأكثر قداسة، شرعة العلاقة الجنسية وتشويهها. قضاتي يعظون منددين بالحب الطليق في العلن، ويمارسونه في الخفاء؛ ظاهرياً

يبدون نظيفين، لكنهم ممتلئون بالقذارة. أعرف على سبيل المثال معلماً معروفاً عالي المقام يعيش مع حظية هي زوجة معلم آخر معروف من ذات المقام. إن النفاق هو ضريبة ثقيلة دفعتها الرذيلة للفضيلة».

وبعد عدة ساعات أرسلت رسالة قصيرة إلى ثيودور تيلتون «المعلم المعروف»،الذي كان أيضاً رئيس تحرير مجلة «العصر الذهبي»، وطلبت منه مقابلتها في مكتبها. وحين جاء أعطته الطبعة الصباحية من صحيفة الـ «وورلد» وطلبت منه قراءة النص الذي كتبته فيها بصوت عالٍ. قرأ تيلتون النص كلمة كلمة، وبضمن ذلك المقطع الذي يدور حول المعلم المعروف ذي المقام العالي. وبعد أن فرغ من القراءة سألته: «هل تعرف من هو المعلم المعروف الذي أشرت إليه؟ فأجابها كيف لي أن أعرف؟ فقالت، لقد أشرت إلى هنري وارد بيتشر وزوجتك».

أبدى تيلتون دهشته، ليس لأنه لم يعلم بخيانة زوجته، بل لأن الموضوع بات معروفاً الآن من الجميع.

كان على تيلتون أن يواجه الحقيقة البشعة: بدأ زنى زوجته التقية قبل ثلاث سنوات، لكنه عرف ذلك منذ أحد عشر شهراً فقط، ولم يعد الأمر سراً بالنسبة إليه.

كانت بدايات الفضيحة في ذلك اليوم من عام ١٨٥٥ حين كان المحترم (لقباً لرجل دين مسيحي) هنري بيتشر، راعي كنيسة بلايموث الغنية في بروكلين، يؤدي واجبه الكنسي أثناء زفاف عضوة مبجلة من رعيته، إيليزابيث ريتشاردس الجذابة الفاتنة، التي اختارت الصحفي الوسيم ثيودور تيلتون البالغ من العمر عشرين عاماً، زوجاً لها.

خلال الـ خمس عشرة سنة التي تلت الزفاف، أصبح بيتشر، القصير

والممتلئ والحيوي، الكاهن الأعلى أجراً في أمريكا. كان يتلقى سنوياً عشرين ألف دولار من كنيسة بلايموث. إضافة إلى خمسة عشر ألفاً يجمعها سنوياً لقاء جولاته الوعظية وكتاباته. وليست عظاته الملونة هي التي جعلته إله ثلاثة آلاف من المؤيدين الذين يؤمون كنيسته أسبوعياً، بل لأنه كان أيضاً صانع رأي الرعايا البارزين. ومع أنه قطّب حاجبيه استنكاراً لطروح فيكتوريا وودهول وأتباعها حول الحب الطليق، إلا أنه عدّ نفسه ليبرالياً ومنفتح العقل. وقد سمح للملحد الشهير روبرت إنغيرسول بمخاطبة رعايا كنيسته. وقدم للجمهور من على منبره المزاد العلني الساخر لبيع أمَة لتسويق كتاب أخته (كوخ العم توم). ولأنه يتمتع بجاذبية سحرية نذر أتباعه أنفسهم له. وعلى الرغم من كل ذلك النجاح، كان وحيداً وقلقاً ,وقد ربطه زواجه المبكر بامرأة من نيو إنغلند تدعى يونيس بالارد. وقد أنجبت له تسعة أطفال. واعترف بيتشر أن حديثها كان مضجراً وجافاً. وأخيراً أدار بيتشر ظهره لزوجته التعسة، ليرافق أخريات. وفي نهاية المطاف وقع اختياره على زوجة صديقه المقرب.

كانت إيليزابيث ريتشاردس، إلى حد ما، نتاج مواعظ بيتشر وحماسته الدينية. وكانت ذهبت إلى المدرسة مع واحدة من بناته. وكان قد مضى على عضويتها في كنيسته ١٥ عاماً قبل لقائها مع تيلتون الذي جلبته إلى الكنيسة. كان تيلتون اليافع ابناً لنجار، وقد تعلم في كلية نيويورك سيتي. وبعد تركه المدرسة غدا محرراً في الـ «نيويورك أوبزيرفر». كان طويلاً وقوياً ورجولي المظهر، ومع ذلك كان ثمة شيء أنثوي في سلوكه. كان لامعاً ومثالياً وضعيفاً.

بعد عام من زواجه وقع تحت تأثير بيتشر الكلي. وبتدخل من بيتشر أصبح تيلتون محرراً ثم مالكاً لحصة في الـ «إنديبندانت»، وقد ارتفع راتبه من ٧٠٠ دولار إلى ١٥٠٠٠ دولار سنوياً. وأصبح تيلتون وبيتشر صديقين قريبين جداً، وغالباً ما يُرى القس المتوحد داخل منزل تيلتون.

كان بيتشر مطلعاً على شؤون إليزابيث تيلتون، أولاً حين كانت واحدة من رعايا كنيسته، ثم حين أصبحت زوجة صديقه المفضل. وسرعان ما بدأ يرى في إليزابيث الحارة السمراء أكثر من صديقة, وبالتالي وجدت إليزابيث نفسها قريبة جداً من بيتشر بسبب مشاكل نشأت بينها وبين زوجها. وتخلي تيلتون، الذي أصبح مؤيداً متحمساً لإلغاء الرق، عن الدين من أجل التفكير الحر. إضافة إلى ذلك كان ثمة شائعة تقول إنه أهمل زوجته ليمضي وقته برفقة نساء أخريات. وكانت بيسي تيريز الجميلة ذات الستة عشر ربيعاً واحدة من النساء الأخريات، التي استخدمها لرعاية أطفاله الخمسة. كان تيلتون مفتوناً بهذه الفتاة، وفي إحدى ليالي عام ١٨٦٧ دخل غرفة نومها واندس في السرير إلى جانبها.

في آب عام ١٨٦٨ فقدت إليزابيث ابناً لها بعد إصابته بالكوليرا. وكانت بحاجة ماسة إلى العزاء. لكن زوجها كان غائباً في جولة لإلقاء المحاضرات. وهكذا دفعها حزنها إلى الذهاب لرؤية بيتشر في منزله. قالت إنها بحاجة إليه. وكان أيضاً بحاجة إليها. وفي تلك الليلة كتبت إليزابيث في مفكرتها «اليوم العاشر من تشرين الأول عام ١٨٦٨ هو يوم جدير بأن يذكر». الوصف المفصَّل للعلاقة المحرمة عرفه الجميع فيما

بعد عن طريق تيلتون نفسه: «عندئذٍ قالت لي... بدأت الأُلفة الجنسية بعد موت ابنها بول... وأنها حصلت على السلوان من القس راعي كنيستها؛ وأنها قامت بزيارته في منزله حين كانت ما تزال تعاني ذلك الأسى، وهناك، في العاشر من تشرين الأول عام ١٨٦٨ سلمت له جسدها في عناق جنسي. وأنها أعادت الكرَّة في ليل السبت الذي تلا... وهكذا تكرر اللقاء تارة في منزله وتارة في منزلها وفي أماكن مختلفة ـ استمر هذا الاتصال الجنسي بدءاً من خريف عام ١٨٦٨ إلى ربيع عام ١٨٧٠... وأنه بعد استسلامها في تشرين الأول عام ١٨٦٨، توسل إليها مرات عديدة حين كانت ترفض، لأن المناسبات التي سلمت له فيها جسدها كانت كثيرة، لكن توسلاته كانت دائمة ولجوجة، وأحياناً عنيفة نوعاً ما....».

كان تيلتون قادراً على كشف هذه التفاصيل لأنه كان سمعها من شفتي زوجته في ليلة الثالث من تموز عام ١٨٧٠. إذ كانت انفصلت، نادمة ومتأخرة، عن بيتشر، وقررت الاعتراف لزوجها بكل شيء. أخبرته أن سقوطها لم يكن نتيجة «أفكار سوقية» بل كان نتيجة شكر وامتنان لـ بيتشر على حنانه واهتمامه بها أثناء محنتها وإصراره الحازم على أن الفعل لم يكن فعلاً آثماً. وقالت بأنها كانت في غيبوبة طوال فترة العلاقة التي دامت سنة ونصف. وطلبت من زوجها أن يتعهد بحفظ هذا الأمر سراً. ووافق.

لكن «السر» هي الكلمة الأكثر مرونة في اللغة الإنكليزية. فقد باح تيلتون، الذي تفاوتت ردة فعله بين الجرح والشهادة (من شهيد) السعيدة، باح بالسر إلى صديقة قريبة منه هي مارثا برادشو، شماسة

كنيسة بيتشر. ثم كرر القصة ذاتها على مسامع هنري بوين، ناشره الذي أغوى بيتشر زوجته. أما إليزابيث فقد لجأت للتكفير عن إثمها إلى أمها المهذارة السيدة ناثان مورس التي روت القصة لصديقاتها المقربات.

حين كشفت فيكتوريا وودهول لـ تيلتون عن معرفتها بالفضيحة، استنتج أنها سمعتها من السيدة مورس. كان مخطئاً. فقد سمعت فيكتوريا القصة عام ١٨٧١ من إليزابيث كادي ستانتون أثناء حديث خاص تجاذبتاه حول موضوع الزواج والحب الطليق.

حدث أن تيلتون كان تناول العشاء مع السيدة ستانتون والسيدة بولارد في منزل الأخيرة. وقد خططوا لمناقشة سياسة «الثورة» صحيفة النساء المناديات بحق التصويت، التي كان تيلتون يساعدهن في تحريرها. لكنه لم يكن مهتماً بموضوع الصحافة في تلك الليلة. وحين تحول الحديث إلى موضوع إصلاح الزواج، انفجر تيلتون منددا بتأثير بيتشر قائلاً بأنه يحتقر ذلك الشهواني «الوغد الفاسق الملعون»، وأخبر السيدتين المجفلتين لماذا.

بعدما أخرج تيلتون القصة من صدره، عاد إلى بيته حيث وجد سوزان أنتوني تقضي الليلة مع زوجته. وسرعان ما وجد نفسه متورطاً في جدال عنيف مع زوجته. حاولت الآنسة أنتوني المشدوهة الهرب إلى غرفة الاستقبال وتبعتها إليزابيث، فما كان من تيلتون إلا أن طارد الاثنتين. أغلقت إليزابيث باب غرفة أنتوني بوجه زوجها. وحين قرع تيلتون الباب بعنف، صرخت أنتوني «لن تدخل الغرفة إلا على جسدي!». أمضت إليزابيث بقية الليلة بين ذراعي أنتوني وهي تبكي بمرارة مستعرضة حكاية زناها البائسة. وفي اليوم التالي رددت الآنسة

أنتوني الحكاية كاملة على مسامع ستانتون التي أخبرتها بأنها كانت سمعت قصة العلاقة بين إليزابيث وبيتشر من تيلتون نفسه.

كان هذا طبقْ القيل والقال الشهي، الذي مررته ستانتون لـ فيكتوريا. أكان على السيدة ستانتون أن تضبط لسانها؟ إنها إن فعلت ذلك فربما لم يكن ثمة في التاريخ الأمريكي قضية بيتشر ـ تيلتون.

حين غادر تيلتون مقر فيكتوريا وودهول في ساعة متأخرة من صباح ٢٢ أيار عام ١٨٧١ أدرك أنه في مواجهة واجب واحد لكنه صعب. ينبغي عليه أن يحافظ على سمعة زوجته وسمعته عن طريق إقناع فيكتوريا بالعمل للحدٍّ من انتشار الفضيحة.

على الرغم من احتجاجات إليزابيث جلب تيلتون فيكتوريا للقائها، ليبرهن لـ فيكتوريا أن زوجته كانت محترمة ومحتشمة لا تستحق عقاباً إضافياً. وحين دخلت فيكتوريا البيت قدمها إلى زوجته مضيفاً «السيدة وودهول تعرف كل شيء». ارتبكت إليزابيث متسائلة «كل شيء؟». أومأ تيلتون برأسه. جرى اللقاء بنعومة. وقد عبرت إليزابيث عن رأيها في العديد من المواضيع، كما أهدت ضيفتها مجلد شعر مفضل لديها.

بعد ذلك ذهب تيلتون والتقى هنري وارد بيتشر ونصحه بلقاء فيكتوريا وأن «يعاملها بلطف». وقد وافق القس على الاقتراح. وكتب تيلتون إلى فيكتوريا «عزيزتي فيكتوريا... ستقابلين السيد بيتشر في منزلي مساء يوم الجمعة. إنه سينهي واجبه في الكنيسة في العاشرة، وبعدها سيمنحك الوقت الذي ترغبين».

كانت فيكتوريا تنتظر في ردهة الاستقبال في بيت تيلتون حين وصل بيتشر. حيته بحرارة ثم ناقشا موضوع الزواج، ووافق بيتشر على

أن الزواج «قبر الحب». وأسفت فيكتوريا لأنه لا يعظ بما يعتقد، أجابها بامتعاض «إن فعلت ذلك، كنت سأعظ مقاعد فارغة، وستنهار كنيستي». وصلت فيكتوريا الآن إلى الموضوع الذي يشغل بالها. أرادت موافقته العلنية. فقد كانت كتبت إليه في اليوم السابق تخبره بأنها ستتحدث في قاعة شتاينويه، و «ما سوف تقوله أم لا تقوله سيعتمد بالدرجة الأولى على نتيجة اللقاء». طلبت منه ببلادة أن يظهر معها على المنصة ويقدمها إلى الجمهور.

ارتد بيتشر إلى الوراء قليلاً حين سمع طلبها، فقد كانت ذاهبة لمناقشة موضوع الحب الطليق وهو لا يرغب أن يكون له دور في ذلك. دعته فيكتوريا بـ «الجبان الأخلاقي». ومن المحتمل أنها هددته. على أية حال «نهض على الفور وأمسك وجهي بيديه، والدموع على وجنتيه، وتوسل أن أدعه وشأنه». وفي حين بقيت فيكتوريا دون حراك مرددة أنها ستلطخ سمعته، صرخ بيتشر قائلاً «آه! إن كان لا بد من ذلك، أخبريني بذلك قبل ٢٤ ساعة، فربما تمكنت من أن أنهي حياتي». بعد ذلك بسنوات اعترفت فيكتوريا أمام واحدة من زميلاتها أنها «هي نفسها أقامت علاقة جنسية مع بيتشر».

وأخيراً، حين ظهرت فيكتوريا في قاعة شتاينويه مساء ٢٠ تشرين الثاني عام ١٨٧١، لم يكن بيتشر حاضراً ليقدمها إلى الجمهور، وقام تيلتون بالمهمة. وقد هدّأها ذلك إذ لم تذكر الفضيحة أثناء حديثها عن الحرية الاجتماعية. كان حديثها ملهباً للمشاعر. وصفت قوانين الزواج بأنها «استبدادية وبقايا العصر البربري». وتنبأت قائلة إن الحب الطليق سيصبح ديانة الجيل القادم. كان ثمة مقاطعات متفرقة لحديثها من

الجمهور العريض. وخلال الأمسية ارتفع صوت يسأل «هل أنت عشيقة حرة؟» أهملت فيكتوريا نصها المكتوب وصرخت «نعم أنا عشيقة حرة». هلل نصف الجمهور، وصاح النصف الآخر مستنكراً بغضب، وتابعت فيكتوريا «لديَّ الحق الدستوري غير القابل للتصرف، والحق الطبيعي في أن أختار الذي أحب، في أن أحب طوال المدة التي يمكنني تحملها طالت أم قصرت. وأن أبدل إن شئت ذلك الحب كل يوم! وبذلك الحق ليس باستطاعتك ولا باستطاعة أي قانون تصوغه، امتلاك الحق بالتدخل في شؤوني».

في الأشهر التي تلت، تابع تيلتون استمالته لـ فيكتوريا بشتى الطرق. كتب المحاضرات من أجلها. كتب، وأعاد كتابة سيرتها مستعيناً بقصاصات مكتوبة زوده بها الكولونيل بلود. وقد نشرت هذه السيرة في مجلة «العصر الذهبي» تحت عنوان «قيمة السيدة وودهول وأهميتها». وأخيراً، بعد سباحته معها في جزيرة كوني، وقضائه الليالي الطويلة يتحدث معها، أصبح تيلتون عشيق فيكتوريا. وحين سألها أحد محرري صحيفة شيكاغو تايمز عن رأيها في ثيودور تيلتون، قالت فيكتوريا بصراحة «كان عشيقي المخلص طوال نصف عام، وأعترف بأنه كان في ذلك الوقت عشيقي المفضل، ولم أستطع مقاومة سحره الملهم».

ومع ذلك، حررت فيكتوريا نفسها من عناقات تيلتون خلال تلك الأشهر لتشرع في وضع خطة جديدة تعزز فرصها للوصول إلى رئاسة الولايات المتحدة. وقد رأت أن من الحكمة أن تخلق رابطة حق تصويت المرأة حزبها السياسي وأن ترعى مرشحاتها للهيئة العامة. ودخلت في صراعات مع عضوات أخريات على رأسهن الآنسة سوزان أنتوني.

وبدأ مؤتمر الرابطة أعماله في قاعة شتاينويه. وألقت ستانتون الخطاب الرئيسي، وتابع الاجتماع عمله حتى الليل، وحين اقترب موعد تأجيله، برزت فيكتوريا فجأة لتحدّي الآنسة أنتوني أمام التجمع الكبير. واجهت فيكتوريا المؤتمرين وأعلنت إرجاء المؤتمر الذي سيعاد عقده في اليوم الثاني في قاعة أبولو، التي استأجرتها من أجل مؤيديها. آزر صوت من القاعة الاقتراح. فدعت فيكتوريا للتصويت، لكن العيون بقيت شاردة. ثم تكلمت أنتوني بسرعة وبصراحة. من غير المحتمل التصويت هناك بسبب عدم اقتراح من عضوة شرعية في الرابطة، ثم صرخت قائلة «لا شيء مما قاله هذا الشخص سيسجل في محضر الاجتماع، سيُفضُّ المؤتمر الآن لينعقد غداً في الحادية عشرة صباحاً في هذه القاعة». حاولت فيكتوريا التدخل ثانية، لكن الآنسة أنتوني منعتها، وطلبت من البواب إطفاء مصابيح الغاز. أظلمت القاعة وانسحبت الوكيلات وبقيت فيكتوريا وحيدة. لقد هُزمت وباءت خطتها بالفشل، وخسرت دعم حركة حق تصويت المرأة إلى الأبد.

في الصباح بالتالي عُقد اجتماع الرابطة، وانتُخبت سوزان أنتوني بالإجماع رئيسة لها. وفي مكان آخر كانت فيكتوريا ومساعدوها منشغلين بـ ٦٦٠ من الأتباع - عضوات منشقات، روحانيين، اشتراكيين، عشاق أحرار، مهووسين - في قاعة أبولو بهدف خلق حزب سياسي راديكالي جديد.

ترأس الاجتماع القاضي رايمارت من نيويورك، وقدم ستيفان بيرل أندروز الذي اقترح أن يسمي أعضاء المؤتمر الجديد أنفسهم بـ حزب الحقوق المتساوية، وقُبل الاقتراح. ثم تبعه خطباء آخرون. كان ثمة كلام

حول الحد الأدنى للأجور، وكان ثمة قصيدة تستنكر الرشوة والفساد. وفي المساء كان ثمة فيكتوريا.

ووسط تصفيق حاد، هاجمت فيكتوريا الفساد ونظام الحزبين، والجمهوريين، ووصلت إلى ذروة الخطاب حين قالت «سنسير إلى الأمام لتمتد الثورة وتصل إلى العالم أجمع. ماذا تعني الحرية؟ إنها الحق بالحياة الحرة وتعقب السعادة. ما هي المساواة؟ إنها إتاحة الفرص أمام كل شخص لممارسة حقوقه الفردية. وما هي العدالة؟ أن تُصان الحقوق وألا يطولها التجاوز والطغيان. هل سنصبح عبيداً ونهرب من الثورة؟...».

وأتت اللحظة التي قفز فيها القاضي كارتر من أوهايو إلى حافة المنصة وهتف «أرشح فيكتوريا وودهول لرئاسة الولايات المتحدة». هتف بعده الجمهور بالموافقة. وحين هدأت الجلبة تقدمت فيكتوريا بتواضع وأعلنت قبولها وشكرها. ثم جاء دور ترشيح نائب الرئيس. اقترح واحد من الجمهور تسمية الهندي الأمريكي البارز شيف سبوتد تيل. ثم اقُترحت أسماء كثيرة بضمنها فريدريك دوغلاس، وهو عبد آبق سابق حصل على سمعة عالمية بوصفه مصلحاً وكاتباً ومحاضراً. وبعد سلسلة من المواقف التي تورطت بها فيكتوريا، كتب دوغلاس يخبر الصحافة رفضه التسمية والعمل مع فيكتوريا.

بات من الواضح أن فيكتوريا قد أضعفت وضعها خلال عملية الترشح. فقبل تسميتها مرشحة نُظر إليها بوصفها تقدمية وجريئة وغريبة الأطوار، وبعد ترشحها صار يُنظر إليها بوصفها راديكالية خطرة. وقد أهملت صحيفتها التي تراكمت عليها الديون، وخسرت دعم الكومودور

فاندربيلت، وأوقفت الشركات إعلاناتها، وعُلقت الدوريات. وطلب مالك منزل شارع ٣٨ من فيكتوريا وعائلتها إخلاءه. لم يقبلها فندق ولا مثوى، وقد اضطرت هي وعائلتها لليلة واحدة نصب خيمة في الشارع. وأخيراً وجد لها بعض الأصدقاء مأوى، لكن مشاكلها استمرت بالتراكم. أما ثيودور تيلتون فقد أخبر أقرباءها بأنه خاصم فيكتوريا بسبب تعليقاتها العلنية المناهضة للمناديات بحق التصويت اللواتي كان إلى جانبهن. لكن فيكتوريا ردت قائلة بأنها هي التي خاصمته لأنه دعم هوراس غريلي أكثر منها لمنصب الرئاسة. وفي غضون ذلك قامت شقيقتا بيتشر بمهاجمة فيكتوريا بضراوة في الصحافة، فقد حذرتها كاترين، ملمحة إلى فضائحها قائلة «تذكري، بأني سأقضي عليك»، وقد تلقت ضربات موجعة من شقيقة بيتشر الثانية الأكثر شهرة هارييت بيتشر ستو مؤلفة رواية «كوخ العم توم». إن السيدة ستو الطهرانية التي أثارت عاصفة من الجدل في إنكلترا باتهامها بايرون بسفاح القربى، سدّدت الآن نظراتها على فيكتوريا. كتبت سلسلة من المقالات اللاذعة حول ممارسات فيكتوريا وسلوكها الشائن. لقد طُعنت فيكتوريا في العمق، فقررت معاقبة أعدائها واستعادة مركزها الوطني البارز عشية الانتخابات الرئاسية.

في الحادي عشر من أيلول عام ١٨٧٢ كانت فيكتوريا في بوسطن، على الرغم من تهديد المحافظ بمنعها من دخولها، لمخاطبة رابطة الروحانيين الأمريكيين. وعلى الرغم من أنهاكانت رئيسة المنظمة، رغبت في التحدث حول شيء أكثر دنيوية من الروحانية. فكشفت عن علاقة الزنى بين بيتشر وإليزابيث تيلتون. قالت عنه بأنه «كان يعظ كل أحد

خليلته، وعدداً من عضوات كنيسته، وهن جالسات على مقاعد الكنيسة يكسوهن الحرير والساتان والمحترمية العالية!». وقد نشرت صحف بوسطن ونيويورك حديثها، فكتبت الـ بوسطن جورنال أن «رجل دين نيويورك البارز كان متهماً بجرائم شخصية بشعة».

وحين واجهت مؤامرة صمت نسبي، أخذت فيكتوريا المواضيع على عاتقها. إذا كانت الصحافة العامة لم تكن صادقة، عندئذٍ ستوقظ الفضيحة في نشراتها الدورية. وبمساعدة بلود وتينيسي أعادت إحياء جريدتها من جديد. وفي صباح ٢٨ تشرين الأول عام ١٨٧٢ أطلقت أحاسيسها الوطنية. نشرت في مكان بارز من الإصدار، وبخط عريض: قضية فضيحة بيتشر ـ تيلتون ـ عرض مفصل للقضية بقلم السيدة وودهول.

كتَبت تقول «أود أن تنفجر هذه المقالة كالقنبلة بين صفوف معسكر الأخلاقيين الاجتماعيين». وقد كررت في هذه المقالة كل شيء سمعته من السيدة ستانتون ومن تيلتون. وأوضحت أنها لا تستنكر علاقة بيتشر بإليزابيث ـ لا ننس أنها كانت مدافعة عن الحب الطليق. وأنها تفهم شهوة بيشر القوية. «مع متطلبات طبيعته الجسدية، ومع القيود الرهيبة المفروضة على حياة رجل الدين». إنها لا ترى مناسباً الحكم عليه بقساوة. ثم مضت أبعد من ذلك، إلى حد الإطراء «إن القدرة الجسدية الهائلة للسيد بيتشر... الجوع العاطفي المفروض على مثل تلك الطبيعة بهذه القوة.... هو قسوة رهيبة... كل رجل عظيم من نمط السيد بيتشر، كانت لديه في الماضي، وستبقى لديه دائماً، الحاجة والحق في إظهار العاطفة والود للعديد من النساء». لكن بيتشر، تابعت فيكتوريا، سبب

لـ تيلتـون استيـاء مميـتـاً. فـحين سمع تـيلتـون للمـرة الأولى بخيـانة زوجتـه، أكره على نزع خاتم الزواج من إصبعه، وكان عليه تحطيم صورة بيتشر المؤطرة. كان بيتشر من غير شك «جباناً رعديداً ولصاً متسللاً»، لأنه لم يعترف بعلاقته السرية، والشيء الذي رفضته بشدة كان نفاقه وتظاهره بالتقوى.

إن الاضطراب الذي تلا كان هائلاً. نادى بائعو الصحف مروجين الصحيفة في جميع أنحاء المدينة، وبيع منها مئة ألف نسخة. ولما نفدت النسخ، أخذوا يبيعون المقالة وحدها لقاء عشرة دولارات، وأخيراً لقاء أربعين دولاراً. كان بيتشر في مواجهة الفضيحة. أراد أحد الأصدقاء التأكد من أن الموضوع كان بأكمله غير صحيح، فقال بيتشر «غير صحيح بأكمله». ويوضح موقفه هذا بأنه كان خارج المعركة. لكنه إن تظاهر بتجاهل الفضيحة، فإن أنتوني كومستوك لم يتجاهل الأمر. فقد قرأ هذا الحارس لأخلاق الأمة القصة بعد منتصف الليل، وشعر أن من «المقيت والجائر اتهام واحد من أنقى مواطني الولايات المتحدة وأفضلهم». وفي حين رفض بيتشر اللجوء إلى القضاء بسبب التشهير، فإن كومستوك نفسه حرّض على مقاضاة فيكتوريا لارتكابها فعلاً جرمياً. وفي الصباح قابل مفوض المقاطعة، الذي كان أيضاً عضواً في جماعة بيتشر، وطلب منه اعتقال فيكتوريا وأختها لأنهما قامتا بإرسال مادة فاحشة مطبوعة عن طريق البريد. تردد مفوض المقاطعة حيال هذا الاتهام. عندئذٍ لجأ كومستوك إلى المفوض الفيدرالي الذي أبدى تعاوناً أكبر. وأرسل ضابطين من مساعديه لمتابعة الموضوع.

وجد الضابطان فيكتوريا وتينيسي في عربة في بورد ستريت،

وبحوزتهما خمس مئة نسخة مطبوعة من صحيفتهما، تنتظران اعتقالهما. زُجت الاثنتان بخشونة في زنزانة ضيقة في سجن شارع لودلو. وحُدد مبلغ الكفالة لكل واحدة بـ ثمانية آلاف دولار. وبعد شهر من سجنهما دون محاكمة أطلق سراحهما بكفالة، ثم أعيد اعتقالهما بتهمة أخرى، ثم أطلق سراحهما ثانية بكفالة، وأخيراً اعتقلتا مرة ثالثة حين اكتشف كومستوك بأنهما تابعتا إرسال نسخ مطبوعة من الطبعة الفضائحية عن طريق البريد. وبعد ستة أشهر من الحجز المتقطع واجهت فيكتوريا وتينيسي هيئة محلفي المحكمة. وبعد سلسلة من الجلسات رأت هيئة المحلفين أن الاثنتين غير مذنبتين.

ومع ذلك كانت فيكتوريا في أعين كتاب الـ «نيويورك تايمز» ما زالت مذنبة، ففي هجومها الجائر على بيتشر ألحقت «العار بأسماء نسائية». وليس بعد أقل من ثلاث سنوات وجدت فيكتوريا نفسها مبرّأة. إذ بعد أن اتهم أنصار بيتشر تيلتون بتشويه سمعة قائدهم وطردوه من كنيسة بلايموث، وبعد أن برّأت لجنة الكنيسة، المشكّلة من الأعضاء، كاهنها المحبوب، تحرك تيلتون للقيام بمهمته. أقام دعوى قضائية على بيتشر طالبه فيها بـ مئة ألف دولار بسبب إغوائه زوجته. وفي ١١ كانون الثاني عام ١٨٧٥ في بروكلين غدت تفاصيل الفضيحة الكبرى معروفة على نطاق شعبي نتيجة المحاكمة. أثبت تيلتون أن بيتشر أغوى زوجته، وظل يعاشرها جنسياً طوال عام ونصف العام.

اعترف بيتشر بأن حبهما كان حباً أفلاطونياً، وأنكر الزنى. وبعد ١١٢ يوماً من الجدل، وبعد ملء ٣٠٠٠ صفحة بأقوال الشهود والبينات صوتت هيئة المحلّفين لصالح بيتشر الذي استقبله أتباعه استقبال

الأبطال. لكن صحيفة لويسفيل كوريير عكست رأي الصحافة حين وسمت بيتشر بـ «أنه كومة رَوْث مغطاة بالورود». وعلى الرغم من ذلك تزايد جمهور محاضراته، ومكّنه ذلك من الحصول على ألف دولار مقابل المحاضرة الواحدة. ونجا كمتهم بنعومة.

لم تكن فيكتوريا، باتهامها، بيتشر بحالة حسنة. فتسليطها الضوء على الفضيحة لم يخدمها في مسعاها للوصول إلى الرئاسة. كانت وراء القضبان في سجن شارع لودلو في الخامس من تشرين الثاني عام ١٨٧٢ حين هزم الجنرال أوليس س. غرانت هوراس غريلي ليفوز بالرئاسة. لم تحصل فيكتوريا على أصوات انتخابية، حصلت فقط على بعض الأصوات المبعثرة. وعزت السبب إلى آلية الفساد، وإلى نظرياتها وأفكارها الإصلاحية السابقة لعصرها.

وعلى الرغم من معاناتها المرض والإجهاد ثابرت على تقديم محاضرات حول الحب الطليق. وكان كل حديث لها يشعل ناراً، كما حدث حين تحدثت في جمعية الروحانيين الأمريكيين في شيكاغو، إذ قالت «إن موضوع المعاشرة الجنسية هذا يمكن أن يكون محل نقاش الآن، وسيُناقش إلى أن تصبحوا أكثر ألفة مع أعضائكم الجنسية، أي أن الرجوع إليها لن يجعل وجهكم أكثر احمراراً من الرجوع إلى أي جزء من جسدكم... سأخبركم عني. إني أبحث عن الحقيقة حول المعاشرة الجنسية، وسأظل أتابعها سواء أوصلني ذلك إلى الجنة أم إلى النار».

والحقيقة التي أصرت عليها بعناد هي أن المعاشرة الجنسية التي تواصلت دون تحرر متبادل دمرت الأنثى. وقالت مؤكدة بأنه ينبغي أن يعلم كل رجل أن لكل امرأة الحق باختبار لذة الذروة الجنسية. كان

مستمعوها مأخوذين كعادتهم، وعلى الرغم من أن بعضهم هاجمها في البداية إلا أنهم جددوا انتخابها لرئاسة جمعية الروحانيين الأمريكيين.

وكعادتها تابعت فيكتوريا حياتها الشخصية دون الاكتراث بالرأي العام. أقامت العديد من العلاقات الجنسية، وحين بلغت الخامسة والثلاثين أقامت علاقة مع شاب في التاسعة عشرة من عمره. كان يدعى بنجامين توكر، وفي عام ١٨٢٦ (حين كانت فيكتوريا ما تزال حية في إنكلترا) كشف لـ إيماني ساكس عن علاقته الطويلة معها. كان الشاب توكر خجولاً عندما ذهب لمساعدة فيكتوريا في تنظيم محاضراتها. وعلى الرغم من أنه ادعى أنه يؤمن بآرائها، حاول ألا يبدو مفاجأ حين قبلته وجلست في حضنه.

من الواضح أن فيكتوريا كانت نهمة جنسياً، وكان الشاب توكر مطالباً بالعودة إليها لإشباع نهمها الجنسي. وقد رافق خليلته هذه في رحلة إلى أوتا وكاليفورنيا، ثم سافر معها في صيف عام ١٨٧٤ إلى فرنسا، واستمر يشاركها سريرها طوال إقامتها في باريس.

دامت العلاقة بينهما عشرة أشهر، بعدئذٍ بدأت رغبة توكر بالفتور. وحين أرادت فيكتوريا أن تجعل من علاقتهما شأناً عائلياً تمرَّد توكر للمرة الأولى: «في أصيل أحد الأيام بينما كنت أسير بصحبة فيكتوريا قالت لي فجأة: تينيسي ستمارس معك الجنس أصيل هذا اليوم، فنظرت إليها متعجباً وقلت (ولكن)، فأجابتني (أنا لا أبالي إن مارست معها الجنس، إذ لا يستطيع أحد أن يحبني ما لم يحب تينيسي) الحب الطليق أم لا. رفض توكر الاستجابة. وأخيراً قرر إنهاء علاقته بها. انفصل عنها توكر، وبعد سبع سنين، حين كان محرر الـ «بوسطن غلوب» وسمع بقدوم فيكتوريا توارى عن الأنظار متجنباً لقاء خليلته السابقة.

على الرغم من أن فيكتوريا توقعت تسامحاً تجاه علاقاتها،طالبت عشاقها بالإخلاص التام لها. ففي عام ١٨٧٦ حين سمعت بأن الكولونيل بلود يتودد بإفراط إلى العديد من النساء الشابات، غضبت غضباً وحشياً. أخبرته بأنها سئمت من دعمه وطالبته بالرحيل. وتجاهلاً منها لواقع أنهما لم يتزوجا مطلقاً، طلقت فيكتوريا بلود طلاقاً شكلياً بدعوى أنه يعاشر عاهرة، ولم تره بعد ذلك سوى مرة واحدة. بعد ذلك علمت أنه تزوج أرملة في مين، وأبحر إلى ساحل الذهب بإفريقيا مع الكابتن جاكسون بحثاً عن الثروة. وهناك توفي بلود في كانون الأول عام ١٨٨٥ ـ بعيداً عن عالم يوتوبيا الحب الطليق.

بعد أن طردت فيكتوريا بلود من منزلها، بدأت تفقد الاهتمام بالراديكالية والإصلاح. وبدا أن وجودها فقد جميع المقاصد والغايات. ذات مرة قادها النبيل ديموستينس في طريق الغنى والقوة. وقد تذوقت كليهما ووجدتهما مُرَّين. والآن أصبحت تتوق إلى السلام والاستواء واللجوء إلى الهادئ والمألوف. وهكذا هجرت وهي في الثامنة والثلاثين ديموستينس من أجل المسيح.

بدا هذا التحول واضحاً في افتتاحية صحيفتها الأسبوعية التي بدأت بالظهور ثانية. وتدريجياً استبدلت بمحاضراتها حول الدعارة والزواج، محاضرات فيها إلماعات من الكتاب المقدس مكتشفة أن جنة عدن تكمن في جسد امرأة متزوجة.

وقبل أن يمضي هذا الاكتشاف المبهم والمحير للدين أبعد من ذلك، وقع حادث غير حياة فيكتوريا تغييراً كاملاً. ففي صباح الرابع من كانون الثاني عام ١٨٧٧ لفظ الكومودور فاندربيلت أنفاسه الأخيرة،

بعد أن طلب من زوجتــه أن تغني له بعض التـرانيم الدينيـة. وفي الموت كما في الحياة، أنقذ الكومودور فيكتوريا من الحاجة والنسيان.

ترك في وصيته مبلغاً يفوق مئة مليون دولار لورثته. ذهب منه ٩٥ مليـون دولار إلى ابنه الأكـبـر وليـام، وذهب البـاقي إلى ابنه الآخـر كـورنيليـوس وإلى بناته الثـماني. لجأت بناته السـاخطات إلى القـضـاء بدعوى أن والدهن لم يكن بكامل عقله عند كتابة الوصيـة. ولإثبات أن الكومودور كان فاقد الأهلية، استشرْنَ العديد بضمنهم فيكتوريا التي كانت ذات مرة وسيطته الروحية.

في غمرة الصراع حول الوصية رأت فيكتوريا فرصة ذهبية لاستعادة ثروتها. لم يترك لها الكومودور شيئاً، مع أنه ترك لأختها لوحة زيتية، وأودع لكليهما مبلغاً لاستخدامه في تطوير الحركة الروحانية. أوضحت فيكتوريا أن الكومودور مدين لها بأكثر من مئة ألف دولار هي البقية الباقية من عمل قديم لم يتم تصفيته. وبعد أخذ ورد، وبعد أن خدمت فيكتوريا أخوات الوريث الأساسي المدعى عليه وليام بشهادتها على تلاشي قوى الكومودور العقلية، سدَّد وليام ما عليه.

في عام ١٨٧٦ عادت فيكتوريا إلى المسيح في موضوع الرق، لكن في عام ١٨٧٧ كان الكومودور هو الذي أنقذها. لا أحد يعلم مقدار المبلغ الذي حصلت عليه من ابن فاندربيلت. البعض قدره بـ خمسين ألف دولار، وقدره آخرون بـ ٥٠٠ ألف دولار. لكن وليام اشترط أن ترحل فيكتوريا وتينيسي إلى خارج أمريكا طوال مدة النزاع حول الوصية. وهكذا أبحرت فيكتوريا وأختها قاصدتين إنكلترا. كان ذلك في أواخر عام ١٨٧٧.

وصلتا إلى لندن حيث استأجرت فيكتوريا منزلاً في الضاحية، وقررت استعادة نشاطها من على منصة المحاضرات. وفي أمسية من أمسيات كانون الأول عام ١٨٧٧ خاطبت فيكتوريا جمهوراً عريضاً في قاعة سانت جيمس. كان عنوان محاضرتها «الجسد الإنساني، هيكل الرب». وأثناء تناولها في المحاضرة مشاكل تتعلق بالأمومة والوراثة، كان ثمة على الأقل شخص وسط الحشد يصغي بانتباه شديد. كان يدعى جون بيدالف مارتن، وهو من عائلة أرستقراطية ثرية. وقد حركه بعمق ظهور فيكتوريا وشخصيتها. «كنت مفتوناً بها، وغادرت القاعة وأنا مصمم على الزواج منها إن قبلت بذلك».

وبعد أن تعارفا لم يكن مفاجئاً بالنسبة لـ فيكتوريا أن تجده مقبولاً وأن تبادله عواطفه. كانت تريد أمناً وقبولاً وحباً، وكان جون مارتن قادراً على منحها كل ذلك. كان مارتن، البالغ من العمر ٣٦ عاماً ـ كانت فيكتوريا في التاسعة والثلاثين ـ، شريكاً كاملاً في بنك مارتن المزدهر الواقع في شارع لومبارد بلندن. وإلى جانب الجاذبية المالية كان يمتلك ميزات أخرى. كان رجلاً هادئاً كرس نفسه للثقافة والعلم، وكانت فيكتوريا حبه الحقيقي الأول.

لم يكن والدا مارتن راضيين عن اختيار ابنهما. وحين رغبا في تحري فيكتوريا لم يجدا سوى صحيفتهما اليومية، فقد أوضحت الصحافة أن ماضي السيدة وودهول مختلف الألوان. كانت تزوجت مرتين، وطلقت مرتين، صُلبت من أجل الحب الطليق، وسُجنت في سجن بأمريكا. وارتبط اسمها بتلك الفضائح العامة، مثل فضيحة محاكمة بيتشر ـ تيلتون، وقضية وصية فاندربيلت. فهل تليق هذه المواصفات بزوجة مصرفي إنكليزي؟ بالتأكيد لا. لم يوافق والدا مارتن.

ومثلما فعل الإمبراطور الصيني القديم حين أحرق جميع الكتب والسجلات السابقةالتي سبقت عهده لكي يبدأ التاريخ المسجل بسلالته الحاكمة، جهدت فيكتوريا الآن لطمس ماضيها. وقد زعمت أن الكولونيل بلود هو من كتب المقالات حول الحب الطليق، وأنه ليس لها علاقة بفضيحة بيتشر ـ تيلتون. صحيح أنها تؤمن بتحرير المرأة، ولكن كل ما نُسب إليها شُوه وحُرف. وقد كانت حياتها، منذ البداية مثالاً لاحترام الأخلاق والأعراف.

وبعد ست سنوات نجحت فيكتوريا في إقناع والدي مارتن بقبولها. وفي ٣١ تشرين الأول عام ١٨٨٣ أصبحت فيكتوريا كلافلين وودهول، البالغة من العمر ٤٥ عاماً، زوجة مارتن وأقامت في المسكن الفخم في ١٧ هايد بارك غيت.

ومع ذلك لم تستطع فيكتوريا، خلال ١٨ سنة التي تلت الزواج، أن تطمس ماضيها الغريب المثير للاشمئزاز. لكنها حاولت بشتى الطرق والوسائل تبييض صحيفتها وتأكيد نسبها النبيل بتلفيقها نشرة مفصلة تتضمن شجرة عائلتها من جهة الأب تكشف عن انحدارها من سلالة ملوك ونبلاء.

وفي إحدى المناسبات، وجد باحث يعمل لصالح فيكتوريا كراستين على رف من رفوف المتحف البريطاني تتعلقان بفضيحة بيتشر ـ تيلتون مع إشارات إلى دور فيكتوريا في تلك الفضيحة. وحين أبلغها الباحث بذلك توسلت إلى زوجها أن يتصرف، فما كان من مارتن إلا أن تقدم بشكوى إلى المحكمة يتهم فيها القيمين على المتحف البريطاني بالقذف والتشهير. دامت المحاكمة خمسة أيام. وقد وصف الدفاع فيكتوريا بأنها

ضحية الاضطهاد الدائم، وأنها حُجزت ظلماً بسبب دفاعها عن تيلتون واتخاذها موقفاً صارماً يدين زنى الموقر بيتشر. وقد مثل المتحف البريطاني، الذي لم يسبق أن جُر إلى المحاكم بتهمة التشهير، أحد المحامين البارزين الذي كان أيضاً واحداً من القيمين على المتحف. كان استجوابه لـ فيكتوريا قاسياً وشاملاً. وأخيراً أقرت هيئة المحلفين أنه على الرغم من وقوع التشهير ليس ثمة مقاصد لتلطيخ السمعة، كما أقرت منح فيكتوريا مبلغ ٢٠ شلناً «عطلاً وضرراً».

وتابعت فيكتوريا اليقظة دائماً حث زوجها على الدفاع عن سمعتها حتى في الأماكن البعيدة جداً. ولطالما أخذته بعيداً عن انشغاله بجمع النقود القديمة وبكتابة تاريخ بنك عائلته، وأقنعته بمرافقتها إلى أمريكا واللجوء إلى العدالة. ذهبا إلى نيويورك وإلى شيكاغو لمقاضاة الصحف على نشرها مقالات تسيء إلى سمعة فيكتوريا.

ومن حسن الحظ، لم تكن حياة مارتن الزوجية مكرسة كلها للرحلات إلى أمريكا للدفاع عن فيكتوريا. كان ثمة أوقات هادئة قضياها في إنكلترا، فيها أقامت فيكتوريا مآدب عشاء فاخرة، وأمسيات ضمت العديد من وجوه لندن المعروفة. وفي عام ١٨٩٢ عادت مع مارتن إلى الولايات المتحدة للقاء خمسين امرأة بارزة في واشنطن، كان هدفهن ترشيحها مرة ثانية لرئاسة الولايات المتحدة. وقد جرى ترشيحها، ونُظمت مجموعات من حلفائها لجمع الأصوات ودعم مطلب فيكتوريا بالمساواة بين الرجل والمرأة، وحملتها لتخليص الوسط الاجتماعي من الفوضوية والجريمة والجنون والسُكْر. وأملت فيكتوريا أن يوصلها داعموها إلى البيت الأبيض،لكن ذلك لم يحصل. ففي عام

١٨٩٢ فاز غروفر كليفلاند في ٢٣ ولاية، وفاز بنجامين هاريسون في ١٦ ولاية، وفاز جيمس ويغر في ٤ ولايات، أما فيكتوريا وودهول مارتن فلم تفز في أية ولاية.

بدأت فيكتوريا في عام ١٨٩٢ بكتابة سيرتها الذاتية. وقد وجدت نفسها غير قادرة على أن تعيش من جديد التاريخ الكامل لوجودها العاصف. وبعد أن أكملت فصلاً واحداً قررت ألا تمضي في استعادة الماضي لتتمتع بأيام زواجها الهادئة.

سقط مارتن مريضاً في السادسة والخمسين من عمره، ونُصح بالذهاب إلى لاس بالماس في جزر الكاناري لاستعادة صحته. وهناك أصيب بذات الرئة، وفي ٢٠ آذار عام ١٨٩٧ توفي. وبعد أربع سنوات باعت فيكتوريا، التي ورثت ما يربو على ٨٠٠ ألف دولار، منزلها في هايد بارك غيت ورحلت إلى إقطاعة زوجها المتوفى الواقعة في ورسترشاير حيث أقامت في العزبة الفسيحة المطلة على نهر أفون. لكن هذا النمط من الحياة لم يكن كافياً بالنسبة لها. لذا فقد عادت، وهي في الثالثة والستين، وهي مصرةٌ على أن «فتنة المرأة لا عمر لها»، إلى الانغماس في أنشطة الإصلاح التي لا تهدأ.

منحت فيكتوريا مشروع إقامة كلية زراعة للشابات جزءاً من إقطاعتها. وانتقدت بشدة نظام المدرسة الإنكليزية، وافتتحت مدرسة خاصة بها لأولاد القرية. واحتضنت ثانية الروحانية، ورأست صالوناً يحضره أولئك الذين يؤمنون بما تؤمن. وفي عام ١٩١٢خصصت تحفة فضية وخمسة آلاف دولار لأي شخص ينجح في الطيران قاطعاً المحيط الأطلسي، وفي عام ١٩١٥ عملت أثناء الحرب العالمية الأولى في الصليب الأحمر.

في نهاية الحرب كانت مسنة جداً وعاشت في عزلة. كانت ابنتها دائماً بجانبها، لكن تينيسي ظلت الرفيق الأكثر تفهماً وتعاطفاً. وقد أدركت فيكتوريا دنو أجلها، لكنها لم تقبل الحقيقة. كانت تشعر بأنها أكثر حياة أثناء الأصائل حين تجلس في عربتها المكشوفة وتطلب من السائق أن يقودها بأقصى سرعته. وقد حاولت وهي في منزلها تفادي الموت من خلال تكرار قراءة سفر الجامعة. ورفضت مصافحة زوارها بسبب خوفها من انتقال الجراثيم إليها. وفي الليل كانت تتجنب النوم في سريرها خوفاً من أن يصبح تابوتها، وتنام في كرسي هزاز.

ولكن في صباح التاسع من حزيران عام ١٩٢٧ أقبل الموت على فيكتوريا كلافلين وودهول مارتن حين كانت غافية في كرسيها الهزاز، وهي في التسعين من عمرها.

في وصيتها الأخيرة، تركت إقطاعتها الكبيرة لابنتها زولو مود، التي ستمنح ثروتها بعد موتها عام ١٩٤٠ إلى معهد بريطانيا العظمى المخصص للبحث في تحسين النسل.

كان نعيها في الـ «نيويورك تايمز» في ١١ حزيران عام ١٩٢٧ لطيفاً، ولم يتضمن سوى تلميح عن ماضيها المضطرب « كانت من أنصار حق الاقتراع للمرأة، نعم، ومرشحة لرئاسة الولايات المتحدة، نعم، ولكن في النهاية كانت السيدة مارتن». ومع ذلك فإن حفنة من الأشخاص الذين عرفوا قصتها الحقيقية أقروا بأن النقش على شاهدة قبرها كان أعده منذ سنوات طويلة محرر معجب وحاقد في تروي - بـ نيويورك. فقد نقش حكم التاريخ في جملة واحدة «ينبغي أن تُشنق ثم يُشيِّد لها نصب تذكاري على قاعدة المشنقة».

في الحيـاة، وقفت فـيكتـوريا كـرمـز مـركب جسَّد كل نمط من أنماط الفحش والتـحـرر والانشـقـاق، نمط المرأة الفضـائحيـة الذي سبـقـهـا في التاريخ. كانت غير هيابة إزاء حقها بالاستمتـاع بالحرية الجنسية، وقد صممت على إحراز النجاح في عالم الرجل، وكانت نشطة في نضالها من أجل تحرير المرأة ومساواتها اجتماعياً واقتصادياً مع الرجل.إن الإنجازات التي حقـقـتـهـا هؤلاء السـيـدات الفـضـائحـيـات لـم تدم طويلاً. هبت مجتمعات الرجال لتعرقل قضية المرأة. ولكن من كل خطوة إلى الأمام، ومن كل مكسب بسـيـط، ومن كل جـهـد جـديد في الصـراع من أجل المساواة، بقي شيء حي، ذلك أن النسـاء في منتـصف القـرن العـشـرين وقفن ليس خلف الرجل ولا في ظل الرجل، بل تقريباً جنباً إلى جنب معه ـ تقريباً وليس كلياً.

ومع ذلك، هل كـانت إنجازات هؤلاء النسـاء وإعـادة تعـريفـهن لدور المرأة خلال صفحات التاريخ المتغيرة، وهماً فحسب؟

مع الأخـذ بالحـسـبـان قـضـيـة «المرأة الأخرى» في النصف الأول من القـرن العشـرين. سـيـبـدو لأول وهلة أن الحظيـة الكبـيرة والمرأة القـعـيـدة اللامعـة، غدت منقرضة كطائر الدودو. وسيبدو أن لا أسباسيا ولا نينون يمكن أن تزهرا في عـصـر التليـفـون والشـقـة السكنيـة العـاليـة وعـيـادة الدكتـور فـرويد. وبنظرة أقـرب، مـا زال ثمـة امـرأة قـعيـدة تتـحدى أعـراف المجـتـمـع الغـربي المنافق وأخـلاقـه. وهـكذا، حـتـى مع انحطـاط الخليـلة كسلطة، فإن الاهتمام بها والقيل والقال حولها ما زالا باقيين.

إن الجدول الحـديث للفجور طويل جداً. ولكن في النصف الأول من القرن العشرين كان ثمة خليلات أمثال ماري لورنسين (خليلة أبولينير)،

وكاثرين مانسفيلد (خليلة جون موراي)، وجين هيبوتيرن (خليلة أميديو موردلياني)، ونان بريتون (خليلة الرئيس وارن هاردينغ)، ومدام لوبسكو (خليلة الملك كارول)، وماريون ديفيز (خليلة و. ر. هيرست)، وكلارا بيتاتشي (خليلة ب. موسوليني) وإيفا براون (خليلة أ. هتلر)، ونورا بارناسل (خليلة ج. جويس).

مع ذلك، وعلى الرغم من وجود هؤلاء السيدات الجريئات والحيويات، يمكن القول بأنهن يمثلن كتيبة صغيرة وغير مؤثرة.

ليس تماماً

لأنهن عبرن التاريخ، كما عبرته فيكتوريا وودهول، فإن مشعل الحرية النسوية ـ الجنسية وغيرها ـ أُضيء من جديد، وغدا السير باتجاه تحرير المرأة أكثر عزماً مما كان. في الستينيات، ومع تعاظم الحدة في السبعينيات، فإن تحالف مجموعات المقاتلات النسوية على ما يبدو ـ حركة تحرير المرأة ـ شرع في إنهاء القمع الذي تعرضن له في عالم الذكورة المهيمن.

في واحدة من صحفهن أعلنت الناطقة بلسان الحركة قائلة «حين يمارس الاضطهاد على المرأة، يتطلب التحرر نضالاً ضد قيود وظيفتنا المتعلقة بالتناسل التي تقلل من شأن قوتنا الشخصية، ضد المفاهيم التي تجعلنا مسؤولات عن تربية الأطفال فقط، ضد الأعراف الاجتماعية القاسية التي تحد من مشاركتنا في أمور العالم.. لا تستطيع المرأة تحقيق ذاتها من خلال أطفالها أو من خلال زوجها؛ ينبغي أن تحقق ذاتها بمفردها. تأتي الهوية من خلال خلق الخيارات فقط، والتحرر هو عملية توفير الخيارات للناس على أوسع نطاق».

ذات مرة كان ثمة امرأة شابة، كانت بيعت لرجل عجوز، تحدت هذا الدور وعاشرت علناً بطل بحرية إنكليزي. ذات مرة كان ثمة امرأة أخرى، رأست مدرسة لتعليم الشبان أصول الحب. ذات مرة كان ثمة واحدة أدارت ظهرها للعرف لتعيش حرة، كما يعيش الرجال، مع العديد من أعضاء الجنس الآخر، ووجدت السلام بعد زواجها من رجل ينتمي إلى سلالة مختلفة وأرض غريبة عنها. وثمة أخرى استخدمت القلم لتطعن به قوانين الرجال المقدسة. وأخرى طالبت بحقها في الدخول إلى عالم أعمال الرجل وسياساته لتتحدى مقاييسه الجنسية المزدوجة ولتنهي احتكاره للذة ذروة الجماع.

اليوم، ربما بسبب أمثال نساء الماضي هؤلاء، فإن سلالتهن تبلغ الملايين ـ الملايين من النساء اللواتي أصررن على حق المساواة في السياسة والمهنة، حق الحرية الجنسية ومشروعية الإجهاض، الحق في أن يلبسن (أو لا يلبسن) كما يرغبن ويتحدثن كما يرغبن. هؤلاء الملايين يطالبن بعالم جديد ـ نهاية عالم الرجل ـ وبداية عالم الرجل والمرأة، مشاركةً ومتعةً متبادلة.

ومع قدوم النصف الثاني من القرن العشرين، يمكننا تصور عالم عادل من أجل الجنسين. وبالنسبة للأغلبية من الرجال وللأقلية من النساء، فإن هذا العالم العادل يمكن أن يبدو مهدِّداً ومزعجاً وموحشاً. ولكن بالنسبة للأغلبية من النساء وللأقلية من الرجال، سيبدو دور المرأة الجديد وقد أعطى وعداً بـ يوتوبيا العلاقات الإنسانية.

تعريف ببعض الشخصيات

١ـ فرين. الحظية اليونانية الأكثر شهرة، كان من عادتها ممارسة الجنس في الظلام فقط، ومع ذلك، كانت تستحم عارية مرتين في العام في احتفالين جماهيريين. تبدو هنا أثناء محاكمتها بتهمة إغواء موظفي الحكومة. وقد بُرئت بعد أن عراها الدفاع ليثبت أن الجسد البالغ حد الكمال لا يمكن أن يخفي روحاً خبيثة.

٢ـ لا ييس. هربت من العبودية في كورنثة وغدت حظية يونانية شهيرة وموديلاً لفنان. رفضت بأي ثمن قضاء ليلة واحدة مع ديموستينِس، لكنها أعطت جسدها دون مقابل للفيلسوف ديوجين. الصورة من رسم الفنان هانس هولاباين، وتعود إلى القرن السادس عشر، وهي معلقة في متحف في بازل.

٣ ـ أسباسيا. الحظية اليونانية التي أعجب بها سقراط، انجبت من بيركليس حاكم أثينا طفلاً غير شرعي.

٤ ـ كليوباترا، ملكة مصر وهي في السابعة عشرة من عمرها. كانت خليلة يوليوس قيصر الذي انجبت منه طفلاً، وخليلة مارك أنطوني.

٥ ـ في العصور الحديثة أُسبغ على مفاتن كليوباترا ملامح رومانتيكية، كما هو ظاهر في هذه اللوحة الفيكتورية «من العصر

الفيكتوري». وطبقاً لـ بلوتارك، لم يكن وجه كليوباترا من الوجوه التي تبهر ناظريها. شعر مصبوغ وأنف بارز، ومع ذلك جذبت فتنتها وفسوقها العديد من الرجال.

٦ ـ فاليريا ميسالينا، زوجة إمبراطور روما كلاوديوس الثالثة. كانت سيئة السمعة بسبب إفراطها في ممارسة الجنس وطقوسها العربيدية. تبدو ميسالينا في هذه اللوحة، التي رسمها الفنان النمسوي هانس ماكارت، جالسة، في مناسبة نادرة، وحيدة وفي لباسها الكامل.

٧ ـ غويليا فرانسيس في السابعة عشر من عمرها. كانت خليلة البابا ألكسندر السادس. اتخذها النحات غويغليلمو ديلا بورتا موديلاً لعمله «الصدق». كان التمثال الأصلي عارياً. وفي العصور الأكثر احتشاماً التي تلت كُسِي الجسد بأغطية من المرمر.

٨ ـ هيلواز. في القرن الثاني عشر فقدت هيلواز عفتها من أجل قس كاثوليكي شاب يدعى أبيلار. ونتيجة ذلك فقد أبيلار رجولته، حين خصاه خال هيلواز.

٩ـ نينون دو لينكلوز. أسست في ستينيات القرن السادس عشر بفرنسا مدرسة لتعليم الشباب الأرستقراطيين أصول المغازلة والجِماع.

١٠ـ ماريا لويز. كانت أميرة بارما قبل أن تتزوج ابن عمها الذي أصبح ملك اسبانيا «كارلوس الرابع». وبعد أن رسم لوران بيشو صورتها البريئة هذه عام ١٧٦٥، وبعد زواجها، باشرت حياة الزنى.

١١ـ ماريا لويزا بصفتها ملكة اسبانيا. أقامت العديد من العلاقات الجنسية، أكثر هذه العلاقات بقاءً، كانت مع مانويل دو غودوي الذي رقته بسرعة من ضابط صغير إلى رئيس للوزراء. رأى

نابليون حين قابلها «ماضيها وشخصيتها وقد رسمتا على وجهها». اللوحة بريشة فرنشيسكو غويا.

١٢ـ نيل غوين. خليلة ملك إنكليترا تشارلز الثاني، غالباً ما وصفت نفسها بـ عاهرة الملك البروتستانية. اللوحة بريشة إدوين لاندسير.

١٣ـ الليدي هاملتون. اكتسبت شهرة حين وقع في حبها الرسام البريطاني المعروف جورج رومني. وقد رسمها كـ فينوس، وسيرس، ومريم المجدلية، وجان دارك، في هذه الصورة بصفتها الشخصية. حازت قبولاً اجتماعياً حين تزوجت المسن السير وليام هاملتون سفير بريطانيا في نابولي.

١٤ـ بعد أن رسمها رومني في هذه اللوحة، قابلت الليدي هاملتون في إيطاليا اللورد هوراتيو نيلسون بطل البحرية الإنكليزي. وقد عدها نيلسون المرأة الأكثر جمالاً في العصر. وبعد سبع سنوات انتهت علاقتهما الغرامية، التي أثمرت ابنة وفضيحة عالمية، بموته في معركة الطرف الأغر.

١٥ـ بولين بونابرت شقيقة الإمبراطور نابليون. أخلصت له طوال حياته، لكنها نادراً ما اهتمت بنصيحته المتعلقة بالعفة. كانت طائشة ومنغمسة بالشهوات وفاسقة. كان نشاطها الجنسي الكثيف مصدر يأس لطبيبها المختص بالأمراض النسائية. في الصورة تقف بجانب التمثال النصفي لشقيقها. رسم اللوحة روبرت لوفيفر عام ١٨٠٦.

١٦ـ بولين بونابرت تمثل فينوس. أبدع التمثال النحات الإيطالي أنطونيو كانوفا.

١٧ـ ماريا فاليفسكايا. زوجة نبيل بولوني، عشقها نابليون بونابرت وأنجبت له طفلاً غير شرعي. رسم اللوحة روبرت لوفيفر.

١٨ـ جيرمين نيكر. أصبحت مدام دوستايل حين تزوجت ديبلوماسي سويدي. رسم اللوحة بارون فرانسوا جيرارد.

١٩ـ الكونتيسة تيريزا غويتشيولي. بعد سنة من زواجها من كونت إيطالي، قابلت لورد بايرون وعاشت معه أربع سنوات.

٢٠ـ كلير كليرمون. أقامت علاقة مع بايرون في لندن وجنيف وأنجبت له ابنته أليغرا. رسم اللوحة أميليا كوران عام ١٨١٩ .

٢١ـ الليدي كارولين لامب. كانت خليلة بايرون الأولى الهامة.

٢٢ـ إيليزابيث ميلباك، بعد ذلك الليدي ملبورن. أنجبت ستة أطفال من عدة رجال.

٢٣ـ كارولين نورتون. تورطت في فضيحتين كبيرتين. رسم اللوحة السير فرانسيس غرانت.

٢٤ـ الليدي جين إيلينبورو. الشبقة التي عشقها الكثيرون، من بينهم ملك بافاريا لودفيغ الأول وابنه أوتو ملك اليونان وأونوريه دو بلزاك. رسم اللوحة كارل شتايلر.

٢٥ـ ماري دوبليسيس. الحظية التي خلدها الكسندر دوماس الابن في روايته ومسرحيته «سيدة الكاميليا». رسم اللوحة فنان غير معروف، وهي معلقة في الكوميدي فرانسيز في باريس.

٢٦ـ دولفين ديلمار. ألهم زناها ومأساتها غوستاف فلوبير على كتابة رواية مدام بوفاري. رسم اللوحة فنان غير معروف، وهي الآن في متحف روان.

٢٧ـ ليوني ليون. تزوجها رجل الدولة ليون غامبيتا زواجاً عرفياً، وافقت على أن تظل خليلته، ورفضت أن تصبح زوجته الشرعية.

٢٨ـ مارغريت دو بونمان. هجرت زوجها لتعيش مع الجنرال جورج بولانجيه الذي خطط ليصبح ديكتاتور فرنسا عام ١٨٨٧, ورافقته إلى المنفى في جزيرة جيرسي.

٣٠ـ مارغريت فولر. نصيرة الحركة النسائية وناقدة ومحاضرة. نادت بتحرير المرأة، وكانت النموذج الأصلي لواحدة من بطلات الكاتب هاوثورن.

٣١ـ آن رويال. كاتبة وصحافية، انتقدت بشدة الكونغرس وهاجمت أعداء الماسونية والبريسبيتارية.

٣٢ـ فيكتوريا وودهول. مومس وروحانية وسمسارة في الـ وول ستريت وناشرة، رشحت نفسها لرئاسة الولايات المتحدة عام ١٨٧٢, نادت بالحب الطليق والتنانير القصيرة، وبإلغاء عقوبة الإعدام، والنباتية، وبحق المرأة في المتعة الجنسية وتحديد النسل....إلخ. كانت في السجن عشية الانتخابات.

الفهرس

قبل البداية	7
الكتاب الأول – الخلية بوصفها فضيحة	11
النساء القعائد	13
خائنات تحت الزواج	67
صورة بريشة جورج رومني	81
الكونتيسة البولونية	81
موديل كانوفا	103
عشيقة بايرن ـ النموذج الإنكليزي	113
عشيقة بايرون ـ النموذج الإيطالي	125
إمرأة شديدة الغلمة	133
الكتاب الثاني ـ البطلة كفضيحة	181
الحياة الواقعية ـ إما بوفاري	183
سيدة الكاميليا البيضاء	193
العاهرة الملعونة	209
المحدثة البارعة	241
شيريدان	251

الكتاب الثالث ـ الثاشرة كفضيحة 263
الباحثة عن الفضائح 265
المومس التي رشحت نفسها للرئاسة 285

ISBN:2-84305-907-X
9 782843 059070